قوة الأناناس

رواية

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: قوة الأناناس
اســـم المـؤلف: مي حسام أبو صير
التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 8379 / 2024

الترقيـم الدولي: 978 – 977 - 998 - 889 - 4

التدقيـق اللغوي: مي حسام أبو صير
تـصميـم الغلاف: مـنـى المـوجـي
التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه
رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد
تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

قوة الأناناس

رواية

مي حسام أبو صير

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى كل داعم وصاحب عزيمة زرعها في عقلي؛ فحققت حلم لم أكن أقوى على تحقيقه بمفردي.

إلى كل سبب ابتسامة عرفت طريقها إلى قلبي؛ فأصبح إسعادهم مقصد، والتحدي من أجلهم هدف.

إلى كل الأسماء التي مرت أمام عيني تعبر السطور مع كل حرف كتبته في إهدائي فعرف أنه المقصود.

مي حسام أبو صير

****

الفصل الأول

يقف أمام المنزل الضخم الذي حمل بداخله الكثير من ذكريات طفولته وأحلامه، أخذ نفسًا عميقًا يستعد به للمواجهة قبل أن يدخل مندفعًا يطرق الباب بعنف، فتحت له السيدة التي يعرفها جيدًا ويحمل لها في قلبه قدرًا من الود ولكنه صاح قائلًا: أين سليم بيه؟

ردت عفاف مديرة المنزل بمحبة: يا لها من غيبة طويلة بني!

صمت برهة مدركاً انفعاله وقال: عُذرًا.

_ اهدأ بُني... سليم بيه على وصول، انتظره قليلًا وسوف أُحضر لك كوب القهوة الذي تحبه.

_ حقًا أشتاق للقهوة من يديكِ ولكن دعيني هذه المرة لا أريد الانتظار.

في نفس اللحظة فُتح باب المنزل ودخلت تنادي عفافَ قائلة بإرهاق: حضري لي الغداء من فضـــ...

قطعت كلامها بمجرد أن رأته وسارت تجاهه كأنه يجذبها، تفاجأ بوجودها الذي لم يكن يعلم به ولا بعودتها من السفر ولم ينطق إلا باسمها: حنيـــــــن.

خطواتها تجاهه وكأنها شريط لثلاث سنوات مضت دون أن تراه، نظراتها تعاتبه على سنوات الفراق، ترى الشوق في عينيه مهما حاول إخفاءه، تقف في صمت تنتظر منه البدء، تتحدث العيون تارة بالشوق وتارة بالعتاب،

يفصل بينهما خطوات تجذبهما دون إرادة، أغمضت عينيها ربما تستمد منه الأمان، تتردد يدها في الوصول إليه لتتأكد من وجوده، يقاوم الاقتراب منها، عقله يريد إبعادها وقلبه يرفض، وتقف يداه بينهما حائرتين، طال الصمت الذي توقف معه الوقت، لحظات يُحيي فيها قلبها لتذيقه طعم الحنين.

لم يشعرا كم من الوقت مضى وكأنهما يعوضان سنوات العمر الماضية، لم يتصورا أن تمر عليهما سنوات دون لقاء، من يتخيل أن هذين الواقفين يخشيان الاقتراب افترقا قبل زفافهما بأيام بعد خطوبة دامت لسنوات؟!

....

_ من هذا الذي بالخارج؟!

قالتها صباح لعفاف في المطبخ بعد أن دخلت الأخيرة فور وصول حنين لإعداد الطعام لها وللسيد سليم الذي أوشك على الوصول.

_ وما شأنك؟!

_ منذ أن بدأت في إخراج الأطباق وهما على نفس الحال لم يتحركا.

تركت عفاف ما بيدها؛ فقد سمعت صوت سيارة السيد سليم وأسرعت تخرج من المطبخ قائلة: إنه يحيي ابن عم حنين، لا تشغلي بالك بهما.

وبمجرد خروجها صاحت بهما: يحيي، حنين، السيد سليم بالخارج.

رجعت حنين للخلف خطوة ثم اندفعت تجري على السُّلم مقهورة القلب أمام رد فعله الباردة تجاهها، ماذا كانت تنتظر؟ ألم يطلب منها الذهاب معه

ولكنها خضعت لإرادة والدها؟! أما هو فقد أمسك رأسه بكلتا يديه يحاول تجميع روحه التي شتتها وجودها.

دخل سليم المنزل ليتفاجأ بوجوده، فنظر إليه وعلى وجهه ابتسامة نصر قائلًا: أهلًا، ابن أخي الغالي، كنت أنتظر زيارتك في الشركة، لا بأس في الحالتين جئت بنفسك.

رد بتحدٍّ: إذا كنت تخيلت أن ما تفعله قد تنجح فيه فأنت واهم، أيصل بك الأمر لأخذ مناقصة بالخسارة فقط لتدمرني، البادي أظلم.

_ أليست طاعتي أفضل لك من أن تبدأ من الصفر كل يوم.

_ راعيت كثيرًا أنك عمي وأن الشركة تحمل سنوات شقاء وتعب والدي، ولكن أنت من بدأ.

_ لن أتركك، اعلم ذلك... ارجع ونتفاهم أفضل.

_ لم أكن أنوي الوقوف أمامك ولكنك مصمم على العداء.

انصرف مغادرًا المنزل وانطلق بسيارته وقد أخذ قلب من هي في الأعلى ليلقي به خلفه على الأسفلت وابتعد! وقد زاد العناد بداخله كما الآخر، يحمل كل طرف رأيه على حد سيفه، الجميع في وضع الاستعداد لحرب باردة.

....

أما في غرفتها بالأعلى فقد جلست على فراشها تتسابق دموعها، أمامها ألبوم للصور القديمة، ذلك الشيء الذي يبدو أنه انتهى مع عصر أصبح أبسط ما فيه هو تجميع الصور عبر الهواتف الذكية، تبتسم أمام كل صورة رغم

احتفاظها بدموعها، فلكل لقطة ذكرى وفكرة بُذلت من أجل تصويرها وطباعتها لتوضع في الأخير بين هذه الصفحات وتصبح جزءًا من كتاب مصور للذكريات، وكأن الابتسامة والدموع قررا مشاركتها، وقد خشيت منذ وصولها أن تفتحها وتقلب بين طياتها لتخرجها من فوهة النسيان، أمسكت بصورة تجمع أفراد العائلة... ثلاث فتيات وولدًا، أخبرت نفسها أنه مؤكد من صورها صديقهم معاذ، صورة أخرى في حوض السباحة، هي طبعًا من التقطتها ليحي وسلمى؛ فدائمًا ما كانت تخشى السباحة.

استندت بظهرها على الفراش لتعود بذكرياتها معهم.

في الماضي

كانت في سن المراهقة، في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية، وسلمى التي تكبرها بعام في الصف الأول الثانوي، ومثلها رهف، أما يحي فكان في السنة الأخيرة في كلية الهندسة، هذه حديقة نفس المنزل، كم كانت تمتلئ بالضحكات وهم يتسامرون بين حكاية وأخرى! سلمى تجري في اتجاه حوض السباحة، تأخذ بيد يحي ليقفزا معًا، تبتعد هي كالعادة تخشى المياه؛ فمنذ أن سقطت فيه وتعرضت للغرق لا تقربه أبدًا، تُخرج سلمى لسانها لإغاظتها وهي تمرح مع أخيها، أما هي خوفها من المجهول جعلها لا تحاول التجربة، عدم ثقتها بنفسها بسبب قسوة والدها، رباها مهزوزة الشخصية لا تقوى على اتخاذ قرار، لا بد من حارس، لا بد من طاعة الأوامر.

صعدت سلمى من المسبح ببهجة، ودخلت بعدها لتبدل ثيابها.

_ ما رأيك، حنين أعلمك السباحة؟

قالها يحي وهو يخرج من المياه لتُجيبه برفض: تعلم خوفي كلما اقتربت من الماء.

قال بإصرار: حنين تغلبي على خوفك، يحزنني مشاهدتك لنا من بعيد.

_ أنا سعيدة هكذا.

_ إلى متى ستُفضلين الهروب عن المحاولة؟! حنين، هل تثقين بي؟

_ وهل عندك شك؟!

قال وقد زاد إصراره: إذًا تخلي عن خوفك؛ أنا معكِ ولن أتركك.

خلع قميصه المبلل بسبب اندفاع سلمى وتهورها، ألقى به بعيدًا وأمسك يدها بقوة ليجذبها تجاه المياه قائلًا: تشبثي برقبتي ولا تتركيني أبدًا، لا تقلقي؛ أنا معكِ.

أطاعته... ثقة منه، وثقه به، ظلت ترتجف فترة بمجرد نزولها المياه، وما إن هدأت قليلًا حتى بدأ السباحة وهي معلقة في رقبته كطفل صغير، يحب تشبثها به في الحياة! ولكنه يخشى عليها من دونه!

ظلا هكذا كل يوم ودون علم سلمى، إلى أن أجادت السباحة بمهارة.

وجاء اليوم المنتظر لتقرر سلمى كالعادة إغاظتها، جرت وأخذت معها يحي الذي لم يتعود يومًا رفض طلب لصغيرتيه، أشار لحنين وقد وقفت مترددة لحظات، لتتفاجأ سلمى بعدها بقفزها في الماء.

صرخت سلمى بهلع، بدأ الشك يدخل قلبه ولكنها سرعان ما خرجت من آخر حوض السباحة وهي تضحك.

_ لقد فعلتِها، حنين.

قالتها سلمى بابتسامة ما ظهرت حتى اختفت وهي تنظر ليحيي الذي وقف فخورًا بتلميذته.

_ أنت تآمرت معها؟ تُخفيان عني أمر تعلمها السباحة؟! لن أنسى لكما هذا الموقف أبدًا.

قالت حنين بسعادة وإحساس بالزهو بنفسها تكاد تجزم أنه الأول في حياتها: حتى تكفي عن إخراج لسانكِ لي يا بلهاء.

استلقت على فراشها بعد هذه الرحلة التي خاضتها مع ذكرياتها، استسلمت للنوم وعلى وجهها طيف ابتسامة نسيتها منذ زمن.

وما بين الليل والصباح عيون تذهب لعالم آخر أو تظل في عالمها تحارب الأرق، استيقظت صباحًا مقررة الخروج من قوقعتها التي فضلت الاعتكاف بها منذ لحظة عودتها، سبعة أشهر لم تحاول البحث عن ماضيها المفقود، ولا عن قلبها الضائع!

مرت عدة أسابيع تذهب إلى النادي، تجلس بمفردها، لا تحاول الاختلاط بأحد رغم معرفتها معظم الوجوه، تقرأ رواية لتنفصل بها عن الواقع، تعيش بين أبطالها، ربما تجد معهم حياة تتمناها.

في يوم ظنته سوف يمر كسابقيه جلست في مكانها المعتاد بهدوء، تتخفى خلف نظارتها الشمسية التي تعمدت ارتدائها حتى لا يتعرف عليها أحد، تنظر حولها كل فترة تبحث عن مجهول ربما يأتي ليؤنس وحدتها، مستغلة عدم معرفة أحد بها بعد خلعها الحجاب!

وعلى الطاولة المجاورة، والتي اختارت الجلوس بالقرب منها عن قصد هذا اليوم تؤنس وحدتها بهم، كان يجلس ثلاثة من الأصدقاء تسترق السمع بين الحين والآخر.

_ ألم تتصل بصديقك ليأتي للغداء؟

قالتها رحمة وهي توجه حديثها إلى معاذ.

_ بالتأكيد اتصلت به، ولا أعتقد أنه سيأتي.

_ لا يفعل شيئًا في حياته سوى إعطائي الأوامر.

ليتحدث باسم قائلًا: سافرت وعدت وهو كما هو لا يمل العمل.

قالت رحمة بأسى: للأسف فقد الإحساس بالحياة.

ليرد معاذ محذرًا: الحمد لله أنه وصل إلى هذه المرحلة؛ هل نسيتِ كيف كان حاله قبل أن نفتح الشركة؟!

دخل عليهم شخص بعشوائية قائلًا: أسمع أحدًا يقول طعام وانتظار، أكيد أنا المنتظَر.

تحدث باسم بسخرية: دائمًا متطفل.

رد أمجد ببساطة: وإن لم أتطفل عيلكم، أصدقائي، فعلى من أفعلها؟!

قالها وهو يتظاهر بالبحث عن أحد لتقع عيناه عليها، تجلس بمفردها بعيدًا فقال: معك حق؛ هناك من يستحق التطفل أكثر منكم.

نظر الجميع في نفس الاتجاه فقالت رحمة: أمجد احترم وجودي.

_ أنتم من تأخذون الدنيا على أعصابكم وتُمضون شبابكم وحياتكم دون التمتع بما فيها من جمال.

قال معاذ: لا أفهم ما الذي يجبرنا على تحملك إلى الآن؟!

قال باسم محاولًا تدارك الأمر: أمجد، لا نريد مشاكل هنا.

قال ببرود وكأنه لم يسمع شيئًا: أراهنك أنها لا تقرأ.

قالت رحمة بنفاد صبر: إن كنت ستستمر على هذا الأسلوب فلا داعي لوجودك معنا.

وصل يحي وجلس دون أي كلمة، وأخذ يأكل بكل هدوء، ثم نظر إلى رحمة قائلًا: هناك أوراق أحضرتها معي لابد أن تراجعيها اليوم.

ضحك معاذ بسخرية: كان يجب ألا أُدهش لسرعة حضورك.

ضحكت رحمة قائلة: كنت واثقة أن وراءه سببًا.

تحدث أمجد غير مهتم بحديثهم: نامت الفتاة، يبدو أن ليلها كان طويلًا.

قال باسم بدهشة: كف عن هذه التصرفات الصبيانية.

أشار له بعدم اهتمام، وتحرك في اتجاه الطاولة المجاورة، وأمسك بالمقعد المقابل للفتاة وجلس عليه بكل بساطة، رفعت رأسها بدهشة عندما شعرت بحركة، وقالت: ما هذا؟! من أنت؟

رد ببرود: آسف؛ ظننتكِ أخرى، ولكن لا مانع من التعارف.

_ من فضلك انصرف حالًا، ولا داعي لهذا الأسلوب الساذج.

أطلق ضحكة مستفزة قائلًا: وهل جلوسك بمفردك تمسكين كتابًا ليس بأسلوب قديم؟

وقفت بتأهب قائلة: الزم حدودك وابتعد وإلا فستندم.

انتبه يحيي للصوت الذي يعرفه جيدًا، رفع رأسه عن الطعام، وقف دون أن ينظر خلفه محدثًا نفسه بصوت مسموع: حنين!

الفصل الثاني

ربما تعتقد أنك بعيد عن المواجهة، ولكن هناك أقدارًا مهما ظننت أنك تحركها فاعلم أنك لست المحرك الوحيد لها، هناك يد أقوى منك تلقي بك إليها مرغمًا، فقد حانت اللحظة.

أبعد يحي كرسيه بعنف مرددًا اسمها

انتبه الجميع لما قاله، فوقفت رحمة على الفور تنظر إليها وقالت: حنين ابنة عمك؟! كيف لم نعرفها؟!

اندفع يحي تجاههما؛ فقالت رحمة برعب: ستحدث كارثة.

أسرع معاذ وباسم للحاق به وقد تحول فجأة إلى شعلة نار حتمًا ستحرق أمجد.

وقفت حنين تحمل أغراضها لتنصرف فتفاجأت به يمسك ذراعها وهو يقول: إلى أين يا قمر.

ضربته في ركبته بقدمها في حركة معروفة للدفاع عن النفس، لتربك تصرفاته وصرخت قائلة: إن اقتربت مرة أخرى سوف أكسر عظامك.

حاول جذبها كثور هائج؛ فرد فعلها أهانه أمام من حوله وقد اتجهت كل العيون إليهما، ولكن باغته يحي وهو يمسك يده قائلًا: هل جُننت إلى هذه الدرجة؟

رد بسخرية: يحي باشا منقذ الأحرار، ما دخلك أنت؟!

ربت بعنف على كتفه قائلًا: انصرف من وجهي يا أمجد أفضل لك.

تدخل باسم قائلًا: إنها حنين ابنة عمه؛ لا داعي لافتعال المشاكل.

ابتسم بتهكم قائلًا: ابنة عمك؟ جيد!

والتفت إلى حنين التي تراجعت للخلف موقنة أنه ستحدث مشكلة بسببها كانت في غنى عنها، ليكمل هذا الوغد حديثه: جميعنا يعلم ما فعله عمك معك؛ فعلا داعي لدور البطولة.

نظر إليها بوقاحة، ليزيد من غضب يحي وثورته، فهجم عليه قائلًا: يا حيوان إنها عرضي، ماذا تعاطيت اليوم؟ هل تستوعب ما تقول؟!

لكمه يحي ليتداركه الآخر سريعًا حتى لا يسقط أرضًا؛ فوقف باسم ومعاذ بينهما ليمنعا التشاجر بالأيدي.

صاح بها يحي قائلًا: انصرفي ولا تأتي إلى هنا مرة أخرى.

ألجمها صراخه؛ فتحركت مسرعة دون نقاش تحاول لملمة كرامتها؛ وخلفها رحمة تحاول اللحاق بها.

بعد معاناة استطاع معاذ وباسم فض الاشتباك ليذهب أمجد وهو يتوعدهم جميعًا، فلم تكن هذه المرة الأولى التي يحتد فيها الخلاف بينه وبين يحي بالتحديد، فبينهما الكثير من المشاحنات التي جعلت النفوس تحمل الكثير منذ سنوات الجامعة.

تحرك باسم خلفه قائلًا: لقد تجاوزت أكثر من اللازم، لا يصح ما فعلت.

رد بغل: سيرى جميع ما يمكن أن أفعله، أنا وراءه حتى أكسر عينه.

خارج النادي وبعد أن استطاعت رحمة اللحاق بها، جذبت مفتاح السيارة من يدها، وفتحت لها الباب بجوار كرسي القيادة قائلة: اجلسي قليلًا واهدئي.

دارت حول السيارة لتجلس هي أمام عجلة القيادة، قائلة وقد وجدتها تمسك برأسها: هل أنتِ بخير؟

ولكنها سريعًا ما غابت عن الوعي، فاتصلت رحمة بزوجها فورًا تخبره ما حدث.

أغلق معاذ الهاتف، وجذب يحي الذي يقف كالأسد يريد الانقضاض على فريسته مرة أخرى وقال: حنين فقدت الوعي بالخارج.

لم يناقشه فيما قال وركض متجهًا خارج النادي، وخلال لحظات كان الاثنان أمام السيارة، فتح يحي الباب المجاور لحنين، وجلس على ركبته ممسكًا بيدها وهو يقول بقلق: حنين، ماذا بكِ؟ حنين..

_ يحي، أعطني فرصة للكشف عليها.

حاول أن يأخذ يدها ليقيس لها النبض، ليتفاجأ به يقول: لا تلمسها.

_ ماذا؟! أنسيت أني طبيب أيها الأحمق؟!

أبعده معاذ بيده ليكمل قائلًا: لا مجال لهذا الهراء، لا تلمسها أنت، أنسيت أنك طلقتها؟

أعطى رحمة مفاتيح سيارته قائلًا: أحضري حقيبتي بسرعة.

وصاح به قائلًا: افرد لها الكرسي، هل ستقف هكذا كثيرًا؟!

دار يحي حول السيارة ليجلس جوارها وينفذ ما طلب، من يراه يعلم أنه في حالة اختلفت عمَّا ظهر عليه منذ قليل، ربما لو رأته هي هكذا لما فضل عقلها أن يغيب عن الوعي.

وبعد أن قام معاذ بإسعافها، بدأت في استعادة وعيها تدريجيًّا.

_ منذ متى لم تأكلي؟ هل تعانين من انخفاض الضغط دائمًا؟

حركت رأسها بـ "نعم" محاولة التركيز.

لحظات واستوعبت من يجلس بجوارها، فنظرت إليه بعتاب وأدارت رأسها إلى الجهة الأخرى، وقالت لمعاذ: أريد الذهاب من هنا.

_ يجب أن تأكلي الآن أي شيء.

لم تُجب، فقط كانت تمسك رأسها حتى غادر يحي السيارة، وعادت رحمة تجلس جانبها تحاول إقناعها بشرب بعض من العصير، ولتكسر ذلك الحاجز بينهما مدت يدها بالسلام قائلة: أهلًا، حنين، فرصة سعيدة، أقصد كنت أتمنى أن نتقابل في فرصة أفضل، أنا رحمة، زميلة يحي منذ الدراسة، والآن شريكته في العمل، هل تذكرينني؟ رأيتكِ منذ سنوات، كنتِ حينها في المرحلة الثانوية على ما أعتقد.

ردت باقتضاب: بالطبع أذكركِ.

فتحت حنين الباب تستعد للنزول من السيارة وهي تقول: أريد الذهاب.

_ أغلقي الباب سأقود أنا السيارة، لقد اتفقت مع معاذ على ذلك.

_ لا داعي، أنا بخير.

_ انسي أن أتركِ هكذا، سوف يأتي معاذ خلفنا بسيارته لأركب معه بعد توصيلك، لا تقلقي.

_ ولكن...

قاطعتها بابتسامة قائلة: هذا قرار نهائي.

أدارت حنين رأسها إلى الخلف لترى يحي وقد استعد للانصراف هو الآخر، أكانت تتخيل أنه سيعود للاطمئنان عليها؟! أغمضت عينيها بحسرة ومسحت دمعة هربت دون استئذان وهي تؤكد لنفسها أنه إن كان لا يزال هناك قليل من الاهتمام فمؤكد بدافع صلة الدم والعشرة، ويجب ألا تتطلع لأكثر من ذلك.

أما خارج السيارة

_ طمئنِّي عند وصولها.

_ ولماذا لم تقُم بتوصيلها أنت؟!

_ لا يفرق كثيرًا، رحمة ستقوم بالواجب.

_ لماذا تقسو عليها هكذا؟! من يراك الآن لا يصدق أنك نفس الشخص الذي هرول إليها منذ دقائق وصرخ فيَّ ألا ألمسها.

_ إنها ابنة عمي؛ هل غريب أن أقلق عليها؟!

_ حسنًا، واضح أنك نسيت أني أعرفكما منذ عمر طويل.

انصرف يحي دون إلقاء التحية عليه، ولم يحاول النظر خلفه.

....

بدأت رحمة بالحديث محاولة كسر حاجز الصمت وهي تقود السيارة قائلة: هل أصابكِ إغماء من قبل؟

تحدثت وكأنها لم تسمع ما قالت: هل تزوجتِ معاذًا؟

_ أعتقد أنكِ حضرتِ مع يحي حفل خطبتي، أليس كذلك؟

_ أتذكر بالطبع ولكني لم أحضر حفل الزفاف.

_ تقريبًا سلمى هي من حضرت، أنتِ كنتِ قد سافرتِ.

ردت حنين بدهشة لفتت نظر رحمة: سلمى حضرت حفل زفافك على معاذ؟! واضح أنه قد فاتني الكثير.

لم تحاول رحمة الحديث معها مرة أخرى وبمجرد أن وصلتا أمام منزل حنين الذي تعرفه جيدًا، سلمت عليها وغادرت في هدوء لتركب مع زوجها، ولم يشعر أحد بذلك الجالس في سيارته بعيدًا، لم يستطع معاندة قلبه الذي أبى ألا يطمئن عليها.

جلست بجوار زوجها وعلى وجهها علامات الحزن الذي لم يخفَ عليه ليقول: ما الداعي لكل هذا البؤس؟!

_ لا يستحقان الفراق.

_ لولا علمي بوجود حنين لكنت شعرت بالغيرة من هذا اليحي.

وبضحكة دائمًا ما تأثر عقله قالت: أتغار ممَّن خطبتني منه يا رجل؟!

دندن مغازلًا إياها وما زال ينظر أمامه يركز في القيادة: أغار عليها من فم المتكلِم... أغار عليها من أبيها وأمها... إذا حدثاها بالكلام المغمغِم...

ابتسمت، ربما لا تعرف كيف تخجل منه، ولكنه أربكها كالعادة ليعم بعدها الصمت الذي جعلها تذهب لذكريات بعيدة.

في الماضي

وقفت مترددة أمام الكلية أمام تجمعًا من الطلاب كانت تبحث عنه، أخذت نفسًا عميقًا وقررت الذهاب، فلا حل أمامها إلا هذا.

_ باش مهندس يحي، من فضلك لحظة؟

وقبل أن تظهر دهشته تفاجأ بزملائه ممَّن يقف معهم يأخذون الأمر بوقاحة أحرجت الفتاة ما بين همهمة واستظراف.

فقال أمجد: إنه محجوز يا باش مهندسة.

التفت إليهم قائلًا بغضب: احترموا المكان الذي تقفون فيه، أوصل بكم أن تحرجوا الفتاة؟! هل هذه الرجولة من وجهة نظركم؟!

انصرف بعدها ليضحك أمجد قائلاً: مبالغ فيه هذا الشخص.

رد باسم: حقيقة هو أحرجنا، لا تنكر.

اتجه يحي إليها قائلًا: خير، آنسة؟ هل أستطيع مساعدتكِ في شيء؟

_ كنت أريد شيئًا... وإذا كان هناك حرج من الأمر فلا عليك.

_ خير.... ما الأمر؟

_ أعرف أن عائلتك تمتلك شركة مقاولات... وكنت... كنت أود مساعدتك لأعمل بها، لا أخفي عليك... أعمل لإكمال دراستي، أنا أعيش هنا بمفردي، أبي متوفى وأمي لا أعلم عنها شيئًا...

لتكمل وقد نظرت إلى الأرض بخجل تحاول منع دموعها: لن أستطيع إكمال دراستي إلا بهذه الطريقة.

أبهره ثقتها واعتزازها بنفسها رغم انكسارها الواضح! ليقول ببساطة محاولًا أن يُظهر الأمر طبيعيًّا: أنا أتدرب بالفعل في الشركة، أعدكِ غدًا سأخبركِ الرد، ولكن... لي استفسار... من أين تصرفين الآن؟ ولماذا أنا من طلبتِ مني ذلك؟

ابتسمت قائلة: أعمل مساءً بأحد محال بيع الملابس، الأمر صعب أقابل الكثير من السخافات، أما بالنسبة لماذا أنت؛ فصراحة أنت الوحيد الذي لم تحاول إيذائي بالكلام أو حتى.. بالنظر.. إن لم تستطع مساعدتي فمؤكد لن تجرحني.

أخذ نفسًا وهو يقول بابتسامة مواسية: لا عليكِ، من الآن أخواتي البنات زدن واحدة.

ابتسمت بامتنان وهي تقول: كم أخواتك إذًا؟

قال مازحاً: رسميًّا واحدة، أما فعليًّا فهن ثلاث، والآن أصبحن أربعًا.

....

جلست أرضًا بجانب فراشها، أغمضت عينيها تتساءل هل ستعود لهذا السجن الذي فرضته على نفسها؟ هل كُتب عليها الوحدة وكأنها المذنبة؟ لماذا ينتهي آخر أمل لها أن تظل جواره؟ لماذا مصمم على تركها بمفردها؟

تبكي، وكأن البكاء سيغير الواقع، وكأنه سيحل مشكلة أو سيعيد الزمن للوراء، تبكي ولم يعد معها سوى الذكريات.

....

صباحًا.. في مقر شركة يحي، جلس يرحب بصديقه قائلًا: أهلًا باسم، أخيرًا زرتنا!

_ لم آتِ اليوم إلا لأني أعلم أهمية ابنة عمك بالنسبة لك.

أضاق ما بين حاجبيه وقال بحدة: وما دخلك بها؟!

_ أمجد لا ينوي خيرًا أبدًا، حقك عليَّ يلزمني أن أنبهك، أنت تعرفه؛ ليس متزنًا لنتوقع ردود فعله.

_ أتعلم يا باسم إذا اقترب منها ماذا يمكن أن أفعل به؟

حاول بعدها الخروج من الموضوع، وقال: هل عدت من السفر نهائيًّا؟

_ أجل، لا أنوي السفر مرة أخرى؛ أريد أن أحقق نجاحًا هنا في بلدي، فمهما طال السفر سأعود، فلماذا لا يكون ذلك من الآن؟

_ إذًا فكر في العمل معنا؛ نحن نحتاج وجودك، وقد عرضت عليك ذلك قبل سفرك وأنت صممت أن تخوض التجربة.

وقبل أن يرد أردف يحي قائلًا: فكر جيدًا، ومعك كل الوقت.

_ دعني أرتب أفكاري أولًا قبل أن أرد عليك.

....

بعد مرور عدة أيام لم تذهب حنين فيها إلى النادي تمتثل لأوامر شخص لم يهتم بوجودها، تخرج يوميًّا تجلس أمام النهر، تحاول الابتعاد عن متابعة المتلصصين، تقرأ كالعادة أو تسير بلا هدف أو بالأصح بلا أمل، لتعود في يوم وتجد ما لم تتوقعه ليكمل حظها العسر؛ ناداها والدها وكأنه في زحام عمله تذكر وجودها فجأة! ليقول بجدية شديدة كعادته: لمَ هذا التأخير؟

ردت ببرود: هل تحتاج شيئًا؟

_ نعم، هناك ضيوف مدعوون على العشاء اليوم، أريد منكِ استقبالهم معي، أريدكِ أن تكوني في أبهى صورك.

_ لماذا؟!

_ لأن الأستاذ زاهر رشوان صديق قديم لي سيحضر لزيارتنا بصحبة ابنه، صراحة حاول التلميح لي بأن ولده يريد الارتباط بكِ.

ردت باندفاع: أنا غير مستعدة أبي، تعلم ما مررت به.

خرج عن هدوئه وقال بنبرة مرتفعة: هل تريدين أن أتصل بالرجل وأقول له عفوًا، لا تأتِ منزلنا اليوم؛ فالسيدة حنين غير مستعدة؟! اسمعيني جيدًا، لقد صبرت عليكِ كثيرًا، ولن أتركِ تضيعين فرصة كهذه، ومع ذلك، اجلسي معهم اليوم وبعدها نتناقش في الأمر، بعد أن تريه، وعندها ستكون كل الأمور واضحة.

حركت رأسها بحسرة وصعدت لغرفتها دون روح، دون حياة ودون حلم؛ هكذا هي دائمًا مطيعة سلبية، ما الجديد؟!

في المساء وعلى موعد العشاء نزلت حنين مع والدها لاستقبال الضيوف، لتفاجأ بابن السيد زاهر هو ذلك الشخص الوقح المدعي أمجد، وأمام صدمتها، رسم الأخير ابتسامة هادئة على وجهه، وقدم لها باقة من الزهور بكل لياقة؛ فابتسم والدها بنصر كأنه أصاب هدفًا.

قررت أن تمرر اليوم بهدوء، وألا تذكر اسم يحيى لوالدها نهائيًّا حتى لا يزداد عنادًا وينقلب الأمر عليها.

بعد تناول العشاء جلس الجميع يتسامرون، ولكن الحديث لم يخلُ كعادة والدها من الصفقات؛ فاتفق مع زاهر أن يتولى تشييد وبناء القرية السياحية بكاملها، التي يخطط زاهر لبنائها في منطقة الساحل، على أن يتم إمضاء العقود في اليوم التالي.

وخلال مناقشاتهم استأذنت لتغادر إلى الحديقة؛ ربما تستطيع أخذ أنفاسها بعيدًا عن حديث والدها الرتيب، ظلت تتجول شاردة حتى وقفت أمام مجموعة من الزهور في زاوية من سور الحديقة خلف المنزل، جلست على الأرض تمسح على الأزهار تنظفها من غبار الزمن، تبتسم وهي تشكر بداخلها عفاف التي اعتنت بها أثناء عدم وجودها، بعكس أشياء كثيرة بالمكان قتلها التجاهل وعدم الاهتمام.

أجفلت على يد تمسك بها فانتفضت من مكانها وهي تحاول تخليص يدها منه قائلة: أنت مرة أخرى؟! ألا يهمك وجودك هنا؟!

ضحك بسخرية قائلًا: لن أقبل حديثك بهذه الطريقة مرة أخرى.

_ تقبل أو لا تقبل ليس شأني، ابتعد من أمامي.

أمسك يديها الاثنتين ليثبتهما خلفها على الحائط، وقبل أن تصرخ وضع يده على فمها يقول بتهديد: أحذركِ من التهور، سوف تندمين عندما يجدونكِ ملقاة على هذه الأرض وسط ورودكِ الجميلة؛ فأنا لا يهمني فعل أي شيء.

فتحت عينيها باتساع بصدمة، مدركة أن هذا الشخص ليس طبيعيًّا، ابتسم وأكمل قائلًا: أردت إخبارك فقط بشيء صغير يا حلوتي للعلم بالشيء؛ لأرى تأثير الخبر الجميل عليكِ، وافق والدكِ على خطبتنا، والحفل بعد يومين من الآن، وقبل تسجيل عقود الشراكة.

حاولت حنين التخلص منه أو ركله بقدمها، ولكنه كان قد أحكم تقييدها، وأكمل حديثه المستفز: حبيبتي، لا تخرجي من المنزل بغير علمي، أفهمتِ؟ أنت الآن خطيبتي.

تركها وهو يضحك، وقد ألجمتها الصدمة عن الحديث، ليكمل قائلًا: شهران فقط على الزفاف، استعدي، أنا لا أقبل بأي ليلة بسهولة، لي مواصفاتي الخاصة، لقد نبهتكِ، استعدي من الآن، ولكن لا تستعدي كثيرًا؛ فالطلاق سيكون هدية صباحيتك يا عروس؛ فأنا لست ممَّن يفضلون هذه القيود، ولكن أشعر أن الأمر هكذا سيكون ممتعًا.

أطلق ضحكة مستفزة وأردف: سوف يصبح خبر الموسم؛ ابنة رجل أعمال مشهور، سليلة الحسب والنسب، طُلقت يوم صباحيتها، وطبعًا السبب معروف، الكل يبحث عن فضيحة.

غادر ضاحكًا، ظلت مكانها لا تستوعب ما قاله هذا الخسيس، تحرك رأسها بعدم تصديق، من أين لها بهذا المجنون؟ هل كان ينقصها ذلك؟! جلست على الأرض تبكي بكاءً بطعم العلقم ثلاث سنوات اعتقدت أنها أنهت بها كل مرار حياتها، كانت تنتظر الأفضل، ولكن يبدو أنه مازال هناك الكثير.

وبعد أن أفاقت من صدمتها، دخلت المنزل لتجد والدها يبحث عنها وقد انصراف الضيفان.

_ أين كنتِ؟ لماذا لم تعودي لتوديع الضيوف؟!

قالها بغضب، فلم يجد أي رد منها وكأنها لم تسمعه، ليردف قائلًا: على العموم، اتفقت أنا وزاهر أن خطبتكِ لأمجد يوم الخميس القادم.

قالت بعدم تصديق وداخلها بركان كاد ينفجر: خطوبة مَن؟ هل وافقت أنا؟! حددت خطبتي دون علمي؟! كيف تسلبني أبسط حقوقي؟!

ارتفعت نبرت صوتها أكثر قائلة: كيف تتخيل أني سأوافق بهذه السهولة؟! تبيعني بصفقة! بعد كل ما حدث لي تعود وتريد بيعي!

_ تهذبي يا فتاة وأفيقي لما تقولين.

_ بالعكس، لقد أفقت، ولكن للأسف بعد أن أضعت كل شيء، تبيعني ولكن هذه المرة بالرخيص.

تفاجأت بصفعة سقطت على أثرها أرضًا، فقالت بتحدٍّ: لا أبي، هذه المرة لن أصمت، لن أباع، كفاني انتهاكًا، كفاني ذُلًّا.

خلع حزامه بجمود وانهال عليها ضربًا، ورغم قسوته فإنها استمرت على نفس كلماتها: لن أُباع أبي

لست إحدى أملاكك

تعلمت الدرس

لن أصمت مرة أخرى.

زادت ثورته ومعها صفعاته قائلًا: عديمة التربية، سأربيكِ من جديد.

_ أجل، لم تربِّني، لم أجد إلا إياها تربيني، قلتها سابقًا.

تدخلت عفاف وصباح لتخليصها منه، ومع ذلك جذب شعرها يصعد بها إلى غرفتها وهو يقول: فعلًا، سأربيكِ من جديد.

دفع بها داخل الغرفة وخرج يهتف بحدة قائلًا: حذار أن تخرج دون علمي، أسمعتما؟

دخلت إليها عفاف فور مغادرته تُطيب جراحها وهي تبكي حال التعيسة التي تركها الجميع مع أب قاسي.

في الصباح، بمجرد مغادرة سليم، خرجت حنين من غرفتها بخطوات حذرة تحاول التخلص من هذا الكابوس، وجدت صباح أمامها فصرخت بفزع وقد انهار أملها في الفرار.

أمسكت صباح يدها تجذبها في اتجاه المطبخ، لم يكن أمامها أي خيار غير أن تطيعها، فتحت لها الباب الخلفي للفيلا قائلة: هذا أفضل حتى لا يمنعك الأمن، هل معكِ نقود؟

هزت رأسها بـ "لا" فأخرجت صباح من جيبها ورقة مالية أعطتها لها وهي تربت على كتفها بشفقة قائلة: اركبي سيارة أجرة من أول الشارع حتى لا يراكِ أحد.

أطلقت العنان لقدميها وبمجرد أن ركبت السيارة وسألها السائق أين تود الذهاب، لم تتذكر سوى عنوان واحد.

وصلت أمام شركة يحي، منعها الأمن من الدخول؛ فشكلها مثير للريبة، هندامها غير المنظم، شعرها المتناثر حولها بعشوائية.

قالت بصوت مهتز: من فضلك، أريد المهندس يحي.

قال الرجل بارتياب: لم يحضر بعد، من فضلكِ ابتعدي من هنا.

قالت بتوسل: أرجوك، لا بد أن أقابله، حدثه، أخبره أني أريده، قل له حنين، من فضل، أنا ابنة عمه، لا بد أن أقابله.

_ وهل ابنة عمه لا تعرف رقم هاتفه أو حتى منزله؟!

جلست على السلم ترتجف، ولم تتحرك رغم محاولات الأمن إبعادها، إلى أن وصلت رحمة إلى الشركة لتتفاجأ بها

_ حنين، ماذا بكِ؟!

الفصل الثالث

نظرت حنين إلى رحمة بتوسل قائلة: أريد يحيي، أرجوكِ.

جذبتها لتقف واتجهت بها إلى سيارتها بعيدًا عن مدخل الشركة الذي بدأ يلفت النظر: اركبي، سنذهب إليه.

أطاعتها كطفل صغير ليس بيده فعل شيء، حاولت الاتصال به ولكن بلا فائدة، اتصلت بزوجها لتخبره بوجود حنين معها، ليؤكد لها أن تذهب بها إلى شقة يحيي وليس منزل العائلة وأنه سيسبقها إليه.

وصل معاذ قبلهما وظل يضرب الجرس فترة وأخيرًا استيقظ يحيي الذي دُهش من طرق الباب بهذا الشكل، وبمجرد فتحه للباب قال بتكاسل: ماذا حدث لكل ذلك؟! ألا تعلم أني وصلت من السفر فجرًا؟

_ رحمة في طريقها إلى هنا ومعها حنين، وجدتها منهارة أمام الشركة تبحث عنك.

هرب منه النعاس وأجفل قائلًا: ماذا حدث؟

_ رحمة أخبرتني أنها منهارة ولا تقوى على التحدث.

جذب مفاتيحه وهاتفه من على الطاولة، وخرج مسرعًا وخلفه معاذ، اتصل برحمة ليطمئن على قرب وصولهما وربما تكون قد فهمت شيئًا منها لتخبره أنها على وشك الوصول؛ فأغلق الهاتف وهناك ألف خاطرة تجول برأسه، يتحرك يمينًا ويسارًا بعصبية.

وخلال دقائق وقفت سيارة رحمة أمامهما، فأسرع يحي باتجاه الباب المجاور لحنين، وبمجرد أن فتحه تفاجأ بما هي عليه، فقالت رحمة محاولة طمأنته: يحي، هي نائمة، لا تفزعها.

أبعده معاذ ليقوم بشد جفنها لأسفل قائلًا: هي نائمة فعلًا، لا تقلق.

لم يرد عليه وحملها وصعد إلى شقته، اتجه بها إلى غرفة النوم، وضعها على الفراش، ونظر إلى معاذ قائلًا: هذا الضرب حديث.

هز رأسه بأسى، ونظر إلى زوجته قائلًا: أيقظيها بهدوء وحاولي فحص جسدها لنتأكد من عدم وجود جروح تحتاج إلى تدخل.

جذبه معاذ خارج الغرفة وأغلق الباب، حاولت رحمة أن توقظها بعد أن تأكدت أنها لا تعاني أي إصابات شديدة، وما أن فتحت عينيها ووجدت نفسها على الفراش حتى صرخت بلا وعي ودون أن تنظر إلى رحمة التي صُدمت من رد فعلها، لحظة واقتحم يحي الغرفة، لم يقاوم صراخها ولا استغاثتها باسمه، ضمها بين ذراعيه يحاول تهدئتها، وأمام نظرات رحمة لمعاذ، ما كان من الأخير إلا أن قال: يحي، قم معي واتركها تهدأ لتخبرك ماذا حدث فيما بعد.

أبعدها بهدوء قائلًا: حنين، أنتِ معي، لا تخافي.

قالت بتوسل: لا تتركني.

_ أعدكِ لن أتركك منذ هذه اللحظة، فقط اهدئي لأفهم ماذا حدث.

وقف ليخرج من الغرفة، فهتفت: لا تتركني.

مسحت دموعها بظهر يدها وأردفت: أنا بخير.

تحدثت رحمة أخيرًا بعد كثير من الصمت: حنين، قومي معي اغسلي وجهكِ وتناولي أي شيء، وبعدها تحدثا معًا كما تريدين.

تحركت معها بطاعة، وخرج يحي مع معاذ الذي عاتبه قائلًا: ما عهدتك هكذا، أنسيت أنها لم تعد زوجتك؟ هل ستنهار بجوارها؟!

رد بحرج: لن يتكرر، اطمئن.

_ أنا أنبهك لتصرفاتك، لم تعد الصغيرة التي ترعاها، وليست سلمى أختك، أعلم أنك تراعي الله فيها، فلا تترك مشاعرك تحركك، وخاصة أنك اليوم لست كالأمس!

خرجت رحمة فقال فور ظهورها: لا بد من وجود أحدنا بالشركة، وأنت معاذ، اذهب إلى عملك ولا تخف؛ كل شيء سيصبح على ما يرام.

حاول معاذ الاعتراض قائلًا: ولكن...

قاطعه بحزم: لن تتحدث أمامكما، وبحالتها هذه لا يمكن أن أذهب بها إلى أي مكان.

رد بغير اقتناع: حسنًا، سأنتظر مكالمتك.

....

_ اتركي سيارتكِ هنا لأوصلكِ وسأمر عليكِ بعد العمل.

ابتسمت رحمة وقالت بمشاغبة: سأذهب كما أخبرتك، لا تحاول.

_ إذًا انتظريني بعد العمل لأذهب معكِ.

مدت يدها تخلع نظارته الطبية وكأنها تُفقده هذه الهالة الجادة حوله وقالت بنعومة: قلت لك لا تحاول.

أخذ نظارته بيأس وفتح لها باب سيارتها لتركب، واتجه إلى سيارته، ظلت تنظر إليه بتأمل وهي جالسة أمام عجلة القيادة وكأنهما في بداية قصتهما ولم يمر أكثر من ثلاث سنوات على هذا الزواج، تبتسم وهي تشاهد كل تفاصيله التي تحفظها، نظارته الطبية التي تزيده وسامة وجاذبية، أناقته المعتادة ببدلته الرسمية التي لا يتخلى عنها إلا نادرًا، حتى وقار وسحر ابتسامته لها من وراء زجاج سيارته بعينيه البنيتين كلون شعره، ابتسمت عندما استوعبت أنه لاحظ تأملها له، غمز لها وهو يدير سيارته قبل أن يشير لها أن تتحرك ليتحرك خلفها وقد رماها بسهام عشقه للمرة التي لا تعرف عددها.

....

مهما مرت الأيام سيظل من في القلب كما هو، محفوظًا في مكان خفي لا يستطيع الوصول إليه إلا عقل المحب الذي أخفاه بجدارة، خدعك من قال إن البعيد عن العين بعيد عن القلب، عقلك وحده هو من يستطيع إخراج هذا الحب والرمي به بعيدًا إن كنت ترى أنه يستحق ذلك، أو حبسه خلف أبواب أغلقتها عليه بإحكام منتظرًا حكمك بالإفراج عنه.

جلس يحي جوارها متحدثًا بحنو أنعش روحها: عمي من فعل هذا؟

حركت رأسها بـ "نعم" دون أن تتكلم، فقال بأسى: أتصل به قسوة القلب إلى هذه الدرجة؟

ردت بهدوء: ليست الأولى، الفرق فقط أني استطعت الهرب هذه المرة.

_ ماذا تقصدين؟

_ سأخبرك كل شيء، لكن... أشعر بالجوع.

نهض فورًا ملبيًا طلبها ليمسك الهاتف ويطلب كل ما يعلم أنها تحبه، وأثناء انتظارهما الطعام أخذت تقص عليه ما حدث منذ أن رأت أمجد في منزلهم إلى أن هربت من المنزل بمساعدة صباح، صُعق ممَّا وصل إليه هذا الوغد وما خطط له.

استلم الطعام بعد فترة، وأخذ في فتح الأكياس أمامها ليجدها تنقض عليه كمن لم يأكل من قبل، ظل ينظر إليها لا يعرف أيفرح بوجودها أمامه أم يحزن على حالتها؟ لم يستطع الانتظار حتى تنهي طعامها فقال: لماذا لم تخبري أباكِ بما فعله هذا الحقير؟

_ لم يصدقني.

قال بدهشة: لماذا توقعتِ هذا؟ ما تقولينه ليس هينًا.

_ لأنه لم يصدقني من قبل.

تركت الطعام من يدها وكأنها تذكرت شيئًا، وأكملت بتوتر وقد بدأ يشعر بأن القادم ليس أفضل.

_ حنين، ماذا تخفين؟ لماذا حاولتِ الهرب من قبل؟!

أخذت تقص عليه ما عانته ببساطة لا تتناسب مع ما تقول، وكأنها تحكي له قصة ليست هي بطلتها: أجل، حاولت الهرب منذ ثلاث سنوات، ولكن للأسف لم أستطع؛ كنت ضعيفة كما وصفتني أنت تمامًا عندما أخذتهم جميعًا وتركتني وحدي.

لتذكره بما حدث وتقص عليه ما لم يعلمه.

في الماضي

حمل جميعهم الحقائب ليغادروا منزل العائلة لأول مرة، اتجه يحيي بوالدته وأخته إلى السيارة، وأمام بكائهما وإصراره هو على عدم الاستمرار في هذا المكان، قام بالدخول مرة أخرى ليجدها ما زالت واقفة كما هي على السلم، لا تعرف كيف تتصرف، نظر إليها قائلًا: لآخر مرة أقول لكِ تعالي معنا.

صاح سليم: ما لك بها؟ أردت الرحيل، فلا مشكلة، أيها الغبي؛ ستعود رغمًا عنك يومًا نادمًا على ما تفعل الآن.

رد بنفاد صبر: تريدني أن أعمل عندك وأنا لي مثلك وأوافق؟! تريد أن أطيعك فيما لست مقتنعًا به وهو مالي!

قال بحدة: لا تصدق نفسك، هذه الشركة مجهود سنوات طويلة، كيف تتخيل أن أسلمك نصفها بهذه السهولة؟!

تحرك مغادرًا وقال: سأعود وآخذ حقي، أعدك بذلك.

ونظر إلى حنين وقال صائحًا: تحركي، لمَ تقفين هكذا؟!

قال سليم بسخرية: وهل هي من حقك أيضًا، يا ابن أخي؟!

رد بثقة: نعم، حقي وأنت تعلم ذلك.

_ إذًا طلقها.

_ أبي، أرجوك كنا سعداء، لماذا كل هذا؟!

_ اصعدي إلى الغرفة.

نظرت إلى يحيى قائلة بتردد: لا ترحل.

_ إن لم تأتي معي الآن؛ فتأكدي أنك خسرتِني.

ظلت واقفة كما هي لتستجيب أخيرًا لأمر أبيها وتصعد؛ فأوقفها صوت يحيى قائلًا: حنين، لآخر مرة أقولها لكِ، تعالي معنا.

نظرت لأبيها بترجٍّ ولم تتحرك، لتُفاجأ به ومع وجع كرامته وكبريائه الذي قتله خوفها من والدها: أنتِ طالق حنين... طالق.

عادت من ذكرياتها على صوته يقول: تركتكِ مع والدكِ، لم يكن بيدي أخذكِ دون إرادتكِ، لم تحاولي المجيء معنا، كنتِ سلبية تنتظرين مني أن آخذكِ بالقوة، ولكن للأسف كان صعبًا، لم تعطيني الفرصة لأدافع.

_ أخبرني أنك ستعود من أجلي وتقبل ما يريد ولن تتركني.

ضحك بسخرية قائلًا: غاب عنه أني لم أعد ذلك الصغير الذي أطاعه لفترة كان يعتقد فيها أنه يفعل ما لمصلحته، لم أتخيل عندما قررت المغادرة أنكِ لن تأتي معي، أنت من اخترتِ حنين.

_ أرحت ضميرك بهذه الفكرة! ولم تبحث عني بعدها.

أسرع يدافع عن نفسه قائلًا: سافرتِ دون إخباري، سافرتِ ولم تحاولي التواصل معي بأي شكل، تركتكِ لتحققي حلمكِ في السفر وإكمال دراستكِ، تعلمين جيدًا أني لم أكن أقبل ذلك.

ضحكت بشدة وقالت ببساطة: ولكني لم أسافر.

_ كيف؟! كنت أسأل عنكِ السيدة عفاف! أخدعتني هي الأخرى؟!

انسابت عبراتها بهدوء؛ فقال بغضب: انطقي، أين كنتِ؟

حاولت التحدث لتقص عليه ما لم يتخيله عقله.

منذ ثلاث سنوات

_ عريس! أنا لن أتزوج سوى ابن عمي الذي تسببت في طلاقي منه قبل زفافنا بأيام، لم أطِعك إلا لوعدك لي بأنه سيعود.

_ أنا من يقرر من ستتزوجين، ما أقوله تنفذينه دون نقاش، انسي أمر ابن عمك، لن يعود، لقد نسيكِ ولم يتذكر سوى الأموال.

قالت بأنفاس متسارعة: ظللت معك لأنك أبي، وأنا أعلم أنك ظلمته، لكن أن تزوجني بهذه الطريقة لن أقبل.

جذبها من ذراعها بقوة قائلًا: اخرسي، هل هذا ما علمه لكِ ابن عمكِ وأمه؟! أتريدين أن تتزوجي هذا الغبي ليأخذ كل شيء في النهاية على طبق من ذهب وفوقه أنتِ هدية؟!

بحسرة قالت: حقًا تركتني معهم، أنت لا تعلم عني شيئًا، لم تكلف نفسك عناء التفكير في أمري، والآن تخبرني أنك أبي وتريد أن تزوجني من أجل أن تكسره أكثر! من أجل أن تحرق قلبه تحرقني!

صفعها بقسوة قائلًا: إياكِ أن أسمع هذه السخافات مرة أخرى، أنا أحميكِ منهم، كل ذلك لأجلكِ؛ سيأخذون أموالكِ من بعدي لأنكِ فتاة، يريد الزواج منكِ ليأخذ كل شيء، استطاع تعليقكِ به لأنكِ ساذجة.

رجعت من ذكرياتها لتقول: حاولت الهرب بعدها للمجيء إليكم، ولكن كان واثق أني سأفعلها، ومنعني الخدم وأخبروه.

أطلقت لشهقاتها العنان وسكتت عن كل حديث مباح ذكره، لم يحاول مقاطعتها، أو ربما لم يجد ما يقول، أكملت حديثها بعد وقت ليس بالقصير، استطاعت فيه أن تقنع نفسها أن القادم أفضل.

_ عندما علم عاد فورًا إلى المنزل ليكمل تربيته لي كما قال؛ فأنا لم أجد أُمًّا تربيني، لم أعد أتذكر كيف ضربني؛ فالألم بداخلي كان أكبر من أن أشعر بضرباته القاسية وكأنه يعاقبني لأنه أنجبني.

أغمض عينيه لا يستطيع النظر إليها، لتخبره وبجرعة واحدة دون تمهيد بباقي الحكاية: حاولت الانتحار وأدخلني مصحة للأمراض النفسية.

الفصل الرابع

وقف بصدمة بعد اكتشافه دخولها مصحة للأمراض النفسية، أغمضت عينيها وأكملت بهدوء، وقالت بسخرية: لا تتعجل.

رمى نفسه على الأريكة مرة أخرى، لا يصدق ما تخبره به ببساطة، وقال بصعوبة: كيف لم تعرف عفاف كل هذا؟! لماذا لم تخبرنا؟!

أكملت بهدوء تزيح عنها عناء سنوات: علمت منها بعدما عدت من السفر أنه أرسلها لزيارة أهلها في البلدة، وعندما رجعت أخبرها أني سافرت لإكمال دراستي كما قالت لكم.

قال بشك: تقصدين بالسفر اعتقادها أنكِ سافرت.

ضحكت بشدة قائلة: لقد سافرت فعلًا؛ قضيت في المصحة سبعة أشهر، بعدها عاد بي إلى المنزل فترة لا أتذكر منها أي شيء سوى أخذي للمهدئات والنوم، إلى أن أنهى أوراق سفري لمشفى آخر بالخارج؛ سافرت للعلاج وليس للدراسة.

أمسك رأسه لا يستوعب ما تقول، نظرت إليه لأول مرة منذ بدأت الحديث بعد أن وقع نظرها على محبس الزواج الذي يرتديه في يده اليسرى، نعم هي رأته في النادي ولكن كذبت عينيها، وقالت بحسرة: هل تزوجت؟

نظر إليها بعدما كان بعدما كان يتجنب مواجهة عينيها، رغم محاولته عدم إظهار ذلك وقال: وجودكِ معي بعد ما قلتِه أصبح خطأ.

قالت بصدمة: هل ستتركني مرة أخرى؟!

_ اصمتي، كفاك غباء.

نظرت له بعدم فهم، فأكمل قائلًا: هل تعلمين ماذا يمكن لوالدكِ أن يفعل ومعه أوراق تثبت دخولك مصحة نفسية؟ أنا بهذه الطريقة خطفتكِ، لن يبحث عنكِ كثيرًا، مؤكد سيعرف أنكِ معي.

ضحكت بسخرية قائلة: شكرًا ابن عمي لعدم وصفك لي بـ... مجنونة، أعلم أني بالأوراق عديمة الأهلية، أذلك ما تقصد؟

_ بإمكانه فعل ذلك ولن يهمه شيء، لا بد أن نبحث عن حل.

ردت ببساطة وكأنها فكرت في الحل من قبل: تزوجني.

_ للأسف، حتى هذا لا يمكن فعله.

سألته بحسرة: لأنك تزوجت أليس كذلك؟

_ اصمتي ودعيني أفكر في حل.

ردت بإصرار: أخبرني أولًا لماذا لا تريد الزواج مني؟ هل أعرفها؟

رد بنفاد صبر: أنتِ مصرة على خلط الأمور، ببساطة سيطعن في زواجي منكِ، هو الوصي عليكِ؛ لا يمكن زواجكِ من دونه، واصمتي قليلًا، يكفي ما قلتِه، ودعيني أفكر.

سكت فترة يستند برأسه على الأريكة ينظر لسقف الغرفة حتى لاحظ هدوءها؛ فوجدها تضم قدمها إلى صدرها وقد غلبها النوم، حملها بهدوء

ووضعها على الفراش، خرج من الغرفة ليُجري عدة مكالمات. ليبدأ مكالمته الأولى مع رحمة:

_ اسمعيني جيدًا؛ أي أحد يسأل عني، أنا ما زلت مسافرًا، ونبهي الأمن ألا يذكر أحدهما ما حدث صباحًا، هل فهمتِ؟

_ لا تخَف، فعلت ذلك بالفعل.

أغلق معها وأجرى مكالمته الثانية مع زوجها:

_ أريدك أن تمر عليَّ بعد عملك من دون رحمة.

_ لا تقلق، لن يشغلها وجودي اليوم.

بعد مرور ساعتين تقريبًا استغرقهما يحي في التفكير، وقد ظل يتحرك في المنزل يرفض الراحة لنفسه بعد ما علمه، وصل معاذ أخيرًا وقص عليه ما عرفه من حنين: أخبرك ذلك ليس لأنك صديقي فقط، أريد رأيك في أمر حالتها الصحية ونصيحتي، ماذا أفعل؟

_ إذا كان ما تحكيه حقيقيًّا، فهذا يعني أنه يجب الحصول على ملفها الطبي لاستشارة طبيب متخصص في أسرع وقت.

_ ماذا تعني بـ 'إذا كان حقيقيًّا'؟!

_ ربما تعاني من تخيلات، أو لديها مرض نفسي من نوعية الانفصام.

_ لا أعتقد، أنا أتحدث عن أحد أحفظ تفاصيله جيدًا، ومع ذلك أخذت قراري وعرفت ما يجب عليَّ فعله، انتظر مني مكالمة.

حاول فهم ما ينوي عليه ولكن بلا فائدة، لينصرف أخيرًا وهو يوصيه بعدم التهور.

دخل يحي ليطمئن عليها، فوجدها مستيقظة، وقالت بمجرد أن رأته: لا أريد العودة للمشفى مرة أخرى، أنت لا تعلم ماذا حدث لي هناك.

رد بهدوء يطمئنها: لا تقلقي، ألا تثقين بي؟ ضروري استشارة طبيب، وذلك لا يعني دخولك مصحة، تأكدي أن هذا مرفوض تمامًا بالنسبة لي، انسي ما حدث، ولا تشغلي بالكِ بما سيحدث، اتفقنا؟

ابتسمت لأول مرة وهي لا تعلم تأثير هذه الابتسامة على نفسه، جلس على الأريكة أمامها وابتسم بتلاعب تعرفه جيدًا، وكيف تنسى فارس أحلامها وزوجها؟! وقال: اذكري لي بالتفصيل ماذا فعل هذا الوغد.

قالت بدهشة: قلت لك كل ما حدث.

قال بنفس التلاعب: لا لا، أريد بالتفصيل.

هذه المرة حاولت التركيز في ملامحه تحاول فهم ما يريد، وقالت: أقسم أني أخبرتك بكل ما حدث.

_ أعلم، ولكن أريد وصفًا للمشهد.

قالت بغضب وهي تقف لتسير في اتجاه باب الغرفة: أنت تمزح.

وقف أمامها مبتسمًا يحاول أن يبدو طبيعيًّا ليخفف مما هي فيه رغم هذه النيران التي تشتعل بداخله، ورغم طبول الحرب التي أطلقها عقله: أريد تخيل المشهد، أحتاجه بشدة، صدقيني.

_ مشهد؟!

أخذ يدها ليخرجا من الغرفة وهو يقول: إذًا سأحاول أن أجتهد.

_ لا أفهم شيئًا.

رد بمكر: هذا هو المطلوب.

....

دخل معاذ المنزل المستكين عكس صاحبته، اتجه إلى الغرفة فسمع نحيبها، وبمجرد دخوله حاولت أن تظهر طبيعية، كم هي تحمل دائمًا من الكبرياء ما يجعلها غير باقي النساء! ترفض ظهور دموعها حتى أمامه، جذبها بين ذراعيه لا يعرف أيواسيها أم يواسي نفسه، وقال بهدوء: حبيبتي، يكفيكِ أطباء وفحوصًا؛ لو لم يُرد الله لنا أطفالًا فأطباء العالم كله لن ينفعونا.

ابتعدت عنه قليلًا تخلع نظارته كعادتها لتقول: هناك أمور كثيرة يجب التأكد منها، حبيبي، قبل اتخاذ أي قرار.

قال بريبة: أوقفي عقلكِ قليلًا، أرجوكِ.

لتتساءل محاولة المرح: أرجوكِ؟!

رد بجدية: نعم؛ لأن حسابات العقل لا تصلح بين زوجين.

قال مغازلًا إياها محاولًا إخراجها من هذه الحالة: أخبريني كيف للشمس أن تحزن؟!

فقالت بابتسامة: انتبه؛ فالشمس تحرق. وأكملت بداخلها: أو تحترق.

ظن أنه أخرجها من هذه الحالة، ولكنه لم يدرك أو ربما تجاهل تلك الغريزة التي بثها الله فيها منذ نعومة أظافرها ليُعدها أمًّا الجنة تحت قدميها، تمارس فطرتها على عروستها الصغيرة، تطعمها، تسقيها وتغير ثيابها، حتى يحين الوقت، تنتظر طفلها بشوق ولهفة، تحبه قبل أن تراه، تشعر به قبل أن تلمسه، ولحكمة لا يعلمها سوى الخالق ربما يحدث ما لا تتمناه، ولكنه العدل سبحانه، نصيبها زوج لا يفكر سوى كيف يحبها، كيف يحصل على رضاها هو رحمة العدل؛ إنها أرزاق قسمها الله على العباد.

....

بعد فترة جلس ينظر إليها بتركيز، لا تفهم بماذا يفكر، حاولت الحديث ولكنه كل مرة يشير لها أن تصمت، وفجأة وقف وسحبها من يدها ودخل بها الغرفة، أخرج من جيبه هاتفه وشغل الكاميرا، ثبته أمام المرآة وقبل أن تستوعب ماذا يفعل، كان قد اتجه إليها وأخذ يفك أزرار قميصه، وقف أمامها ورماه أرضًا، حركت رأسها بعدم استيعاب وهي تقول: ماذا تفعل؟!

تراجعت إلى الخلف حتى اصطدمت بالحائط، اقترب منها وأوشك أن يلتصق بها، دون أن ينطق بأي كلمة، حاولت ابعاده قائلة بصوت مهتز: ليس أنت، لا تفعل معي هكذا، أنا أحلم! أنت تمزح!

أمسك بمعصميها يثبتهما على الحائط، غرس رأسه في عنقها وهو يقول بصوت عميق خافت: اهدئي، ألم تطلبي مني أن أتزوجكِ؟ سأفعل.

ثبت يديها الاثنتين بيد واحدة على الحائط وبيده الأخرى أخذ يعبث في أزرار قميصها، لحظة وسقطت بين يديه غائبة عن الوعي يرفض عقلها تصديق ما يحدث، فقال بخفوت كأنه يحدثها: هذا أفضل حبيبتي.

حملها بهدوء ليضعها على الفراش، ويكمل ما قد بدأه حتى النهاية.

....

في فيلا سليم، بمجرد علمه بهروب ابنته، أخذ يوبخ أفراد الأمن، وبعد أن تأكد من كاميرات المراقبة أنها لم تخرج من الباب الرئيسي، اتجه إلى صباح وعفاف اللتين بدا عليهما الرعب، ليصرخ فيهما قائلًا: واحدة منكما هي من ساعدتها على الهرب، انطقا.

كانت عفاف تبكي بحرقة ولم تحاول الدفاع عن نفسها، فما حدث وفر عليها ذهابها للسيدة كريمة.

تحدثت صباح أخيرًا برعب لا تريد ضرر عفاف، فهي لن تتحمل عنف هذا الرجل الذي رأت ماذا فعل في ابنته: أنا من ساعدها.

_ نعم؟! ماذا تقولين؟

ردت مرتجفة: ساعدتها، أنا فتاة مثلها و...

وإذ به دون تردد يصفعها لتصرخ برعب وكادت أن تسقط أرضًا، جرت نحوها عفاف وقد خشيت أن يفعل بها أكثر مما فعله بابنته؛ فهي مجرد خادمة، ولكن تحدثت صباح وهي ترتعش رغم جرأتها: سمعت ما قاله الضيف بالأمس في الحديقة، لقد.. لقد كان يريد التهجم عليها.

تشنجت عضلاته صائحًا: ماذا تقولين يا مخبولة؟

_ سمعته من نافذة المطبخ، أقسم لك إني رأيته وسمعته يهددها و... وقال إنه سيطلقها يوم صباحيتها ويتهم ابن عمها.

جلس إلى مكتبه بجمود لا يتخيل أن يحدث ذلك في منزله لابنته، وكأن ما قالته الخادمة أربكه، فزمجر صائحًا: أغربا عن وجهي.

....

وضعها على الفراش ومال عليها يقبل جبينها، ابتسم يخبر نفسه أن هذه القبلة غير مناسبة لهذا المشهد أبدًا! قبلها مرة أخرى في عنقها، بعدها انتفض من مكانه عائدًا بظهره للخلف، زافرًا نفسًا بقوة، والتقط قميصه من الأرض ليرتديه، وأخذ هاتفه وأغلق الكاميرا، أمسك زجاجة عطره واتجه إليها بهدوء.

_ حنين، أفيقي، حنين.

حركت رأسها على أثر استنشاقها للعطر لتعود للوعي تدريجيًّا، وما إن استوعبت ما يحدث، حتى انتفضت لتجده يبتسم، أغمضت عينيها بشدة ولم تنظر إليه، فقال ببساطة: هل سأفعل شيئًا وأنتِ بملابسكِ؟!

فتحت عينيها ونظرت لملابسها، قائلة: نعم، فتحت أزرار بلوزتي.

حاول التحدث بعدما أصابته نوبة من الضحك قائلًا: أهكذا أكون قد اغتصبتكِ من وجهة نظركِ؟!

ردت ببراءة: أنت أصبحت سيئًا أليس كذلك؟ السنوات غيرتك؟

قال وهو ينظر لها بحنو: صراحة لا أعرف، دعيني أفكر وأخبركِ، لكن بعد أن أفعل شيئًا مهمًّا أولًا، وبعدها نتحدث في موضوع 'سيئ' هذا.

فتح هاتفه وقام بقص مقطع الفيديو الذي قام بتسجيله، لينتهي المقطع عند وضعها على الفراش وتقبيلها، قالت بعدم فهم: ماذا تفعل؟!

_ كما ترين، هذا المشهد كل ما أريده، وسأترك الباقي لخيال المشاهد.

_ ماذا تقصد؟ من يراه يظن...

صمتت بعد أن وضع أمامها الهاتف في منتصف الفراش لتراه وهو يقوم بضغط إرسال على اسم والدها، فقالت بارتياع: كيف تفكر؟!

الفصل الخامس

حاولت خطف الهاتف، ولكنه أبعده قائلًا: اسمعيني جيدًا، يجب أن يوافق والدك على زواجنا بأي شكل، وإلا فليس أمامي سوى حل واحد.

_ ما هو؟

قال بتلاعب: أن أكمل هذا المشهد الذي واضح أنه أعجبكِ.

_ تهذب يحيى، لقد أصبحت عديم الحياء.

قال محاولا رسم الجدية وهو يخفي ابتسامته: وبالنسبة لأزرار بلوزتك هذه التي لم تغلقيها؟!

وضعت يدها بتلقائية على بلوزتها لتغلقها وقالت بخجل: لم أنتبه.

ضحك قائلًا: وتتهمينني بعدم الحياء!

ردت بخجل: هذا ليس مزاحًا.

جذب ذراعها وقد همت لتغادر، ومال مقبلًا يدها يتوقع خجلها، ولكنها فاجأته بالصياح قائلة: أبعد عني يدك اليسرى، لا أريدها.

رفع حاجبه الأيسر بدهشة قائلًا: يدي اليسرى! وما الحال بالنسبة لليمنى؟!

_ لا مشكلة فيها.

_ وما الفارق!

قالت بحسرة: اليسرى بها محبس زواجك.

نظر إلى يده بتلقائية لينتبه فعلًا لما قالته، لقد نسي هذا الأمر نهائيًّا، وقال وهو يتأملها: أفقدتِني عقلي، ماذا ستفعلين بي أكثر من ذلك؟!

لم ينتبه الاثنان وسط جدالهما الماتع للهاتف الذي رن كثيرًا منذ أن أرسل الرسالة التي نسي أمرها تمامًا وقد كان على وضع صامت، فقال بنصر: والدك يتصل للمرة السادسة، ولم نلحظ.

تغيرت ملامحها مع ذكره أباها، فتح الهاتف ليرد قائلًا: أهلًا، عمي.

وبالطبع لا يحتاج إلى توقع ثورته.

_ عمك يا عديم الأخلاق؟! عمك يا عديم الشرف؟! تنتهك عرضك وعرض عمك وتقول عمي؟!

قاطعه قائلًا: اهدأ قليلًا لنتفاهم.

_ أين ابنتي يا حقير؟

حاول التغاضي عن هذه الصفات التي ينعته بها؛ فهذا هو الدور الذي قرر أداءه وعليه أن يكمله للنهاية: اهدأ واسمعني جيدًا.

_ أين هي؟ ماذا فعلت بها أيها الحقير؟

_ أتريد باقي المشهد؟ ليس عندي مانع، لقد رأفت بحالك.

وضعت يدها على فمها بصدمة مما تسمعه، في حين رد سليم وقد انخفض صوته: حيوان، لن أغفر لك ما فعلت.

_ الأمر أبسط من كل ذلك، ما عليك هو أن تأتي بالمأذون وتنتظرني.

_ ماذا تقصد؟

_ وماذا يفعل المأذون؟

_ أتنتهكها لتتزوجها يا غبي؟!

_ وهل كنت ستزوجها لي بسهولة؟! ومع ذلك بما أني أولى بستر ابنة عمي، فهذا لا يمنع أن يكون مع المأذون شيء بسيط؛ محام الشركة والأوراق اللازمة لتعيد الحقوق لأصحابها.

_ حيوان.

أكمل يحي وكأنه لم يسمعه: المحام الخاص بي سيتولى الأمر مع عقد بسيط تعويضًا عن المناقصة التي أضعتها مني؛ فلا ذنب لشركائي في خلافاتنا، فكر جيدًا أمامك حتى الصباح، نسيت... لا تقلق على ابنتك؛ هي في أمان ما دامت بين أحضاني، لا تنسَ أنها كانت زوجتي يومًا، ولا تخف لن يرى أحد هذا المشهد، ربما لو فكرت مرة أخرى بتزويجها من غيري فسيصبح ضروريًّا إظهاره.

أغلق فورًا قبل أن يسمع أي صفة أخرى ستضاف إليه، وهو يشعر كأنه كان في صراع شاق مع نفسه، نظر إليها فوجدها ما زالت تضع يدها على فمها بصدمة، حاول سحب يدها، لكنها أشاحت بنظرها بعيدا عن؛ فقال: انظري لي.

قالت دون أن تدير رأسها بحسرة: تستغلني؟!

أخذ نفسًا عميقًا وقال: هكذا الأمر مقنعًا أكثر.

لم تنطق، فأكمل: لم أقصد، ومع ذلك هل يزعجكِ أن آخذ حقي؟

قالت بحسرة: تغيرت، من فضلك، أريد الجلوس بمفردي.

اعتدل على الفراش وهو يبتسم بخبث، فهما ما زالا في نفس مكانهما منذ أن أفاقت، وكأن وجودها معه أعاد له روحه التي نسيها، وأطلق العنان لمرحه الذي كان قد غاب معها حتى عادت؛ فقالت بنفاد صبر: أريد الجلوس بمفردي.

أسند ظهره على الوسادة ومدد جسده ببساطة ووضع قدمًا على الأخرى قائلًا ببرود: لا، إنه سريري.

قالت بغضب وهي تحاول الابتعاد عنه: إذًا سأخرج أنا.

أمسك يدها يمنعها من الحركة، واعتدل قائلًا بتلاعب: هل لا تدركين أنكِ هنا في أسري؟ أنا الآن خاطفكِ؛ اسمعي الكلام أفضل لكِ.

قالت بغضب: أنا أخطأت عندما أتيت لك.

مدد جسده مرة أخرى على الفراش ليعود لنفس الوضع ويضع قدمًا على الأخرى وقال بمرح غير مناسب للموقف: وأين كنتِ ستذهبين؟

قالت بعتاب: أتستوعب أنك بهذه الطريقة تذلني؟

اعتدل قائلًا: بل أحاول فقط توضيح الأمر لكِ، فاسمعي كلامي بهدوء لأننا سنظل هنا حتى الصباح.

قالت بنفاذ صبر: نحن على السرير!

وضع يديه خلف رأسه وقال ضاحكًا: أعلم هذا، افعلي مثلي ودعينا نستمتع بوقتنا.

أرجعت شعرها للوراء بعصبية وقالت: هل لا تستوعب ماذا فعلت؟!

رد ببساطة: والدك لا يُقهر، هو الآن يحسب حساب الفضيحة، يفكر في كل أبعاد الموقف وهو مطمئن أني سأتزوجكِ، يعلم أني أحبكِ.

وقفت لتغادر الغرفة ولكنه اقترب منها اقترابًا شديدًا مما أربكها، ودون أن يحاول لمسها قال بتأكيد: أعدكِ لن يمر مساء غد إلا وأنتِ زوجتي فعلًا، واعلمي وقتها لن أتركِ تبتعدين عني لحظة، لن أضيعك من يدي مرة أخرى كما حدث في لحظة غضب لم أحسب حسابها.

أنهى كلامه وغادر الغرفة وبمجرد خروجه وضعت رأسها على الوسادة ونامت بهدوء وثقة أن الغد في وجوده أفضل، فالأمان لا يكون إلا معه، مدركة محاولاته أن يبدو طبيعيًّا.

أمضى الليل يُجري مكالماته مع محاميه ليتفق على المطلوب، وبعدها قام بالاتصال بمعاذ الذي ما إن سمع ما فعله صديقه حتى انفعل عليه لدرجة أيقظت رحمة من النوم: هل جننت؟! ما هذا الذي فعلته؟! متهور، ظننتك أعقل من هذه التصرفات الصبيانية.

_ لماذا كل ذلك؟! إنها ابنة عمي أنا يا معاذ، وأنا أكثر إنسان في هذا الكون يجب عليه حمايتها وأستطيع حمايتها حتى من نفسي.

رد بسخرية: ألا تستوعب ما فعلت؟!

_ لم يكن أمامي سوى هذه الطريقة، أحيانًا الوصول لما نريد يحتاج بعض الطرق الملتوية، لم تنفعني أخلاقي سابقًا، يجب أن أتخلى عنها قليلًا مع من يستحق.

_ وهل تأمن ألا يقع ما صورته في يد أحد؟

قال بتردد: الفيديو لم يصل إلا لوالدها، هل تتخيل أن يُريه لأحد؟! ومع ذلك سأتأكد من حذفه بنفسي.

_ غير منطقي، غير مقنع، لم يعد فائدة للحديث للأسف.

أغلق الهاتف دون سلام، ونظر بعدها لرحمة التي كانت تقف خلفه، وقال: مجنون.

_ للأسف، الحب جنون حبيبي، وأنت الوحيد الذي لا يقتنع بذلك.

ليقول بريبة: وأين سيصل بنا جنونكِ؟

_ لأبعد مما يتخيله أحد!

....

استيقظت كريمة صباحًا على طرقات باب غرفتها وإذ بسلمى مندفعة تبكي، حاولت كريمة فهم ما تقوله ابنتها التي أوشكت الصدمة أن تفقدها صوابها؛ فقالت: ماذا حدث؟

_ عمي اتصل بي الآن، قال إن يحيى خطف حنين، ويهدده لكي يتزوجها... و... وإنه..

قاطعتها بعدم تصديق: ما هذا الهراء الذي تقولينه؟!

_ قام بتسجيل فيديو، أرسله له عبر الهاتف وهو... يـ... يغتصبها.

اتسعت عيناها بفزع مما سمعت، وضعت يدها على صدرها قائلة: يحي مستحيل أن يفعل ذلك.

....

استيقظ على صوت رنين هاتفه، بعد أن أمضى ليله نائمًا على الأريكة بالصالة، بالطبع كان عمه المتصل، والذي من المؤكد لم ينم بعد، رد يحي بهدوء: مرحبًا عمي، صباح الخير، كيف حالك؟

_ ما هذا البرود؟

_ ألم تخبرني يومًا أني سأعود عندما أتغير؟! ها أنا قد تغيرت.

_ أين ابنتي؟

_ شككت كثيرًا في حبك لها، ولكن واضح أن في قلبك بعضًا من الحب.

_ لا تستغل الموقف أكثر من ذلك، أنت لويت ذراعي بأرخص الطرق.

_ لا تنكر أنها الطريقة الوحيدة التي واضح أنها نجحت.

_ أحضر البنت الآن هيا، وسأنفذ ما تريد.

_ بمجرد أن يخبرني المحام الخاص بي أن كل شيء على ما يرام، ستجدنا أمامك. الاحتياط واجب، عمي.

أخذ سليم نفسه بصعوبة؛ فهو لم يتخيل اتخاذ يحي الحيطة بهذا الشكل، وقال بترجٍّ لأول مرة: أريد أن أحدثها.

_ أكنت تطمئن عليها وهي بالمشفى؟!

_ وهل تتخيل أني كنت سعيدًا بحالتها؟!

_ لن يفيد اللوم الآن، سلام، عمي.

أغلق الهاتف واتصل بعدها برحمة يطلب منها مساعدته في عدة أمور لا يمكن لأحد إنجازها سواها، وتوجه إلى الغرفة حيث تنام حنين، ودون استئذان دخل ليجدها مستيقظة: صباح الخير.

قالت باستياء: هل أصبحت عديم الأخلاق لدرجة أن أجدك أمام السرير كلما غلبني النوم؟!

رد بنفس أسلوبه الذي اتبعه منذ ليلة أمس، وبابتسامة هادئة: ولماذا أطرق الباب وأنا أعلم أنكِ كما أنتِ منذ أمس؟!

ردت بسخرية: مؤكد أن السنوات الماضية كنت تلهو فيها كثيرًا؛ مما أفسد أخلاقك، لم تكن تمر بجوار غرفتي، أنسيت؟

_ حينها كنت أحافظ عليكِ.

رفعت حاجبيها دهشة قائلة: والآن لم تعد تريد الحفاظ عليَّ؟!

ضحك قائلًا: أخبركِ حقًّا أنا فعلًا ندمت وأخبر نفسي أني خفت عليكِ أكثر من اللازم لدرجة جعلتكِ لا تستطيعين الدفاع عن نفسكِ واتخاذ موقف حقيقي، كان يجب أن أصبح أهوج ومتهورًا لأمرنكِ على التعامل مع البشر.

ابتسمت تبعده قائلة: وماذا يجب أن أفعل الآن وقد نمت دون عشاء؟

_ أصلحي من حالكِ وسنأكل أي شيء ونحن في طريقنا لوالدكِ.

_ ما... ماذا؟

_ لا تخافي، وضعت كل الاحتمالات في الحسبان، أنتِ في أمان معي.

_ هل ستتركني بعدها؟

قال بدهشة: بعد ماذا؟

_ بعد أن نتزوج وتأخذ حقك من أبي، هل ستتركني من أجل زوجتك؟

ضحك قائلًا: بلهاء، اعلمي أني لن أتركِكِ ضائعة مرة أخرى.

_ كل ما أريده أن نعود كما كنا، لا أتمنى أكثر من ذلك.

ابتسم واتجه ليفتح خزانة ملابسه، أخرج منها إحدى البدل الرسمية ونظر لها وهو يفكر قائلًا: اختاري رابطة العنق المناسبة حتى آخذ حمامي، وقميصًا وجوربًا.

وكاد أن يغلق باب دورة المياه التي في الغرفة، فقالت: لما كل هذه الشياكة وكأنك ذاهب إلى حفل! أساسًا ما دخلي بملابسك؟!

_ افعلي شيئًا مفيدًا وانتهي سريعًا.

بمجرد غلقه الباب قالت لنفسها: الحمد لله؛ لست أنا وحدي من جننت!

وقفت أمام ملابسه تنظر إلى البدلة باستياء، أعادتها مرة أخرى إلى الخزانة واختارت غيرها، أخذت تختار كل شيء بعناية، رتبت ما جهزته على الفراش، بحثت حولها حتى لا تكون قد نسيت شيئًا، ساعة يده، حتى عطره، تعدل من محفظته وسلسلة مفاتيحه، تلمسها برفق وكأنها تخشى عليها من الاستيقاظ قبل مجيئه.

خرج أخيرًا فوجدها مندمجة أمام ملابسه، ظل ينظر لها بسعادة، انتبهت له ولكن بمجرد أن رأته أدارت وجهها عنه بخجل؛ فقد خرج عاري الصدر ليكمل ارتداء ملابسه في الغرفة، عندما أدركت ذلك قالت: آسفة، هل تريد شيئًا آخر؟

_ لا، شكرًا، لكن لم أطلب منكِ تغيير البدلة.

_ هذه أحلى. أنت أساسًا أخرجتها بعشوائية، عن إذنك.

كادت أن تغادر، فوقف أمامها قائلًا: ألم تساعديني في ارتدائها.

قالت وهي تحاول إبعاده: وهل صغرت لأساعدك؟! أنا لست والدتك.

الفصل السادس

خرج من الغرفة بعد فترة يحمل سترته، وجدها أمامه تنظر إليه بسعادة، كم اشتاق لابتسامتها الهادئة دون خوف!

ظلت تتأمله مرتديًا ما اختارته له بنفسها، اشتاقت رؤيته عن قرب، أنيق هو دائمًا عندما يرتدي القميص، كم كانت دائمًا تريد أن تغلق أزراره المتمردة هذه، سماره يزيده جاذبية، عيناه العسليتان بلونهما المميز، فرق الطول بينها وبينه يجعلها دائمًا تشعر بقدرته على حمايتها، وضعفها أمامه.

ظل واقفًا أمامها يتأملها هو الآخر، ما زالت بنفس البراءة! عيناها اللتان تكشفان ما بداخلها أمامه مهما مرت السنون، ما زال يستطيع قراءة ما بداخل عينيها بسهولة، وكيف لا وهي كبرت أمام عينيه؟!

قطع الصمت قائلًا: هيا بنا.

امسكت يده بسعادة كطفلة قرر والدها أخذها في نزهة خارج المنزل، وفي السيارة، وبعد أن أحضر بعض الشطائر ليأكلاها معًا، قالت بدهشة: لا أعرف لماذا تُشعرني أننا ذاهبان في رحلة!

ضحك قائلًا: انسي كل ما مضى، وكأنه لم يكن.

ردت بصوت خافت: هل تعتقد أن الأمر بهذه السهولة؟

لم يحاولا الحديث مرة أخرى طوال طريقهما؛ هو يرتب ماذا سيحدث، وهي تحاول تجاوز خوفها من القادم.

وصلا أخيرًا أمام المنزل، تفاجأت بأفراد أمن مختلفين عمَّن تعرفهم، لاحظت أنهم يتبعون يحي، فقالت: ماذا فعلت؟

رد بهدوء رغم ما بداخله: لا شيء، أمَّنت المكان لأطمئن عليكِ.

دخلت متشبثة بيده، لم تحاول النظر في وجه أحد، هناك الكثير من الوجوه تعرفها ولا تعرفها، تحرك يحي باتجاه عمه وسلم عليه بحرارة مبالغ بها مع دهشتها وعدم اعتراض والدها أمام الموجودين، انتفضت ورجعت بظهرها تخفي نفسها وراءه بمجرد محاولة أبيها جذبها إليه، وفي الحقيقة كانت هذه أول مرة يرى فيها يحي عمه مهزوزًا بهذا الشكل.

وبعد فترة

تم كل ما اتفق عليه مع المحاميَين، وانتهى الأمر بعقد الزواج، ليكون معاذ وباسم شاهدين على العقد، لأول مرة منذ زمن ترى والدها يضع يده في يد يحي، هل تحلم؟!

وبمجرد إنهاء المأذون كلماته، أطلقت عفاف وصباح زغاريد الفرح، ظلت مكانها متجمدة، أشفقت عليها رحمة، فأخذتها بين أحضانها قائلة: مبارك حنين، اهدئي؛ لقد مر كل شيء بخير.

لم يتحرك سليم بل ظل مطرقًا رأسه، بعدما غادر المأذون وأصبح هو ويحي في المواجهة، نظر له الأخير يتأمل حاله وقال له بهمس: لم ألمسها عمي، أنا لست حقيرًا.

لم يرفع رأسه، ولكنه سمع صوت أنفاسه وكأنه حِمل قد رُفع عنه.

اتجه معاذ إلى يحي، وقال وهو يحتضنه: مبارك عليك، صديقي.

أجابه وكأنه لم يصدق: هل رأيت؟ مرت على خير.

_ الحمد لله، من أجل هذه المسكينة.

تركه يحي واتجه إلى حنين التي ما زالت جالسة مكانها تحاول استيعاب ما يحدث، وقف أمامها وجذب يدها لتقف، ودون أن يهتم بوجود أحد قبّل جبهتها يؤكد امتلاكه لها، وهذه المرة لم يقاوم رغبته في ضمها بين ذراعيه، الآن لم يعد أحد يجرؤ على إبعادها عنه.

تحدثت رحمة التي تقف جوارهما قائلة: يحي، يكفي هذا.

قال وما زالت بين ذراعيه تتشبث به بقوة، يشعر بأصابعها تخترق قميصه، ليُطمئنها: اصعدي مع رحمة إلى غرفتك، بدلي ثيابك، وجهزي كل ما تحتاجين أخذه.

أبعدها قليلًا ليرى وجهها، فرأى تحجر الدموع في مقلتيها، فأكمل قائلًا: أعدكِ أن تتغير حياتكِ، سأعوضكِ عن تقصيري، أعد عيناك ألا تعرف الدموع طريقهما مرة أخرى.

قال معاذ هامسًا لرحمة: هل ستشاهدين هذا المشهد كثيرًا؟

ردت بابتسامة: وماذا أفعل؟

_ ألا تشعرين مثلي أنه لابد من إنقاذ الموقف فورًا؟

ضحكت واتجهت إليهما تجذبها من يديه قائلة: هيا، حنين.

صعدتا ومعهما عفاف التي استمرت تطلق الزغاريد بسعادة؛ كم دعت لهما كثيرًا من قلبها! فهي شاهدة على حبهما منذ أن دخلت هذا المنزل بعد وفاة والدة حنين وهي صغيرة.

وقفت داخل غرفتها تحاول تصديق ما يحدث، كيف هربت متسللة، وكيف هي الآن؟! حاولت رحمة أن تُخرجها من هذه الحالة، فجذبتها ناحية دورة المياه قائلة: هل ستمضين الوقت ساهمة هكذا؟! الرجال تمل بسرعة، هيا، أمامنا تجهيزات كثيرة.

لتخرج بعد فترة مع عفاف التي أصرت على تجهيزها؛ فتفاجأت بوجود فستان زفاف على الفراش، وبدأتا الاثنتان مساعدتها على ارتدائه.

أما هو فقد ارتدى أخيرًا سترته، وظل صامتًا لا يفعل شيئًا سوى النظر لأعلى يشتاق إلى رؤيتها بالثوب الذي وصفه لرحمة، وبمجرد ظهور صباح تحمل الحقيبة، علم أن ملاكه على وشك الظهور، لحظات وظهرت أمامه نجمة من السماء بفستانها الفضي اللامع كما تخيله تمامًا وأجادت رحمة اختياره، فستان يرسم جسدها النحيف كأنه فنان، شعرها الأسود الثائر فوق كتفيها يصطف عليه الزهور البيضاء، ووراءها طرحتها القصيرة تؤكد أنها عروس، ليخبر نفسه أنه أخيرًا سيعطيها قبلة الحياة لتعيش ويطمئن قلبه.

اقترب منها يقدم لها باقة زهور العروس، نفس زهور حديقتها، القرنفل بلونيه المحببين لقلبها الأبيض والأحمر، احتضنتها ببراءة، أخرج علبة

صغيرة من جيبه وقدم لها خاتم الزواج، قالت بتساؤل وعيون دامعة: متى أحضرته؟

جذب يدها يلبسها إياه قائلًا: منذ زمن ينتظر أن يحتضن أصبعك.

_ ما زلت محتفظة بخاتمي القديم.

_ اتركيه ذكرى لأيام جميلة مضت.

ألبسها الخاتم وجذب يدها بهدوء وسط زغاريد عفاف وصباح التي لم تنقطع، وخرج بها كما دخل دون النظر للوراء، ولم تحاول الالتفات حتى لا يعكر شيء صفو لحظاتها التي حلمت بها منذ طفولتها.

_ حنين، هل ستذهبين معه دون توديعي؟!

شعر يحيي بارتجاف يدها بمجرد سماعها صوت والدها، فشدد من قبضته يبثها الطمأنينة فما زالت آثار ضربه الموجع توسم جسدها، وأدار رأسه قائلًا: الآن هي حقي الذي لن أفرط فيه ثانيةً.

انصرفا بهدوء، ولكن قبل أن يدخل السيارة جذبه معاذ قائلًا: والدتك اتصلت بي كثيرًا، هاتفك مغلق، لم أستطع إخبارها بشيء، أشعر أنها تعلم؛ صوتها ليس مُطمْئنًا.

تذكر يحيي أنه لم يفتح هاتفه إلا لإجراء المكالمات وكان يغلقه بعدها، فهز رأسه إيجابًا ليدخل سيارته ويقودها دون أي كلمة، فقط النظرات كانت أبلغ حديث بينهما.

....

فتح باب شقته ومال يحملها، أغمضت عينيها وتعلقت برقبته بشدة، وعندما أنزلها في الغرفة، وجدها ما زالت مغمضة العينين، فقال: ماذا بكِ، حنين؟

فتحت عينيها وقد توقفت على عتباتها الدموع تنتظر الإذن وقالت: لي رجاء أخير.

_ حتى لو هناك غيره ألف، أنتِ تأمرينني وأنا أجيب.

_ أعلم أني أصبحت عبئًا عليك، كل ما أطلبه منك فقط أن أظل معكم، لا أريد أن أصبح بمفردي مرة أخرى.

قال بدهشة: حنين، أنتِ أصبحتِ زوجتي!

_ أعلم أن الأمر مؤقت، زواجنا ليس حقيقيًّا، أريد العيش مع عمتي كريمة وسلمى هذا كل ما أتمناه.

_ هذه مشكلة أخرى؛ أتتخيلين أن أدخل عليهما بكِ وأقول لهما 'تزوجت حنين'؟! ستعيد أمي تربيتنا مرة أخرى.

ابتسمت قائلة: لن تفعل شيء عندما تعلم الحقيقة.

قال بمشاكسة: وما هي الحقيقة؟

أجابت ببساطة: أنه ليس زواجًا حقيقيًّا وأنك تساعدني فقط، لم يعد لي مكان في حياتك، لست أنا من أدمر حياة أخرى.

_ وهل أنتِ تريدينه ألا يكون حقيقيًّا؟

ردت ببراءة: أنا لا أريد شيئًا سوى أن أنام وأنا أشعر بالأمان، أنت لن تضربني أبدًا، أليس كذلك؟

نظر لها بعمق؛ فقد بدأ يشك في معنى كلامها: لماذا كل هذا الخوف؟

لم تتحدث، تبعد عينيها عنه تخشى أن يقرأهما، فأكمل: لم أجبركِ على شيء، تعلمين ذلك جيدًا، لقد ظل عقد قراننا لشهور من قبل، ولكن حقي الآن أن أعلم كيف تفكرين، أنا أشك أنكِ تدركين معنى حديثك.

حاولت الابتعاد قائلة: وأنت أصبحت خبيرًا بما أنك متزوج.

ضحك من اقتناعها بهذا الأمر الذي لم تستطع فيه إخفاء غيرتها، ليقول وهو ينظر لخاتم الزواج بيده: هل نظرك به مشكلة؟! ألا تلاحظين أن خاتم زواجك له نفس الشكل؟!

نظرت إلى يده وقالت: ماذا؟!

فقال وهو يجذبها: أنا لم أتزوج إلاك يا بلهاء، وإلا فأين هي؟

جذبت يده تنظر للخاتم عن قرب، وقالت: إنه اسمي أنا!

_ وهل لي أن أكتب اسم غيركِ؟!

_ أنت ترتديه من فترة، رأيته في النادي.

استغل تشتتها واقترب منها أكثر قائلًا: أحضرت الاثنين منذ مدة؛ كنت أنوي أن ترتديه يوم زفافنا السابق، وضعته في يدي من وقت ابتعدتِ عني؛ ليظل اسمكِ أمامي.

ليكمل مبتسمًا تأكلها عيناه: علم الجميع بأن قلبي ملككِ، وأنتِ لا تعلمين! اسألي الدنيا؛ ستخبرك أني لم أرَ غيركِ في حياتي.

تفاجأ بها تحتضن عنقه وهي تبكي قائلة: ظننت أنك كنت ستتزوجني لأني ابنة عمك، تخيلت أنك لم تحبني كما أحبك.

_ كنت أحميكِ من نفسي ونفسكِ يا ساذجة.

_ لم تفرق بيني وبين سلمى.

_ فرقت بينكما في قلبي.

ابتعدت عنه وقالت بعتاب: صرخت بي في النادي حتى لا أذهب مرة أخرى ولا تراني.

_ كنت أعرف أنه لن يتركِ.

_ لم تهتم يومها بي وتركتني.

استمر يرد على أسئلتها ببساطة حتى تهدأ ويطمئن قلبها، فقال: كنت وراء سيارتكِ حتى وصلتِ، لم يستطع قلبي تركِ.

قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها: إذًا قل لي إنك تحبني.

قال بابتسامة: أحبكِ يا مجنونة.

_ اقسم لي.

قالتها ببساطة، فقال مدهوشًا: ماذا؟

_ اقسم إنك تحبني.

اقترب منها يحتضن خصرها بخبث، وقال: والله أحبكِ، أحبكِ منذ كنتِ طفلة بين يديَّ، أحبكِ في كل لحظة رأيتكِ تكبرين فيها أمامي لتصبحي بهذا الجمال وتظلي بقلب طفلة.

وهذه المرة لم يستطع مقاومة رغبته في الاقتراب من شفتيها، فلم يعد هناك ما يمنعه من أخذ حقه في سنوات ضاعت بلا وجه حق، اقترب بشوق فشعر بانتفاض جسدها بين يديه، ابتعد عنها ليجدها تدخل رأسها داخل سترته تخفي نفسها، ابتسم أمام تصرفها العفوي قائلًا: حنين، أتعتقدين نفسكِ نعامة؟!

لم تجبه، لاحظ أنها لا تستطيع الوقوف؛ فضمها لتستند عليه وقال: حنين، أتحتمين مني بي؟

تفاجأ بها تقول بخجل يملأه التوتر: أ.. أيمكن أن نظل هكذا؟

_ نعـــــم؟! ماذا تقصدين؟

قالت وهي تحاول الابتعاد: أنا لا أريد إلا أن أكون جوارك... فقط.

الفصل السابع

قال محاولًا السيطرة على أعصابه: حنين، أتستوعبين ما تقولين؟!
نظرت له بارتباك ولم تُجب، فأخذ نفسًا عميقًا وجذبها من يدها لتسير معه، حتى أجلسها على الأريكة وجلس بجوارها بعد أن خلع سترته ورابطة عنقه ورماهما بعيدًا، وفتح بعض أزرار قميصه بملل قائلًا: واضح أن هذا اليوم طويل ولم ينتهِ بعد.
ابتسمت أمام تصرفاته التلقائية التي تعرفها عندما يشعر بالضيق، حاول اقتحام عينيها لكي يفهم ما بها، شعر بأن هناك شيئًا أكبر من ارتباك فتاة يوم زفافها، الأمر بالنسبة لهما مختلف، هي معتادة على التعامل معه، تعرفه جيدًا، تعتاد على وجوده جوارها، فما المشكلة؟! لماذا يصيبها الخوف فجأة ثم تعود وتنسى بمجرد ابتعاده عنها؟
شعرت بمحاولته فهمها، مما زاد توترها، فظلت تلعب في أصابع يدها بعصبية، قال بشك: لم تخافي مني بالأمس وأنا لست زوجكِ، والآن ترتعبين بمجرد أن أقترب منكِ؟!
_ الأمس كنت متأكدة أنك لن تفعل شيء.
_ حنين، تحبينني منذ عمر، واليوم عندما يصبح حقنا أن نعبر عن هذا الحب تخبرينني بأنكِ لا تريدين أن ألمسكِ؟!
_ لا أريد ما يحدث في الزواج.

قال بصدمة: ما الذي يخيفك؟

_ رأيته... يضربها.

_ من؟ تحدثي، ماذا تُخفين عني؟ رأيتِ ماذا؟

قالت بتردد: في المشفى... تهجم عليها و...

_ أنتِ تُثيرين أعصابي، تكلمي، ماذا حدث؟

عادت لحالة البكاء الهستيري التي رآها عليها أول مرة، لتكمل: دكتور جاسم... في المشفى... ضربها، رأيته يضربها ويقبلها و...

بدأ الشك ينتابه فقال بنفاذ صبر: أكملي بالله عليكِ.

بهلع أصابها من مجرد استرجاع الذكرى في عقلها قالت: كانت تصرخ وبعدها لم تعد تصرخ، رأيته من الشرفة أكثر من مرة.

أمسك يدها التي كانت ترتجف يحاول أن يهدئها ويهدئ نفسه قبلها وقال بصعوبة: هل اقترب منكِ؟

تشبثت بيده أكثر وقالت: كنت أصرخ عندما أراه وأضربه و...

أخفت وجهها بخوف وأمسكت بقميصه باليد الأخرى دون أن تشعر لتقول: كان يصيح بهم 'أعطوها... جلسة كهرباء'!

استوعب يحي ما تقول، ليكمل: كلما صرختِ به جعلكِ تخضعين لجلسات كهرباء كعقاب؟

هزت رأسها بإيجاب، فأكمل وكأنه يُحدث نفسه منفعلًا: لكي تفقدي الوعي، كيف لم يعرف والدكِ؟ ولإجراء أمر كهذه الجلسات لا بد من توقيع

المسؤول عنكِ، وبالطبع بما أنه عقاب؛ كان من دون تخدير، أنتِ دخلتِ المشفى بانهيار عصبي؛ كيف يصل الحال لجلسات كهرباء دون لفت الأنظار في المشفى؟!

ظل يتحدث ويجيب على نفسه، فابتعدت عنه أخيرًا وهي تقول بخوف: لم أدعه يتمكن مني، أقسم لك، أنا لا أكذب عليك، صدقني.

ورغم براكين الغضب داخله التي تكاد تحرقه رأف بحالها؛ ضمها إليه قائلًا: اهدئي، حبيبتي، لا تخافي.

قالت بخفوت: أنت تصدقني، أليس كذلك؟ أنا... أنا كنت أفيق بعدها لأجد نفسي في غرفتي.

رد بصلابة قائلًا: هل يعلم والدكِ؟

_ أتى يومًا لزيارتي بعد جلسة الكهرباء، وعلم بالأمر، انقلب المشفى يومها ممَّا فعله بهم، وأخذني إلى المنزل.

تمالك أعصابه ورفع رأسها لتنظر إليه وكأنه لم يسمع شيئًا، فقد أدرك ما وصلت إليه وما يجب عليه فعله! وقال بهدوء: من يحب أحدًا لا يؤذِه، افهمي ذلك.

قبل جبهتها يحاول السيطرة على انفعالاته؛ فهي تحتاج معاملة خاصة إلى أن تعود لطبيعتها، ظل جالسًا مكانه وهي جواره تستند إليه وقد نامت على كتفه، لا يعرف كم مر من الوقت لكنه لم يُرد أن يخرجها من حالة السكون هذه، انتبه لهاتفه المغلق وتذكر حديث معاذ عن مكالمات والدته،

ففتح الهاتف ليجد مكالمات كثيرة منها، استعد لمواجهتها، واتصل: كيف حالكِ، أمي؟

صاحت قائلة: ابني أنا يفعل هكذا؟ ألم تتذكر أختك؟ تخون الأمانة؟ أخبرني أن ما سمعته ليس حقيقيًّا.

قال بهدوء: أمي، سآتي لكِ حالًا.

أغلق الهاتف ونظر لحنين التي رفعت رأسها عن كتفه بمجرد أن بدأ المكالمة، وقالت: اذهب لها.

وقف يجذب يدها لتقف معه وقال: هل تتخيلين أني سأذهب بمفردي؟!

_ كيف؟

_ كما نحن.

بعد وقت قصير كانا قد وصلا، والغريب أنه لم يجد أحدًا في انتظاره، أخذها وصعدا إلى غرفة والدته، قالت بتوتر: ادخل أنت أولًا.

_ لا، هيا معي.

طرق الباب عدة مرات وأخيرًا فتحت كريمة ونظرت لهما بتأنيب، وقالت بحسرة: مبارك.

مال عليها يقبل جبهتها، وأمسك بيدها ليقبلها، وهي تحاول إبعاده: أمي، سامحيني، لو علمتِ ما الأمر فسوف تعذرينني.

قالت وهي تبتعد: ماذا جاء بك.

جلست على حافة الفراش ترفض التحدث، ولكن حنين دون أن تنطق بأي كلمة اقتربت منها تجلس جوارها، ورمت نفسها بين أحضانها تبكي قائلة بمرار: افتقدت حضنكِ، خالتي.

ضمتها إليها وقالت: وأنتِ أكثر، ابنتي، الحمد لله أنك بخير، الحمد لله.

نظرت لابنها بعتاب، لتجد حنين تقول: أنا لم أصبح بخير إلا بينكم، أرجوكِ دعيني أظل معكم.

ردت بأسى: إنه بيتكِ حبيبتي، خذ عروسك يحيى، واذهب إلى غرفتك ولنا حديث في الصباح.

جلس على ركبتيه أمامها وأمسك يدها يقبلها وقال: سامحيني أمي، والله لم أقصد؛ لم يكن هناك حل آخر.

قالت بهدوء وما زالت حنين بين ذراعيها: اذهب الآن.

جذب حنين ليخرج من غرفة والدته، وبمجرد دخولهما الغرفة وجدها تتنفس بعمق، فقال لها بمشاكسة: سينتهي الهواء بالغرفة.

ردت وبها حالة من السكينة: حضن أمك جعلني أشعر أني ما زلت طفلة؛ لم يكن لي أمان منذ صغري سوى أحضانها.

رد عليها بابتسامة: من جهة أنكِ ما زلتِ طفلة فأنا متأكد من ذلك، أما بالنسبة لحضن أمي، فأنا ابنها ومتأكد أيضًا أنني ورثت منها هذا، أنتِ فقط لم تعطيني الفرصة.

قالت بسرعة: أصبحت...

قاطعها ليكمل: أنا أصبحت قليل الحياء والأدب، وكل ما تريدين قوله، منذ أن رُدت لي روحي وعدتِ لي.

احمر وجهها خجلًا وقالت: وماذا بعد يا بن العم؟ هل تلاحظ أن هذا اليوم لا يريد الانتهاء؟

قال وهو يقترب منها: أتعرفين لماذا لا يريد الانتهاء؟ لأن هناك شيئًا ينقصه لينتهي.

_ وما هذا الشيء؟

_ زواجنا، حنين.

ردت بسعادة: وهل هناك أكثر من ذلك؟ تم عقد قراننا منذ ساعات، وأنا الآن في منزلكم، وفي غرفتك، وحضنتني عمتي كريمة، وهناك على بعد خطوات سلمى.

رفع وجهه للسماء قائلًا: رحمتك يا الله، هناك شيء مهم.

_ ما هو؟

خلع سترته وأطاح بها بعيدًا وقال: مؤكد العيب في هذه البدلة، ما رأيكِ نصلي ركعتين ليكرمنا الله في هذه الليلة؟

صليا لأول مرة معًا كزوجين، جلست على الفراش وجلس جوارها وهو يقول بهمس: حنين، هل لم يخبركِ أحد كيف يكون الزواج؟

ردت بصوت خافت: ومن سيخبرني، وأنا ليس لي أم؟

ابتلع غصة وحاول تجاهل ما قالت، ليكمل: صديقات مثلًا منحرفات، تزوجت إحداهن، قلن لكِ أي شيء.

ردت ببساطة: لم يكن لي أصدقاء غيركم، وأنت كنت الأقرب لي، وصراحة أنت كنت مهذبًا.

اعتدل في جلسته وقال ببشاشة: أجل، أنتِ وصلتِ للمهم؛ أنا كنت مهذبًا، وهذا خطأ يجب عليَّ تصحيحه وفورًا؛ لأني أخطأت خطأ فادحًا.

قالت بتوتر وشك: كـــ... كيف؟!

قال بهمس: هل تذكرين يوم علمتكِ السباحة كيف كنتِ خائفة؟

حركت رأسها بالإيجاب، فأكمل: وثقتِ بي وتغلبتِ على خوفك.

_ أجل.

أكمل حديثه وهو يخلع عنها الطرحة والورود: هذا كل ما أريده الآن؛ اتركي لي نفسكِ، وثقي بي.

حركت عينيها يمينًا ويسارًا تفكر في كلامه، فأكمل قائلًا: حنين، أريد أن أهديكِ طفلًا، لتكوني له أجمل وأرق أم.

وقبل أن ترد عليه، ما كان منه إلا أن عرفت يده طريقها لفك سحاب الفستان، فقد أرهقه ارتداؤها له منذ عدة ساعات وهو يقول: مؤكد هذا الفستان يزعجك.

ومع كل شوقه لها وثورة أعصابه الراكدة، ورغم خوفه وظنونه بعد ما قصته عليه، لكنه أراد في هذه اللحظة أن يقتل كل هذه الظنون ويريح نفسه

ويريحها، ويطمئن أنها بخير ولم يمسسها ذلك الوغد، حاول التعامل بهدوء؛ فقد استوعب جيدًا ما تمر به، كان سعيدًا برد فعلها، تركت له نفسها كما اتفقا، ربما وجودها في منزل العائلة هو ما أشعرها بالأمان، وقد قرر أنه صباحًا سوف يبدأ انتقامه لها من كل من آذاها، نامت بين ذراعيه في هدوء، تُمسك به بقوة، أغمض عينيه وقال لها ولنفسه قبل أن ينام: الحمد لله.

وسلم نفسه للنوم.

وبعد فترة، وربما اقترب أذان الفجر، انتفض مستيقظًا على صراخها ينظر إليها لا يفهم ماذا حدث، واستمر صراخها حتى أيقظ أمه وأخته.

الفصل الثامن

_ حنين، اهدئي، أنتِ هنا معي، أنتِ بخير.

ظلت تصرخ بفزع دون أن تراه وهو يحاول تهدئتها: بالله عليكِ، ماذا يقول من بالخارج؟ حنين، ماذا بك؟!

بالطبع كان الطرق على الباب هو الرد عليه، فهناك والدته وأخته، ليسمع أمه تصيح من خلف الباب قائلة: افتح، يحيى، افتح فورًا.

وقف يدور حول نفسه لا يعرف كيف يجعلها تهدأ، وكيف يفتح الباب وهي بهذا الشكل، التقط ملابسه من الخزانة ليرتديها بسرعة، ولكنه وضع يده أمام الباب وقال: عذرًا، سلمى، أمي فقط.

نظرت له بعتاب، دخلت كريمة فوجدت حنين ترتجف وتتدثر بغطائها برعب، جلست بجوارها وأخذتها بين ذراعيها، بينما هو جالس بالجهة الأخرى، يعدل من وضع الغطاء عليها، آلمه ما هي عليه، يعلم أنها ليست بحالة طبيعية، ولكن كان لا بد أن يطمئن أنها بخير، لم يمسسها ذلك الحقير وهي غير واعية، استاء من نفسه ولكنه لم يعد هناك داعٍ للندم؛ فقد فات الأوان، قالت كريمة بلطف وهي تربت على شعرها وتقرأ عليها القرآن: اهدئي، ابنتي، والله لم أتركِ معه إلا عندما رأيت الراحة على وجهكِ.

نظرت للكدمات الظاهرة على جسدها بصدمة وقالت له: ماذا فعلت بها؟ أهانت عليك؟

_ ماذا تخيلتِ أمي؟ والله لم أفعل بها ما يؤذيها أبدًا.

نظرت كريمة للغطاء، ثم نظرت لابنها بعدم فهم وهي تقول: ماذا يعني ذلك؟! لماذا قال عمك ما قال؟

استوعب ظن أمه وما وصل لها من عمه، فقال: أمي، أنا أتيت لكِ بها بفستان زفافها. ماذا تخيلتِ؟ أنا لم أمسسها من قبل.

قالت بعدم فهم وما زالت تحتضنها: ماذا يعني ما قاله عمك لسلمى؟

أمسك رأسه قائلًا: ماذا؟ هل جن هذا الرجل؟! سلمى!

قالت بهدوء: اتركني معها قليلًا، انصرف من أمامي الآن.

_ أمي..

قاطعته قائلة: أحضر لها ملابس، تحرك.

لم يجد ما يعطيه لها سوى قميص من ملابسه؛ فحقيبتها ما زالت في السيارة، نظرت له بحسرة وقالت: اذهب من أمامي، انتظر في غرفتي.

أخذ ملابسه وذهب إلى غرفة والدته، فهي لم تمرر ما حدث بسهولة.

أما حنين، فقد هدأت بين أحضان كريمة التي لم تستطع مقاومة دموعها على حال الفتاة التي لم تفرقها يومًا عن ابنتها، كانت تعدها زوجة لابنها، ليأتي اليوم الذي تتمناه ويحدث لها كل ذلك، ما كانت هذه هي أبدًا مدلَّلتها الصغيرة، فكم كانت منطلقة تحب الحياة!

قالت محاولة أن تداري مشاعرها: ماذا حدث؟ أخبريني ماذا فعل لكِ هذا الولد، والله لأريكِ ماذا سأفعل به.

ابتسمت وقالت بخجل: هو حقًّا لم يعُد مهذبًا، أمي.

قالت بابتسامة: لم تناديني بـ 'أمي' منذ استوعبتِ أني لست أمكِ.

_ يحي من قال لي حينها إنكِ لستِ أمي، وأنه ليس أخي، وكلما كان يسمعني أقول 'أمي' كان يغضب مني.

ضحكت قائلة بحنو: هذا الولد منذ صغركِ وأنا أعلم نيته، ولكن لم أكن أتخيل أن يتهور هكذا، ماذا فعل بكِ، ما دمت أنا أمكِ؟

احمر وجهها خجلًا ونظرت لأسفل، فدُهشت كريمة ولم تحاول الضغط عليها وقالت: قومي معي، هيا؛ لا بد أن تأخذي حمامًا الآن.

خجلت حنين منها وترددت، فقالت كريمة: أتخجلين مني؟! أنسيتِ كم مرة غيرت لكِ وأنتِ صغيرة؟

ظلت تتحدث معها فترة ليست بالطويلة، ولكنها بحس الأم استوعبت أن هذه الفتاة لا تعي أشياء كثيرة كان يجب معرفتها بها قبل زواجها، وهل تعرف في الدنيا أمًّا سواها؟!

بعد أن أخذت حمامها، جلست على الفراش لتمشط لها شعرها، وضعت رأسها على قدمها وظلت كريمة تربت عليها حتى ذهبت في ثبات عميق، عادت إلى غرفتها فوجدته جالسًا ينتظرها، اتجه لها وقبل جبهتها، فأبعدته قائلة: أفهم ماذا حدث؟

_ والله لم يحدث ما تتخيلينه.

جلست على الأريكة، وجلس أمامها أرضًا كما يحب أن يفعل طوال عمره، وقال: أتصدقين أن ابنكِ يفعل شيئًا كهذا؟

_ أريد أن أفهم.

_ والله تمثيل؛ لم أجد حلًّا لأتزوجها بسرعة سوى هذه الطريقة.

أخذ يقص عليها ما حدث، وكيف جاءت له حنين، ليجد والدته تبكي بحرقة قائلة: نحن من أذنبنا في حقها، تركناها معه، أنا السبب، سأحاسب أمام الله على تقصيري بحق هذه اليتيمة.

_ إنه قدرها، وأنا جدير أن آخذ حقها، الآن أرجوكِ، لا يجب أن تعرف سلمى شيئًا، والله كانت نائمة، واضح أنها تعاني من الكوابيس؛ ليست المرة الأولى التي تستيقظ فيها هكذا.

لتقول وهي توبخه لأول مرة منذ زمن: هذا لا يعني أن أغفر لك زواجك بهذه الطريقة، ولا يعني أن أمرر أنك أتممت زواجك وهي لا تعي أي شيء، هذا ليس حبًّا، هذه أنانية.

نظر أرضًا وقال: أعلم، والله ما فعلتها إلا خوفًا عليها، أتفهمينني؟

_ تعجلت.

_ أمي، أنا منذ أن أخبرتني وداخلي هاجس أنها... أنها تعرضت... لاغتصاب، أتتخيلين إحساسي؟ تصوري هي نفسها لا تعرف ماذا حدث لها! كان بداخلي نار.

_ اذهب لأختك؛ مؤكد لم تنم حتى الآن.

غادر متجهًا إلى غرفة أخته، وبمجرد أن طرق الباب فتحت ولم تنظر إليه، تركته وجلست على الفراش، جلس جوارها لا يعرف بماذا يبدأ، ليقول: حنين تحتاجنا جميعًا بجوارها؛ لقد مرت بظروف صعبة منذ تركناها، تعاني من الكوابيس، استيقظت مفزوعة، هذا كل ما في الأمر، ما وصل لعمي كان تمثيلًا؛ ليوافق على زواجي منها، كان لا بد أن أتزوجها سريعًا لأستطيع أن أحضرها هنا لتعيش بيننا، لم يكن عمك ليرضى بزواجي منها بسهولة.

أنهى كلامه ووقف وهي ما زالت لا تنظر إليه، لا يعرف هل لا تريد رؤيته أم لم تستوعب ما قال، مال عليها ليقبل جبينها، وغادر الغرفة، فلقد قال كل ما يصلح قوله، وليس عنده ما يفسر به أي شيء آخر.

....

في شركة زاهر رشوان كان الوضع مختلفًا، فحقًّا يخلق من ظهر العالم فاسدًا، تنطبق هذه المقولة على هذا الرجل الذي يعي جيدًا أن ابنه عمل فاسد لا بد له من إصلاحه؛ وقف أمجد أمام والده بتحدٍّ قائلًا: كيف لن تتم الخطبة؟! ماذا يعني ذلك؟ وماذا فعلت في عقد الشراكة الذي تم الاتفاق عليه؟ ألم يكن مقابل الزواج؟

رد عليه والده موبخًا: الاتفاقات ما زالت مستمرة، وهذا ليس له علاقة بالزواج من ابنة سليم، إن كنت تخيلت أن الزواج كان مقابل التعاقد، فهذا لأنك غبي، تهديدك للفتاة في منزلها ونيتك القذرة التي اكتشفتها، إن كنت

تخيلت أنه سيمر دون علمي فهذا لأنك أحمق، للأسف أعجبني اختيارك لأول مرة في حياتك، واضح أني توهمت، ستظل أهوج، فاشلًا، ليس لك دور سوى جلب المشاكل.

بعد أن تدارك أمجد صدمة معرفة والده، قال مدافعًا عن نفسه: أبي، هذا كذب، إنها فتاة سيئة، ألفت هذه القصة بعد أن كشفتها.

صفعه زاهر وقال بغضب رجل لم يعرف الطرق الملتوية طوال حياته: حيوان، لقد فشلت في تربيتك، هل أصبح الخوض في أعراض الناس والتلاعب بسمعتهم سهلًا على لسانك؟! أنا من دللتك وتركتك تفعل ما تريد على أمل أن تعقل.

_ أتصدق هذه الحقيرة وتكذب ابنك؟

قال باستياء: اذهب من أمامي، لا أريد رؤيتك مرة أخرى، بنيت اسمي بشرف واحترام الناس لي، ولا أريد في آخر عمري أن يلوثه تافه مثلك، انصرف من أمامي.

أخذ يبعده ليتحرك خارجًا بدفعات والده الذي يطرده، وقبل أن يغلق الباب خلفه قال: الفتاة تزوجت ابن عمها بالأمس.

ابتعد يشتاط غيظًا، بداخله كل الحقد والغل الذي يدفعه للانتقام!

أما زاهر فقد عرف نية ابنه وقرر أن يوقفه عند حده، فلا بد أن يسافر ليبدأ حياته بعيدًا عن أصدقاء السوء.

....

جلس سليم إلى مكتبه في الشركة، يحاول إعادة حساباته من جديد، وخاصة بعد مكالمته مع زاهر وإخباره بما حدث من ابنه فهو يعلم أنه رجل لا يخشى في الله لومة لائم، ولكن إعادة الحسابات بعد فوات الأوان شيء قاسٍ خاصة عندما يكون الأمر متعلقًا بالأبناء، ها هو بدأ جني ما زرعه، يعلم منذ طفولتهم أن ابن أخيه هو أحق شخص بابنته، لكن رفضه طاعته جعله يزداد حقدًا تجاهه، يخبر نفسه دائمًا أنه لو كان ابنه لكان الأمر مختلفًا، ولكن ما الفرق بين ابنه وابن أخيه؟ سؤال سأله لنفسه متأخرًا، ورغم كل شيء فهو لم ينم مطمئنًّا منذ فترة إلا هذه الليلة! لا بد أن يعترف لنفسه بذلك.

كلها أفكار مرت بعقل سليم في نفس اللحظة التي اقتحم فيها يحي الشركة، كم افتقد هذا الشعور وهو يمر بين ممرات المكان! أما موظفو الشركة، فمنهم من لم ينتبه له، ومنهم من دُهش لظهوره، وهو في طريقه لا يحاول النظر إلى أحد، لم يكن على وجهه أي تعبير مفهوم ليستشف منه الفضوليون أي شيء.

وصل مكتب عمه، وقبل أن تسأله السكرتيرة من يكون اقتحم المكتب.

قالت السكرتيرة بتوتر: آسفة، سليم بيه، هو من...

أشار لها بالانصراف، وبمجرد خروجها قال: ما الذي أتى بك الآن؟! ألم تأخذ كل ما تريد؟

_ أعطِني ملف حالة حنين.

_ لماذا؟!

_ لا أريد الخوض في تفاصيل ستجرحك، أعطِني الملف بهدوء.

رد بسخرية: هل سترفع دعوى وصاية؟!

قال وقد بدأ يفقد هدوءه: كنت متأكدًا أنك لا تعلم شيئًا عن حالتها، ابنتك تحتاج إكمال علاجها، وأنت كل ما يشغل بالك الوصاية.

قال بتهكم: أتتخيل أني سأقتنع؟!

رد بنفاد صبر: قلت لك إني لا أريد أن أجرحك، فأنا كرجل أعلم شعورك جيدًا بعد كل ما حدث مهما حاولت إظهار غير ذلك، لكن أنت من تدفعني لذلك، يجب أن تعرف أنها ما زالت تعاني من اضطرابات.

قال بامتعاض: ماذا تعني؟

_ بما أنك مصمم على المعرفة، فملف ابنتك يهمني أيضًا لمعرفة اسم الطبيب الحقير الذي أوصلها لما هي فيه الآن.

_ ماذا تقصد؟ أجئت صباح زواجك لتكمل الانتقام؟

_ أخبرتك أني لا أريد الحديث في تفاصيل ستجرحك، ألم تسأل نفسك لماذا أخضعها ذلك الحقير لجلسات كهرباء؟ هل حالتها كانت تستدعي ذلك؟ ألم تحاول إخبارك بتهجم ذلك الحقير عليها ولم تصدقها؟

قال بانفعال وقد بدأ يفقد اتزانه محاولًا الجلوس: ماذا تقصد؟

_ أعطِني الملف ودعني أمشي، فلا أريد قول أكثر من ذلك، فمهما كان بداخلي شيء لا يريد جرحك.

فتح الخزانة بجواره وأخرج الملف بيد لا يخفى على يحي ارتعاشها، ولم يحاول النظر إليه وهو يعطيه الملف ليقول بصوت خرج مهتزًا: هل... هل فعل بها شيئًا؟

_ تخيل عمي، أنا تزوجتها وبداخلي هذا الإحساس بالضبط!

تسارعت أنفاسه قائلًا: انطق.

_ اطمئن، هي بخير.

أخذ الملف وغادر وهو يعتصره في يده يتوعد لمن بداخله، وبمجرد ركوبه السيارة اتصل بأحد مساعديه قائلًا: أريد منك إحضار شخص فورًا إلى مخزن الشركة، لا تُصِبْه بأي أذى، أريد أن أنال أنا هذا الشرف، هل فهمت؟ سأرسل إليك رسالة بكل التفاصيل.

الفصل التاسع

أرسل الرسالة إلى معاونه واتجه إلى المشفى الخاص بمعاذ، وبعد فترة، جلس أمامه وقال بجدية: هذا ملف حالة حنين، أريد منك دراسته، وأن ترشح لي طبيبة، أفهمت؟ طبيبة، لمتابعة حالتها.

قال مبتسمًا وهو يتصفحه: أهذا بدافع الغيرة؟

_ أنهِ الأمر في أسرع وقت، ولا داعي أن أخبرك ألا تعلم رحمة شيئًا.

_ لماذا تركتها اليوم؟ تخيلت أنك ستظل جوارها شهرًا لا تتحرك.

_ ما دامت مع أمي فهي بأمان.

_ صحيح، ماذا فعلت خالتي عندما علمت الأمر؟

_ شرحت لها ما حدث وتقبلت بصعوبة، لم تكن ترضى عني لولا تفهمها وضعها، للأسف عمي أساء التصرف وأخبر سلمى.

_ ماذا أخبرهما؟!

_ للأسف، دعنا فيما سيحدث اليوم؛ إنه أهم.

_ ماذا تنوي أن تفعل؟

_ بدأت بالفعل، وفي انتظار وصوله لأشفي غليلي.

_ الطبيب؟ ماذا ستفعل؟

قرأ في عينيه ما جعله يشعر بالقلق فقال: لا تتهور.

رن هاتف الأخير بالاتصال الذي انتظره، استمع قليلًا للطرف الآخر، ولم يتحدث إلا بجملة واحدة: مسافة الطريق، لا أريد أن يلمسه أحد.

فهم معاذ مضمون المكالمة، فقال: لا تُدخل نفسك في مشاكل.

تركه ليغادر المشفى متجهًا لسيارته، وخلفه معاذ يحاول اللحاق به، ليقول له قبل ركوبه: لو تريد فعلًا مساعدتي أحضر حنين.

_ لماذا؟! كيف تفكر؟!

_ صدقني هذا لمصلحتها.

_ ماذا تنوي بالله عليك؟

_ فقط سآخذ حقها أمامها.

أدار السيارة بسرعة، ولم يكن أمام معاذ إلا أن ينفذ ما قاله.

بعد فترة قصيرة كان قد وصل يحي لمخزن الشركة، وجده مربوطًا في أحد الأعمدة، وقف يشاهده وبداخله ثورة يحاول كبح جماحها، كأسد يقترب من فريسته ببطء تقدم نحوه، وما إن أصبح أمامه مباشرةً حتى أخرج الوحش بداخله لينهال عليه ضربًا، وهذا التعيس لا يفهم لماذا يحدث له هكذا.

....

_ ماذا هناك، معاذ؟

_ لا شيء خالتي، سأوصلها إلى يحي كما أخبركِ؛ ولم يستطع المجيء لأخذها، فطلب مني ذلك.

نزلت حنين بقلق وقالت: يحي بخير؟

رد مبتسمًا يطمئنها: هل سيكون شكلي هكذا لو كان هناك شيء؟!

وبمجرد ركوبها السيارة لاحظ توترها وارتجافها، حركة يدها غير الإرادية، تعرقها المفرط، فقال: حنين، هل بكِ شيء؟

بلعت ريقها بصعوبة، وأنفاسها تتسارع كأنها لا تستطيع التنفس: لو لم يكن هناك شيء قد حدث كان سيأتي هو.

سألها بشك قائلًا: حنين، هل تأخذين أي دواء؟

_ لا... لا، لماذا؟

ليقول بعتاب: حنين، أنا طبيب، هناك دواء مؤكد تأخذينه.

_ نـ... نعم، كنت.

_ والآن؟!

_ أوقفتها من فترة.

_ خطأ، حنين.

قالت بصعوبة وهي تمسح تعرقها: شعرت أني لم أعُد أحتاجها.

أوقف السيارة أمام إحدى الصيدليات، ليدخلها ويعود بعلبة أعطاها لها بمجرد ركوبه قائلًا: خذي هذا مؤقتًا الآن، أنتِ تحتاجينه.

_ لا داعي لن آخذ شيء.

_ اسمعي الكلام، أنا لا آخذ رأيك.

حاول أن يتعامل معها دون أن يوترها مكملًا: لو لم يثق بي يحي لما أرسلني لأخذك، بيننا ذكريات وأيام طويلة، اسمعي الكلام.

أخذت الدواء بتردد، وقالت: أخبرني إذًا ماذا هناك.

_ لا تقلقي، يحي قرر أخذ حقك فورًا.

نظرت له بعدم فهم وهي تجد نفسها أمام أحد المخازن وسيارة يحي بجوارها، خرج يحي بعد أن أخبره معاذ بوصولهما إلى الخارج عبر الهاتف، ليقول معاذ متسائلًا: ماذا فعلت معه؟

_ لا تخف، الشرطة على وصول.

خرجت حنين من السيارة فجذب يدها دون أن يتحدث، سارت معه بطاعة وبمجرد دخولها المخزن ورؤيتها لهذا الوغد أخفت وجهها بذراع يحي وهي ترتجف، فقد كانت الدماء تلطخ ملابسه، وقالت: لا أريد رؤيته، أخرجني من هنا.

أما جاسم، فبمجرد أن رآها علم أخيرًا لماذا هو في هذا المكان ولماذا هذا الشرس يفعل به هكذا، ليقول محاولًا الحديث بصعوبة: لم أقترب منها، أقسم لك لم أقترب منها.

وقف أمامه معاذ، وإذ به يلكمه هو الآخر، فكم تمنى أن يفعل ذلك منذ علم بوضاعة هذا المحسوب على مهنة من أنقى المهن! فهي تتعامل مع أسمى المخلوقات على الأرض.

أخرج معاذ هاتفه وشغل كاميرا الفيديو وقال: انطق يا حقير، كم فتاة استغللت مرضها وانتهكتها؟

ضربه مساعد يحي إلى أن تكلم وهو يصرخ من شدة الألم: خمس فتيات، ولكن برضاهن، هي لم أقترب منها، صدقني، أقسم لكم لم أقترب منها.

ضربه معاذ قائلا: لك عين أن تذكر اسم الله يا حقير؟! برضاهن يا قذر؟! تستغل مرضهن وتقول برضاهن؟!

تشبثت حنين بيحي، لا تريد رؤية ما يحدث، أغلق معاذ هاتفه بمجرد سماع سيارات الشرطة، فقد أخبرهم يحي بأن هذا الحقير قد تهجم عليهم في الشركة بعد أن كشفوا أفعاله المشبوهة مع المرضى، واضطروا إلى حجزه إلى أن تأتي الشرطة.

وبعد سحب رجال الشرطة له، قال معاذ ليحي: هذا غير كافٍ.

_ وهل تتخيل أن ما في انتظاره ذلك فقط؟! هناك تحقيق في المشفى، وتسجيلك الذي سوف ننشره على مواقع التواصل سيفتح تحقيقات أخرى في النقابة، وأهالي الفتيات مؤكد سيعلمون؛ إنه مشفى خاص، سوف يستيقظ كل يوم على مصيبة جديدة.

....

بعد مرور ثلاثة أيام، وبمجرد أن غادر يحي إلى عمله، استيقظت حنين وقد قررت كسر الحاجز الذي وضعته سلمى بينهما، فمنذ دخولها المنزل وهي تحاول تجنبها، فتحت باب غرفة سلمى بهدوء؛ فمؤكد ما زالت نائمة،

كعادتها لا تحب الاستيقاظ مبكرًا، دخلت على أطراف أصابعها، وجلست جوارها، أخذت تنظر لوجهها بتأمل وهي تحدث نفسها قائلة: ما زلتِ بريئة الملامح، افتقدتكِ بشدة.

مددت جسدها ونامت جوارها وكأنها معتادة على ذلك، استيقظت سلمى بعد فترة ليست بالقصيرة لتفاجأ بحنين جوارها، اقتربت من جبهتها لتقبلها بتلقائية، ثم اعتدلت تخبط على كتفها قائلة: يا أنتِ، استيقظي، اخرجي من غرفتي.

تململت قائلة: اصمتي، أريد أن أنام.

رفعت حاجبيها بتعجب وكأنهما لم يفترقا قائلة: ما هذا البرود؟! أفيقي.

_ هشش.. اتركيني أنام، أخوكِ يزعجني طوال الليل وأنتِ الآن.

_ تقولينها في وجهي؟! اخرجي من غرفتي.

قالت وما زالت مغمضة العينين: نامي سلمى، ما الذي أيقظكِ مبكرًا؟!

_ والله إذ لم تقومين الآن فسأسكب هذا الماء على وجهكِ.

قالتها وهي تحمل في يدها الكوب الموضوع بجوار الفراش، عندها تحركت حنين فورًا وجلست تضحك قائلة: لا... لا أريد الاستحمام الآن.

خبطتها سلمى في كتفها وقالت: ماذا تفعلين هنا؟! اذهبي إلى غرفتكِ.

_ تقصدين غرفة أخيكِ.

ضغطت على أسنانها بغيظ وقالت: انصرفي من أمامي، أنا لا أن أراك.

_ ولكني أريد الحديث معكِ.

احتضنتها بعنف وقالت: افتقدتكِ، وافتقدت حديثنا، احضنيني أولًا ثم نكمل مشاجرة.

استجابت وضمتها إليها بشوق هي الأخرى قائلة: حضنًا واحدًا فقط.

_ لا مشكلة، واحدًا فقط الآن، والباقي بعد المشاجرة.

وبعد فترة ضمت فيها الفتاتان بعضهما البعض تارة تبكيان وتارة تضحكان، ابتعدتا أخيرًا، نظرت سلمى إلى حنين بتأنيب، فقالت الأخيرة أسى: لماذا تأخذين مني هذا الموقف؟

_ ألم تعرفي؟!

_ هل تتخيلين أني سعيدة بأني تزوجت بهذه الطريقة؟!

_ ألم نحلم بيوم زفافنا؟ تحرمينني أن أكون أخت العريس وأخت العروسة؟!

أمسكت يدها وبكت قائلة: ليس بيدي، صدقيني، لولا ما فعله يحيى لكنتِ الآن ترتدين الأسود عليَّ، والله لم يكن أمامي حل سوى الموت.

مدت يدها تمسح دموع حنين قائلة: بعيد الشر عنكِ.

بعد قليل هدأت الفتاتان وكأن شيئًا لم يحدث، وقد انتهى ببكائهما كل شيء!

نظرت سلمى لحنين بمكر قائلة: بما أنكِ سبقتِني بالزواج، أستفيد منكِ أي شيء، هيا، احكي لي.

نظرت لها حنين باستغراب وقالت: الآن فهمت ماذا كان يقصد يحيى بـ 'صديقات منحرفات'!

لمعت عيناها بمكر قائلة: إذًا احكي ماذا كان يقصد.

_ واضح أني غبت عنكما كثيرًا فعلًا.

_ لماذا؟!

_ أنتِ وأخوكِ أصبحتما تتمتعان بميول انحرافية.

ضحكت بشدة قائلة: لن أتركِكِ إلا عندما أعلم موضوع الانحراف هذا.

تأملتها حنين لحظات ثم قالت: سلمى، ما أخبار قلبكِ؟

_ كما هو، عزيزتي.

_ كما كان لم يتغير؟!

_ لم يتغير نهائيًّا.

ظلت الفتاتان تتحدثان لساعات طويلة دون أن تشعرا بالملل، فهكذا دائمًا الأصدقاء؛ يمر الوقت بينهم بسرعة ليظل لحديثهم دائمًا بقية.

....

هناك جانب خفي بداخل كل شخص، لا يعرفه أحد سوى المقربين منه، وربما هؤلاء يفاجَؤون به في يوم كما لم يعرفوه من قبل!

في مشفى معاذ، دخلت عليه مساعدته باندفاع.

_ ماذا بكِ، سماح؟ لماذا لم يدخل الكشف؟

قالت بتردد: هناك فتاة بمفردها، وتريد أن أدخلها آخر كشف.

رد بجدية: ما هذا الهراء؟ منذ متى نتلاعب بأدوار المرضى؟!

قالت بارتباك: حسنًا، دكتور... ولكن...

_ ماذا بكِ اليوم؟! ما الجديد؟! ستحضرين الكشف معها كالمعتاد.

_ هي تريد الدخول بمفردها، و... أنا لا أعتقد أنها مريضة قلب.

قال بنفاد صبر: هل شخصتِ الحالة؟! أدخلي الكشف فورًا.

خرجت لحظات وعادت لتطرق الباب مرة أخرى ودخلت ومعها الحالة، وما إن رفع معاذ رأسه عن هاتفه الذي كان منشغلًا به في إرسال رسالة إلى زوجته، حتى ثبت نظره على الفاتنة الواقفة أمامه وقد علم ما بسماح، رجع بظهره على كرسيه وقد لمعت عيناه بالابتسامة.

الفصل العاشر

نظر بانبهار لمن دخلت الغرفة بخيلاء، تقف أمامه بثقة مبتسمة وسماح مشدوهة لنظرات طبيبها الوقور الذي لأول مرة تجده ينظر لإحداهن هكذا، حتى ولو كانت تلك التي أمامه كملكات الجمال، ممشوقة القوام كأنها لوحة لفاتنة العقول.

تنحنحت سماح لإنقاذ الموقف وقالت: دكتور الكشف.

لم يعرها انتباهًا أو يحاول إنزال عينيه عنها، تأكلها عيناه، يتفرس جسد لا يحتاج سوى خيّال يروض عنفوان قدها المياس؛ فاقتربت سماح تحاول الوقوف بينهما تمنع نظرات طبيبها المتفحصة بجرأة، ليقول بهدوء: اذهبي، واصرفي باقي المرضى؛ فأنا اكتفيت اليوم.

قالت بذهول: ولكن...

تحرك باتجاهها، فأسرعت سماح تجاهه قائلة: دكتور، هل بك شيء؟

فقال بابتسامة ماكرة: أجل، فهل لا ترين معي هذه النجمة؟!

رفعت حاجباها بصدمة؛ فأطلق ضحكة ونظر لمن تقف أمامه على وجهها ابتسامة هادئة واثقة، ووجه حديثه إلى سماح متسائلًا: هل ملأت الحالة استمارة البيانات.

_ أجل.

_ هل دفعت الكشف.

_ أجل.

_ أخذتِ كشفًا من زوجتي يا سماح.

_ من؟ زوجتك؟! والله ما كنت أعلم، لم تخبرني، أول مرة أراها.

ونظرت وقالت: آسفة، والله آسفة.

ابتسمت رحمة مجاملة ولم تنطق؛ فرد ضاحكًا: لا عليكِ، اذهبي الآن.

ظلت سماح تنظر إليها بشكل لافت، لتقول لنفسها بصوت مسموع: الآن عرفت لماذا لا ينظر لأي فتاة!

حاول معاذ عدم إظهار ابتسامته وقال بنبرة صارمة: سماح، هذا أكثر من اللازم، اذهبي واصرفي من بالخارج، هل ستظلين معنا؟!

خرجت بحرج وأغلقت الباب خلفها، فاقترب منها وهو يبتسم قائلًا: ما ذنبهن الممرضات لتفعلي بهن هكذا؟!

ضحكت واقتربت منه بدلال: ذنبهن أنهن يعملن مع زوجي.

ليقول بشك: ماذا وراءكِ اليوم؟

_ وماذا تتخيل أن يكون ورائي يا دكتور القلوب؟

احتضن خصرها قائلًا: مؤكد شيء كبير لتتخلي عن ملابسكِ العملية، وترتدي فستانًا كهذا، وتأتي لي العمل لأول مرة منذ فتحت المشفى، وواضح أنكِ خرجتِ حالًا من عند مصفف الشعر، رغم أنكِ لا تحتاجين؛ فجمالكِ يسحر العقول دن أي مجهود.

قالت بدلال: وهل هذه الملابس لا تليق بي؟

_ لا يوجد شيء لا يليق بك، فقط أخشى على نساء الكون من الإحباط.

_ هل نذهب من هنا؟ فصراحة بدأت أخاف من مساعداتك بالخارج.

واقتربت من أذنه قائلة: شعرت أنهن سوف يأكلونني.

عبس وجهه ورد بنفس الطريقة: لا، مستحيل أن يأكلكِ غيري.

ثم ضحك وأردف: هيا بنا، لا أعلم كيف ستمرين أمامهن مرة أخرى.

وبمجرد أن خرج من غرفة الكشف وبجواره زوجته، كانت كل العيون مسلطة عليهما كأنهما يمران على السجادة الحمراء في أحد المهرجانات الدولية، وبعد عدة خطوات، وقف فجأة ونظر إليهن وقال بنبرة جادة: كل واحدة إلى عملها.

تحركت الممرضات وما زالت عيونهن عليها، لتهمس رحمة له: هل تعتقد أنها غيرة مني أم عليك، حبيبي؟

وبعد وقت قصير، في أحد المطاعم الفاخرة القريبة، وقد حجزت فيه رحمة سابقًا استعدادًا لهذا اللقاء، قال بفضول: واضح أنكِ رتبتِ كل شيء، وأنا زاد قلقي من القادم.

قالت وهي تضع رجلًا على الأخرى بثقة: لماذا؟

_ لأنكِ عندما تريدين أمرًا تقررين الوصول له بعد وضع خطة محكمة.

ضحكت بثقة قائلة: دعنا نطلب الطعام أولًا، وأخبرك ونحن نأكل.

_ ما رأيكِ أن نأخذ الطعام للمنزل؟ صراحة زوجكِ انهار بين يديكِ.

قالت بدلال: بل أنت المُهلك، حبيبي.

وأكملت ضاحكة قائلة: لو أني أضمنك في منزلنا ما كنت فعلت كل هذا.

دخل عليهما النادل بالطعام، وبعد أن انتهى من وضع الأطباق وانصرف، بدأ معاذ بالأكل، ليجدها ومع أناقة الشوكة والسكين بيديها بدأت بالكلام وهي تأكل بعملية، وكأنها في عشاء عمل وقالت: بداية، أنت تعلم جيدًا أني مستحيل أن أنجب.

حاول قطع كلامها، ولكنها أشارت له بالسكين بتهديد أن يسكت وهي تبتسم قائلة: لا تقاطعني من فضلك.

وضعت الطعام بالشوكة في فمها وأكملت: انفصالي عنك أنا وأنت نعلم أنه درب من الخيال، فدعني أعرض عليك هذه الدراسة.

ترك الملعقة من يده وقال بدهشة: ماذا؟ دراسة؟!

استمرت في الأكل بطبيعية شديدة وأناقة لا مثيل لها، لتكمل: أنا أكثر من يعرف كم تمنيت أن يصبح عندك طفل، حاولت البحث عن أي أمل حتى لا أدمر حياتنا، لكونك طبيبًا تعلم جيدًا أن أمر الحمل بالنسبة لحالتي منتهٍ، لم أكن أبحث عن أمل، لست جاهلة حتى لا أستوعب ذلك، كنت أقوم بكل الخطوات الواجب اتباعها حتى آخذ القرار السليم.

قاطعها قائلًا: رحمة، حياتنا ليست مشروعًا قائمًا على دراسة جدوى.

أكملت بعملية: نحن سعيدان معًا، ومتفاهمان، ولكن مع الوقت ستزيد حاجتك لطفل، أنت طبيب ناجح، من عائلة لها اسمها؛ ستحتاج من يحمل

اسمك ويرث مالك، لن أنسى أبدًا أنك شاركت يحي من أجلي لأصبح صاحبة شركة، لا أعتقد أن ما فعلته من الممكن أن يفعله أي رجل بسهولة، أنت من صنعت نجاحي، صنعت من جاءت لك اليوم بثقة تلفت الانتباه؛ فهل بعد كرمك هذا أبخل أنا عليك بسعادة تستحقها؟!

لم يضع شيء في فمه بمجرد بدء حديثها عكسها تمامًا وكأن الكلام فتح شهيتها على الأكل، وقال: هل كان لا بد من كل هذه المقدمات؟!

_ إنه كلام بقلبي أردت أن أقوله، ندخل في المهم.

أدركت أنها بدأ يظهر عليها التأثر، فحاولت العودة لمظهرها الواثق مرة أخرى، وقالت: أنت ستتزوج من تكمل سعادتك الناقصة.

خلع نظارته ووضعها جواره وهو ما زال لا يصدق ما قالته للتو؛ فقد اعتقد أنها ستطلب الطلاق، كان الأمر سيصبح منطقيًّا أكثر بالنسبة له! ليقول بصدمة: أخَرجتِ متألقة هكذا، وفُتحت شهيتك بهذا الشكل، لتطلبي من زوجك أن يتزوج؟! أجننتِ؟

أكملت كلامها وكأنه لم يقل شيئًا: انظر للموضوع نظرة أبعد من هذه الطاولة؛ من ستتزوجها تستحقك، وأنت تستحقها.

ضحك بدهشة قائلًا: اخترتِها أيضًا! ما شاء الله!

_ بالطبع، وهل تعتقد أني سأنتظر اليوم الذي أشعر فيه أنك خنتني، أو بمعنى أدق لا داعي لكلمة 'خيانة' أنت لست بالشخص الخائن سنقول

'تزوجت' دون علمي؟! هذا اليوم سيأتي، ليس الآن أنا واثقة من ذلك ولن تخبرني؛ لأنك لن تجرح مشاعري.

_ وضعت قصصًا وأفلامًا، ونهايات أيضًا!

أكملت بهدوء: لا داعي لتضييع العمر، تستحق الزواج بأخرى وأنت في عز رونقك وشبابك؛ فلما الانتظار؟

رفعت شوكة الطعام إلى فمها بهدوء مستفز أمام ذهوله وأردفت: سلمى تستحقك، بالإضافة إلى أني أعلم أنها تُرضي ذوقك.

وقف قائلًا بصدمة: سلمى! ماذا تقولين يا مجنونة؟!

قالت بهدوء: اجلس، ودعني أكمل طعامي، واسمعني للنهاية، أنت أحق بها؛ إنها فتاة مميزة، جذابة، تملك ما ليس بي، بريئة، رومانسية، حالمة، أي أننا سنكمل بعضنا البعض، وستعيش أنت في حياة ممتعة، صدقني.

جلس وقد فتح فمه واتسعت عيناه من شدة الصدمة وقال: أنتِ جننتِ، مؤكد أصابك شيء، تختارين زوجة لزوجك، أخت صديقي، لأتزوجها عليكِ! قومي معي، رحمة؛ مؤكد أنتِ محمومة.

قالت بابتسامة: خذ الموضوع ببساطة ودعني أكمل كلامي.

أخذت نفسًا عميقًا واستطردت قائلة: دائمًا كنت أشعر أن نظراتها لك مختلفة، أعلم أنها تحبك، وواثقة أنك تعرف ذلك؛ أنت لست ساذجًا.

ظل صامتًا لا يستطيع الرد؛ فأكملت: ربما كان حبها لك من قبلي؛ فأنت في حياتهم منذ طفولتها، وصراحة إحساسي يخبرني أنها ستوافق، وإحساسي لم يَخِب من قبل أبدًا.

هز رأسه بعدم تصديق قائلًا: ما هذا الذي تقولينه؟!

أكملت بهدوء: حتى أنت نظراتك لها مختلفة، ومحاولاتك تجنبها تؤكد ظني، تصرفاتك هذه معها منذ عرفتك.

_ لا أريد الآن إلا أن أكسر رأسك لأعرف ماذا بداخله.

حاولت عدم استفزازه وأكملت: لم تحاول أبدًا أن تثير شكي أو غيرتي، دائمًا هي راقية، لكن... الصب تفضحه عيناه؛ لذلك هي مناسبة، احسبها بعقلك، ولا داعي لهذه الحساسية.

ظل ينظر إليها وما زال مدهوشًا، ليجدها تكمل قائلة: إنها جميلة، مبهجة كالفراشة؛ ستنقلك معها بين الفصول، أنا شيء، وهي شيء آخر؛ فأنا قطة، وهي فراشة رقيقة؛ ستصبح حياتك ممتعة.

كلما تحدثت زادت صدمته أمام هدوئها وسلاسة الحديث الذي تكمله ببساطة وقال: مجنونة! أنتِ لست طبيعية!

قالت بابتسامة: إذًا لم تعجبك نظرية الفراشة والقطة؛ ما رأيك في الفاكهة؟ سأجعلك تتذوق نوعًا مختلفًا، وهذا لصالحي أنا أيضًا.

شعر للحظة أنها لا تعي ما تقول، ولكنها لم تمهله الوقت للرد أكملت وهي تشير إلى الطاولة أمامها قائلة: تخيل هذا الطعام الذي أمامنا؛ لو كان صنف

واحد فقط ستفقد متعة التذوق والتنقل بين طعم وآخر، هذا بالضبط ما سيحدث؛ فأنا بنكهة الأناناس الاستوائي المنعشة، أما هي فبنكهة المانجو، تخيل ماذا يحدث وأنت تأكل المانجو، حتى الشكل؛ أنا أشبه الأناناس برونقه، انظر كيف يوضع في المتاجر يشد الأنظار إليه!

لتشير إلى نفسها بثقة قائلة: بالطبع أنا أعرف قدر نفسي.

وتكمل ببساطة: أما هي كالمانجو الطازجة رائحتها تجذبك لأكلها.

نظرت له تريده أن ينتبه معها، وحركت يدها أمام وجهه المصدوم قائلة: معاذ، تخيل معي، ما بك؟ ركز قليلًا.

وصل لمنتهاه من الصدمة والاستفزاز وقال: كيف لأنثى أن تقول هذا الكلام عن أخرى أمام زوجها؟! أنتِ لستِ إنسية، أليس كذلك؟ أنا متأكد أنكِ أنثى، ولكن واضح أنك لست أنثى بشرية فعلًا.

أطلقت ضحكة تصيب العقل قائلة: هذا ما أريده أن يصل إليك؛ ليست الجنيات كبعضها البعض، وأنت سيصبح عندك جنيتان.

وقف مكانه، لبس نظارته، حمل هاتفه ومفاتيحه وقال: قومي معي، يكفي هذا الهراء.

خرج بها وهو يجذبها بعنف، أدخلها السيارة وصفع الباب بقوة، وقف قليلًا يأخذ أنفاسه قبل أن يركب أمام عجلة القيادة دون أن يتكلم، ولكنها لم تتعود الصمت، وقالت: لو تخيلت معي كيف تأكل الأناناس والمانجو فستفهم وجهة نظري، أنا أعلم أنك تحبهما.

_ اخرسي.

بدأ صوتها يهتز وهي تقول: ستصبح كل منا بعيدة عن الأخرى، مستقلة بحياتها، ما المشكلة في خوض التجربة؟ أنا واثقة من نجاحها.

_ اصمتي حتى نصل، لا أريد سماع صوتك.

وبمجرد دخولهما المنزل، وقبل أن تتحدث بأي كلمة، أربكتها نظراته؛ فلأول مرة تشعر بالخوف من رد فعله، بلعت ريقها وحاولت الثبات وعدم الهروب من أمامه، خلع سترته وألقاها بعنف، فك أزرار قميصه بعصبية، اتجه ناحيتها بجمود مخيف مختلف عن طباعه الهادئة وشخصيته الواضحة، ولكنها تعلم جيدًا أنه لو فقد السيطرة على أعصابه هي أول النادمين.

الفصل الحادي عشر

التضحية قمة الحب، سلوك سوي إذا كان لا يضر، رغم أنهم يطلقون عليها أحيانًا سذاجة، ورغم أن هناك من النفوس الحقيرة من يستغل تلك الخصال النبيلة، فإن العقل يبقى لديه قدرة الاختيار، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يضحي بمن يحب؟ بالطبع لا، أو ربما ليس الأمر سهلًا، هناك من يتبرع بجزء من جسده لحبيب أو قريب غالٍ من أجل إنقاذ حياته؛ فهو لا يتصور الحياة من دونه، هذا ما يحدث هنا بالضبط؛ ولكنه تبرع بجزء من الحب!

لأول مرة تشعر رحمة أنها تخشاه وتخاف رد فعله، اتجه ناحيتها بجمود، تخيلت كل ردود الأفعال بعدما تخبره ما تفكر فيه ولكن هذه المرة فشلت، جذبها من ذراعها بعنف، نزع سترتها ولم يهمه تمزق ملابسها، وهي تحاول تهدئته: معاذ، ماذا تفعل؟!

حملها بعنف ودخل بها دورة مياه الغرفة، فتح الماء عليها لتصرخ به: الماء بارد، أنا لست محمومة.

وكلما أرادت الابتعاد منعها بعنف قائلًا: حَذارِ التحرك، ستندمين.

صرخت فيه تحاول إبعاده، ولكنه تعامل بقسوة قائلًا: واضح أنكِ قررتِ أن تُخرجي أبشع ما بداخلي.

ارتجفت بين يديه تحت الماء قائلة: معاذ، سأمرض.

_ وهل أنتِ سليمة؟!

ابتعد عنها قائلًا: لا تتحركي.

أخذ ينظر إليها وهي ترتجف، إلى أن رق قلبه عليها، فقد بدأت تضعف قواها، ضمها إليه وألبسها روب الاستحمام الخاص بها، حملها وخرج بها إلى الفراش وألقاها عليه بعنف، ظلت ترتجف وهو جالس جوارها لا يحاول الحديث، كان يشاهدها بجمود، إلى أن بدأت تهدأ، لتتفاجأ به يصيح قائلًا: بكل برود تختارين لي عروسًا وتُقنعينني بها، أين الحب رحمة؟! أين الغيرة؟ أين إحساسكِ كأنثى؟ كيف أشعر بكِ بعد ذلك وأنتِ بكل هذا البرود تفرطين في حقكِ وتصفين لي أخرى؟

تحرك وأخذ ثيابه ليخرج من الغرفة صافقًا الباب خلفه، ونام لأول مرة منذ تزوجها خارج غرفتهما.

....

خرج يحي وحنين من عيادة الطبيبة النفسية التي أوصى بها معاذ، ركبا السيارة وقد كان بانتظارها طوال مدة الجلسة.

_ ما الأخبار؟ هل ارتحتِ معها؟

_ أشعر أنني أفضل ما دمت معك، منذ عدت بينكم لا أحتاج إلى شيء.

_ دعينا نتفق، أنكِ كنتِ تعانين من مشكلة ولا بد من المتابعة فترة، كنتِ تأخذين أدوية وأوقفتِها دون استشارة طبيب، هناك أمور كثيرة لا بد من مراعاتها لأجل صحتكِ.

_ لا أريد تضييع وقتك معي.

_ تبحثين عن مبرر تُقنعين به نفسكِ لتقنعيني، إنها مرة كل فترة، ماذا سيضيع فيها من وقت؟!

قالت بيأس: لم يعجبني الأمر، أهذا غير كافٍ؟

_ أخذتِ حكمكِ من أول مرة! أخبريني أولًا، ماذا قالت لكِ؟

_ لم تقل شيئًا مهمًّا.

_ من المفترض أن أقتنع؟!

_ سألتني إن كنت أعاني من الأرق وعدم النوم لكي تعطيني دواءً لذلك، وأنا أخبرتها أني من يوم زواجنا أنام بسهولة، ولا أحتاج إلى دواء، أنا لا أريد هذه الأدوية التي تجعلني كالمغيبة.

ضحك بشدة وقال: وما كان رد فعلها على هذه الوصفة السحرية؟

ابتسمت قائلة: أبدًا، ضحكت وقالت لي 'نحن هكذا لا نحتاج مهدئات ولا منومات، نحن نحتاج أن نرى الأستاذ يحيى المرة القادمة'!

ابتسم قائلًا: وهل هي جميلة؟

ردت بغضب: ماذا؟!

قال ضاحكًا: أريد أن أطمئن على طبيبتك ومستقبلها بعد حديثك معها.

_ أخبرتها أنك لا تحب حضور هذه الجلسات.

_ تكذبين على طبيبتك من أول جلسة؟! هل خفتِ أن تكتبني مع المهدئات لباقي المرضى؟

ردت بغضب: أخطأت لأني أخبرتك بحديثي معها.

أوقف السيارة جانبًا، وجذب يدها إلى فمه ليضع قبلة أطاحت بها وهو يقول: تعلمين أني أحب مشاكستكِ.

حاولت شد يدها، ولكنه رفض ليقبلها مرة أخرى وهو يقول: أنا لا أصلح أن أكون مهدئًا إلا لابنة عمي فقط، لا تخافي.

....

صباحًا خرجت رحمة من الغرفة، جلست جواره على الأريكة التي كان ينام عليها، وقالت بصمود دون أن تنظر إليه: إن لم تتزوج اليوم فسوف تفعلها يومًا ما، هل كل ما يوجعك الآن أن يكون الأمر بعلمي وموافقتي؟ هل سأصبح من وجهة نظرك لست باردة لو فعلتها من ورائي كأي رجل يتزوج دون علم زوجته؟! هل هكذا ستشعر بالنشوة والتميز مثل باقي الرجال؟ وإن علمت أنا بعدها وسكتُّ عن الأمر فسأصبح زوجة عاقلة!

رد بجمود: مصرة على ضرب الحديد وهو ساخن.

حاولت ألا تظهر منكسرة أمامه وقالت: اعتبرها تجربة قابلة للنجاح أو الفشل، إن نجحت فأنت الفائز بكل شيء، وإن فشلت فسيكون الفشل لي وحدي؛ لأنك وقتها ستكون قد كونت أسرة، وبمجرد أن يصبح عندك طفل لن يكون هناك داعٍ لوجودي في حياتك.

_ خططتِ وتخيلتِ وزوجتِني، وفي الأخير أنجبت وأصبح عندي أطفال، ثم أصبح لا داعي لوجودكِ في حياتي، إلى أي مدى وصلتِ خيالاتك؟! هل تدخلين في مشيئة الله؟ هل تضمنين أن أنجب من غيركِ؟

_ وقتها سأستطيع تدبير حياتي جيدًا مع آخر.

أمسك ذراعها بعنف قائلًا: يا لكِ من غبية! أتعين ما تتفوهين؟

ردت بأنفاس متسارعة: أنا كما وصفتني باردة، وإن كنت تريد الحقيقة فأنت أيضًا بارد؛ رضيت أن تعيش في روتينية مملة، حياتنا أصبحت محفوظة وخطواتنا معروفة، ربما لو كان بيننا طفل لكانت الحياة ليست هكذا، أردت أن أحرك هذا السكون قبل أن يقتلنا، ستختلف حياتك، وأنا إن لم تختلف حياتي بعدها فمن حقي وقتها أن أبحث أنا الأخرى عمن يخرجني من هذا الملل الذي أعيشه.

نهض من مكانه وجذب شعرها بعنف وكأنه تحول إلى إنسان آخر لا يعرف سوى الهمجية، يقول لها صارخًا: وهل بالمرة اخترتِ نوع الفاكهة التي تريدين تذوقها؟ تتحدثين عن زواجك بآخر أمامي؟! ألهذه الدرجة أوصلكِ عقلكِ؟ أم تخيلتِ أني سأظل صامتًا أمام غروركِ؟

تملكه الغضب؛ فعندما يتعلق الأمر بنخوة الرجل؛ يخرج عن السيطرة، لتبكي لأول مرة أمامه، جذبها إلى الغرفة، رماها بعنف على الفراش ليذيقها أشد أنواع العنف الجسدي، لم تتخيل يومًا أن يفعل معها هكذا، هي من سكنت عقله وقلبه وكيانه، لكنه لم يستطع تخيل ما تفوهت به أو حتى أن

يكون مر بعقلها، وأمام بكائها ابتعد عنها قائلًا: إذا كان هذا الأمر هو الذي سيجعلكِ تبكين كأنثى، فأنتِ من اخترتِ، ما رأيكِ الآن؟ أتمنى أن تكوني قد جربتِ نوعًا جديدًا ليس باردًا.

ابتعد عنها بعد أن أشفق على جسدها وما أصابه، وقبل أن يتحرك أمسكت يده تحاول الجلوس ولم يهمها ما أصابها، وقالت بصعوبة وهي تبكي: آسفة، لم أقصد ما وصل إليك، لم يأتِ ببالي ولو فكرة، لا أتخيل حياتي من دونك، أنت تعلم أن عينيَّ لا تعرفان سواك.

مسحت دموعها وما زالت ممسكة به باليد الأخرى لتكمل: تعرف أني لا أجيد الحديث إذا لم أرتب أفكاري.

جذبها بين ذراعيه وقبَّل رأسها قائلًا: كيف أوصلتِني إلى ذلك؟! سامحكِ الله، لمَ كل هذا الاستفزاز بالله عليكِ؟!

تركها وقام ليفتح أحد الأدراج، وأخرج أنبوب مرهم ودواءً مسكنًا، ناولها كوب الماء الموجود بجوار الفراش؛ وقال: كنت أشك أن عندك دماء، رحمة.

ابتسمت بسخرية وقالت: ودموع، هل رأيت؟

أخذ نفسًا عميقًا وقال: سامحيني، أول وآخر مرة، سأمرن نفسي على كظم الغيظ وكبح جماحي أمام جنونكِ من الآن.

لتقول بابتسامة حزينة: معنى ذلك أنك واثق أني لن أتراجع.

_ مؤكد ما دام ظهر عليكِ هذا الجنون فلن يختفي بسهولة.

_ ولكنه ليس جنونًا.

_ وهل له اسم آخر؟

_ نعم، إنه عشقك الذي أوصلني إلى الهذيان.

جذبها إلى صدره وأغمض؛ فلقد آلمه أن يفعل بها ما فعل ويكون ردها هذه الكلمات، ولم يعد يستطيع قول شيء سوى: سامحيني.

_ حقق ما أريده معاذ، اعتبرها أمنية لمحكوم عليه بالإعدام.

قال بأسى: هكذا سيكون تعذيب، وليس رصاصة الرحمة.

اعتدلت تنظر إليه بترجٍّ ودموعها تسابق كلماتها قائلة: هي الوحيدة التي لن تجعلك تبتعد عني، لن نُدخل أحدًا غريبًا بيننا، إنهم عائلتنا التي لا نعرف سواها، لن يبعدوني عنك؛ يحيى أخي، لن يرضى لي شيئًا يضرني، هي تكمل ما ينقصني، هي غيري، لن تغنيك عن وجودي بحياتك.

أخذ نفسًا عميقًا ولم يتكلم؛ فقد أصبح لا يعرف كيف يتصرف وهي تحاول بشتى الطرق السيطرة على عقله، كيف لها بعد ما فعله معها أن تتحدث بهذه الطريقة؟ اعتقد أن عقابها هكذا سيمنعها عن الحديث في هذا الأمر مرة أخرى، ليقول بتجهم: تعرفين دواخلي جيدًا، أصبحتِ كالأم التي تعرف مفاتيح ابنها.

_ بيننا الكثير يجعلني بين أحضانك مرة أخرى بعد ما فعلته بي؛ أنا لست بهذا الضعف، ولكن اعتبر موافقتك الآن ترضية لي عمَّا فعلته.

ضحك بأسى قائلًا: تحسنين استغلال المواقف.

أمسكت الهاتف واتصلت برقم سلمى وأعطته له، تردد مصدومًا ولم يعرف ماذا يفعل عندما سمع صوت الأخرى تجيب، بلع ريقه قائلًا: أهلًا، سلمى، كيف حالك؟

قالت بدهشة: معاذ؟! أهلًا، دكتور، الحمد لله، بخير.

صمت فترة دون كلام، فقالت: هل هناك شيء؟

_ نعم... نعم، سلمى، أريد مقابلتكِ؛ أريد التحدث معكِ في أمر مهم.

_ هل يوجد مشكلة؟

_ لا يمكن التحدث عبر الهاتف، ما الميعاد المناسب لكِ؟

لتقول بارتباك: أنا الآن في النادي إن تحب الآن... أو غدًا، لا مشكلة.

أشارت له رحمة بـ "الآن"، فقال بصعوبة: سآتي لكِ الآن.

أغلق الهاتف وأغمض عينيه، ولم يقل سوى: هذا جنون.

ساعدته في ارتداء ملابسه كالعادة وهي تحثه على السرعة لأن الفتاة تنتظره، كان مرتبكًا لا يعرف ماذا يفعل، وبعد أقل من ساعة، وقف في النادي ينظر لها من بعيد يحاول ترتيب كلامه؛ من أين يبدأ؟ وكيف؟ ومع اقتراب خطواته لها، كان يحاول تأملها لأول مرة بهذا الشكل. دائمًا ما كان يضع في حساباته صداقته ليحيي وحرمة منزل صديقه، كريمة التي يعتبرها أمًّا له، أعز صديقات والدته التي لم تعامله إلا كابن آخر لها، ومع تركيزه لأول مرة بها، وجد نفسه يبتسم عندما تذكر وصف رحمة لها بالمانجو!

الفصل الثاني عشر

وقف أمامها بابتسامة وقال: أهلًا، سلمى.

_ أهلًا دكتور، كيف حالك؟ تفضل.

جلس بهدوء ووضع على الطاولة مفاتيحه وهاتفه، يحاول إعطاء نفسه برهة من الوقت يجمع بها أفكاره، فقالت: عندي فضول لأعرف ما الأمر الذي جعلك تتذكرني.

تكلم بصوت رخيم: دائمًا أطمئن عليكِ من يحيى، هل تشربين شيئًا؟

قالها محاولًا تغيير طريقة الحوار، لترد قائلة: أنا هنا منذ فترة، ولكن الآن أحتاج إلى فنجان من القهوة.

طلب القهوة وظل صامتًا وقد أمسك بمفاتيحه يحركها بيديه يشغل نفسه بها دون النظر إليها، فقالت: أراك على غير طبيعتك.

_ لا أعرف كيف أبدأ معكِ الحديث.

انتبهت بشدة وقد أدركت أن الأمر أكبر مما تخيلت، وقالت: تحدث معاذ، أنا لست غريبة؛ أليس كذلك؟

أخذ نفسًا عميقًا زافرًا إياه وقال: وهذا هو سبب ترددي... لا أطيل عليكِ ولا على نفسي... سأقول ما أريده مرة واحدة، وأرجوكِ لا تتسرعي في الرد، وأعطيني فرصة دون مقاطعة.

كان يتجنب النظر إليها، فقالت بقلق: ماذا هناك؟

نظر لمفاتيحه ولم يرفع رأسه طوال حديثه وهو يقول: يجب أن تعلمي أن ما سأقوله الآن بمعرفة رحمة، أو بمعنى أدق هي صاحبة الفكرة، من دون مقدمات، أنا... أعرض الزواج عليكِ، سلمى.

قالها بسرعة ورجع بظهره على الكرسي ليأخذ نفسًا عميقًا، ولكن صمتها جعله ينظر لرد فعلها، ويا ليته لم يفعل!

أغرقت الدموع عينيها ولم تحاول التحدث؛ فأكمل قائلًا: رحمة ترى أن حياتنا متوقفة على موافقتكِ، من المؤكد أنكِ تعلمين أنها لا تنجب، زواجي بالنسبة لها أصبح أمرًا محتمًا وإلا فستنتهي حياتنا معًا.

كادت أن تتحدث، لكنه رفع يده ليكمل: أعلم ما تريدين قوله، لا داعي للتسرع، أنا صريح معكِ لأبعد حد.. لا أريد عرض الأمر عليكِ بأن أخدعكِ، أنت لا تستحقين مني ذلك، وما دمت رضيت لكِ ولي هذه الجلسة، فيجب عليَّ أن أصارحكِ، اعذريني فقط لأن كلامي غير مرتب.

صمت برهة ليكمل: رحمة تراكِ تكملينها، لا أخفي عليكِ صدمتي أمام اقتراحها، وربما أكثر منكِ الآن، بما أني الزوج الذي تقترح عليه زوجته الزواج بأخرى، وصراحة اجتهدت في عد مزاياكِ لي بما يوافق ذوقي، وتؤكد إحساسها بأنكِ مختلفة بالنسبة إليَّ عن أي فتاة أخرى، سلمى، صدقيني إذا لم تكن رحمة ظهرت بحياتي، فلم يكن عندي أدنى شك بأنكِ ستكونين مكانها، بجوز فارق السن بيننا هو الذي جعل ذلك يحدث، أنا الآن في الرابعة والثلاثين، أكبركِ باثني عشر عامًا، أتتذكرين يومها كم كان عمرك؟

أغمضت عينيها بشدة تحاول منع ظهور دموعها، ليكمل كلامه: أقول هذا الكلام الآن مع عرضي للزواج لأنني لست زوجًا خائنًا، لم أكن أستطيع إرضاء رجولتي بأن أكون سعيدًا بنظراتك لي، عندما تصديت لكلامكِ معي منذ سنوات كان لأنك ما زلتِ الصغيرة التي انجذبت لصديق أخيها، قلت لنفسي 'غدًا ستكبر وتتغير أفكارها' صدقيني ما كنت أريد جرحكِ أبدًا، ربما موقفي الآن أمامكِ هو تعويض لكِ عمَّا صدر مني قديمًا، حتى لو قابلتِ طلبي برفض هذه المجازفة المجنونة، فاعتبريه أخذًا لحقكِ السابق.

وضعت يدها على وجهها، لا يعرف أهي تبكي أم لا تريد النظر له، فأكمل بإصرار: ترى أن اختلافكِ عنها سيجعل مكانتها في حياتي كما هي، وأنك لن تحاولي إقصاءها إذا نجحت حياتنا معًا.

ضحك وهو يكمل مازحًا: اتركي الماضي جانبًا وشاهدي الموقف من جانب آخر لتضحكي معي، زوجتي تقول أني أستحق فتاة مميزة مثلكِ، ستجعل حياتي مختلفة، ترى نفسها تشبه القطة وتراكِ فراشة، هي أناناس وأنت مانجو.

تحدثت لأول مرة بعد ما تفوه به أخيرًا، قالت: هل أصابك الجنون أنت وزوجتك؟! أم أنا التي أصابتني الهلاوس وأتوهم أنك أمامي الآن؟!

رد بنفس الهدوء: اعتبري أني بعد يومين من العناء، أخيرًا وجدت من أهذي له بهذه الكلمات، لو لم يكن صديقي الوحيد أخاكِ لكان من الممكن

أن أكون معه الآن أفتح قلبي له، ولكن شاء القدر أن أوضع في هذا الموقف.

حاولت استجماع شجاعتها وقالت: هل لي أن أنصرف الآن؟

نظر لها بتركيز يريد أن يستشف أي شيء من ملامحها، وقال: لا.

ضحكت بأسى قائلة: لا؟!

_ لا يا سلمى، لن أتركِكِ تذهبين إلا بعد أن تقولي ما عندكِ كما فعلت.

صمت الاثنان مع مجيء النادل ليضع أمام كل واحد منهما فنجان القهوة الخاص به وبعد أن انصرف، أمسكت فنجانها بتوتر لترتشف منه القليل بسرعة وكأنها تريده أن يلهمها التركيز والرد الصحيح، ولكن مع توترها مال الفنجان لينسكب على الطاولة أمامها، وقبل أن تسقط عليها القهوة، تحرك بسرعة واضعًا يده أمامها لتسقط في كفه ولم يهمه سخونتها، أربكها تصرفه، ووجدت ملامحه تتألم من سخونة القهوة فتحت حقيبتها بسرعة لتُخرج منها بعضًا من المحارم الورقية لتناولها له، أخذها ببساطة ليمسح يده، ودون اهتمام بالحرق في كفه وضع أمامها فنجانه، ليقول وهو يقبض على كفه بشدة: نكمل حديثنا.

قالت محاولة تجاهل خجلها مما حدث: ماذا تريد أن أقول؟ مثلًا إني صُدمت أن عيني فضحتني هكذا بسهولة؟! أم إني جرحت زوجة من دون قصد لتعلم بمشاعري القديمة تجاه زوجها؟!

قاطعها قائلًا: هل لي أن أسأل هل المشاعر القديمة هذه انتهت؟

قالت بحزن: وهل أعتبر هذا السؤال لإرضاء غرورك؟

_ مؤكد جلوسي أمامكِ الآن ليس فيه أي إرضاء غرور.

ردت ببساطة: هل نملك تغير مشاعرنا بهذه السهولة؟! إجابة سؤالك صعبة على كرامتي.

أرهقه اعترافها وقد تخيل أن جلوسها معه سيريحه بعد العاصفة الباردة التي اجتاحته من رحمة، ليجيب عن كلامها الأسبق وكأنه لم يسمع شيئًا: أحب أن أريح ضميركِ، مؤكد ليس لك أي ذنب فيما وصل لرحمة، ولكنها هوايتها في قراءة لغة الجسد ولغة العيون، ومع ذلك ترى أنكِ لم تحاولي أبدًا استفزازها لإشعال غيرتها.

قالت بخفوت: لأنه ليس ذنبها ولا ذنبك أنت الآخر، هذه مشاعري، وأنا من يتحملها، لي سؤال، وأرجوك اتركني لأذهب، وأعدك بالرد غدًا.

_ ولي أنا أيضا سؤال.

قالت على استحياء: هذا اقتراح رحمة، وتخبره لي عن لسانها، وأنت؟

ابتسم وقد فهم ما تقصده، ليقول محاولًا إرضاءها: وهل لو لم يرُق لي هذا الاقتراح لكنت أجلس معكِ الآن؟! أخبرتكِ أنها تعرف ذوقي وتعرف ما يرضيني جيدًا، وأخبرتكِ أن لولا ظهورها في حياتي وأنتِ صغيرة لكنتِ من اخترتُ من البداية، أليس هذا كافيًا للإجابة عن سؤالك؟

وقفت دون أي كلمة، فوقف أمامها يقول بابتسامة: سؤالي، سلمى..

ابتسمت بخجل فقال: أليس غريبًا أن تعترفي بوجود نفس المشاعر بداخلكِ إلى الآن رغم أنكِ سوف تفكرين في الأمر؟

وضعت تضع حقيبتها على كتفها وأجابت: لأن من أحمل له هذا المشاعر يستحق أن أفكر.

تحركت بسرعة وغادر هو خلفها، يراها تسير أمامه مسرعة تحاول البعد عن نظراته التي تشعر باختراقها لها.

بمجرد أن ركب سيارته، ما كان منه إلا أن أمسك زجاجة المياه المعلقة بجواره وفتحها ليسكبها بالكامل على رأسه ويقود سيارته بسرعة جنونية.

وما بين وعدين وامر أتين

كيف أقاتل على جبهتين؟

وكيف أبعثر نفسي على قاربين؟

وكيف أجامل غيركِ؟

وكيف أجالس غيركِ..

و أنتِ مسافرة في عروق اليدين؟

وكيف تكون الخيانة حلًّا؟

وكيف يكون النفاق جميلًا..

وأشعر أني أقوم بدور المهرج

وأشعر أني أخون الحقيقة

حين أقارن بين حنيني إليكِ

وبين حنيني إليها؟

وكيف أكون لديكِ..

وأزعم أني لديها؟!

نزار قباني

في سيارة سلمى، وبمجرد ركوبها، أطلقت العنان لدموعها تسأل نفسها أيكون تحقيق الحلم بهذه القسوة؟ ودون تردد أمسكت الهاتف واتصلت برحمة التي ردت فورًا قائلة: كنت أنتظر اتصالكِ.

_ أمجنونة أنتِ؟ أم أنا؟ أم زوجكِ؟

ضحكت قائلة: ثلاثتنا مجانين بدليل اتصالكِ بي.

_ تختارين عروس زوجكِ بهذه السهولة؟

_ وهل كان سيصبح منطقيًّا لو اختاركِ بمفرده؟

_ نعم، رحمة.

_ إذًا دعينا نخرج عن المعتاد، صدقيني سوف تكون متعة.

_ ماذا؟! متعة؟!

_ نعم، فعل غير المألوف متعة، بماذا سيفيدنا المألوف إن كان آخره وجعًا؟

_ ولماذا أنا؟ هل تخيلتِ أني سأرضى أن أكون أنبوبًا للإنجاب؟

_ أبدًا سلمى، إن كان هذا صحيحًا لكنت اخترت أي فتاة بسيطة، هناك ألف واحدة ترضى بما هو أسوأ من ذلك، ما بالكِ بطبيب ناجح ومقتدر ووسيم وجذاب.

قالت بدهشة: أنتِ لست طبيعية، أتحاولين اقناعي؟! معقول لم يكن يهذي عندما قال إنكِ وصفتِ مميزاتي له؟!

ضحكت بشدة لتخيلها أنه في حالة غير طبيعية وقالت: إياكِ أن يكون أخبركِ بأمر المانجو.

_ ما هذا الجنون؟! أنا فعلًا تخيلت أنه لا يستوعب ما يقول.

_ اطمئني، لم يصل إلى هذه المرحلة بعد.

_ تمزحين، أليس كذلك؟

_ سلمى، صدقيني، هو يستحقك، كما أنك تستحقين زوجًا مثله، لن تندمي، على ضمانتي.

_ رحمة، لقد رأيت حبكما بعيني، عشقكِ الواضح في كلامكِ عنه، لمعان عينيه كلما أتى ذكركِ.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت: هو يستحق أن يعيش في سعادة، أعطاني في السنوات الماضية ما لم أستطع إعطاءه مقابلًا له، ولم أجد ما أستطيع منحه له؛ لذلك، اخترتكِ؛ لأنه يستحقكِ.

_ أنتِ تصعبين الأمر، أنا أشفق عليكِ أكثر مما أشفق على نفسي.

_ أعلم منذ أول مرة رأيتكِ أن بعينيكِ شيئًا تجاهه، احترمت تجنبك له، لو مكانكِ لكنت أصررت أن آخذ حقي فيه منكِ لأني وجدته قبلكِ وأحببته قبلكِ، أنتِ أفضل مني؛ لذلك متأكدة أنكِ ستتقبلين وجودي.

_ هل تقنعينني فعلًا بتقبل أن أكون زوجة ثانية؟ بل هل مقتنعة بأن يكون لكِ شريك في زوجكِ بعد كل هذا الحب؟!

ارتجف صوتها وهي تقول: سيكون لكل منا حياته الخاصة، وأنا واثقة أنه سيجعل كل منا تشعر أن لها مكان بمفردها داخل قلبه، إنها طبيعة الرجال، هم غيرنا، وهو ذكي، أرجوكِ فكري جيدًا.

أغلقت الهاتف وانهارت بعدها كما لم يحدث من قبل، فلقد وصلت لنقطة اللا عودة.

بعد فترة، فتح الباب ليدخل وعلامات الإرهاق تظهر عليه، أسرعت تخلع سترته التي أغرقها الماء وكذلك قميصه، قائلة: ماذا فعلت؟!

رد بشرود: كنت أحلم، لماذا لا أفيق؟

مر اليوم عليهما في صمت، نامت بين أحضانه، تركها تتشبث به وظل جوارها لا يعلم أهي نائمة فعلًا أم لا، ومع ذلك ترك لها هذا الإحساس، فمهما امتلكت من قوة هي أنثى واثقة وأحيانًا مغرورة؛ فكيف لها أن تتحمل ما يحدث حتى ولو كانت فكراتها؟

تأملها بين ذراعيه، كم أدهشه رأيها عن نفسها! تشبه الأناناس في فخامته وتميزه عن أي فاكهة أخرى، تمتلك من قوة قشرته الصلدة التي يصعب التعامل معها، وكأنها لوحة فنية جذبت نظره أول مرة رآها وأراد أن يستأثر بها لنفسه، رغم تعمدها عدم ارتداء ملابس لافتة فإنها مهما ارتدت تصبح متوهجة كشمس الصيف الحارقة عندما تسقط أشعتها على قطرة من الماء البارد لتبخرها، هذا ما فعلته به، جعلته كقطرة ماء تتلاعب بها كلما حاولت السقوط عادت وبخرتها، منذ أول يوم رآها قرر الاستيلاء عليها، والآن بعد كل سنوات الامتلاك هذه لا يمكن أن يتخلى عنها، وحدها من تستحق أن تكون له الزوجة والحبيبة والعشيقة، وحدها بذكائها استطاعت

الدخول في أعماقه لتحل محل الأم والأخت والصديقة، مسح دمعة سقطت من عينه يسأل نفسه كيف له أن يجرحها هذا الجرح هكذا.

....

أما سلمى فدخلت المنزل بهدوء شديد على غير عادتها، أوقفتها كريمة قائلة: ماذا بكِ؟

قالت بإرهاق: أبدًا، أمي، وقفت في الشمس كثيرًا، سآخذ حمامًا وأنام.

لم تحاول الوقوف وأسرعت إلى غرفتها، ذهبت كريمة لحنين بقلق تخبرها حالة سلمى على غير المعتاد ربما تستطيع معرفة ما بها.

توجهت إليها على الفور فوجدتها تخرج من دورة المياه وقد غسلت رأسها يتساقط الماء على ملابسها، فقالت بقلق: سلمى، ماذا بكِ؟

وبتيه ردت: أرجوكِ، اتركيني أنام، أريد أن أرتاح مما أنا فيه.

ساعدتها في تبديل ثيابها، ولم يكن على لسان سلمى سوى جملة واحدة: جاء في الوقت الخطأ.

لم تحاول التحدث معها، أرادت أن تعطيها فرصة للراحة، نامت بعشوائية على الفراش، تركتها وبداخلها ألف سؤال؛ أيخص الأمر معاذًا؟! هل جرحها مرة أخرى؟! وانتظرت مجيء يحي بفارغ الصبر لتخبره بحالة أخته؛ فهو أكثر شخص يستطيع مساعدتها.

الفصل الثالث عشر

بمجرد عودة يحي وبعد تناوله الغداء وصعوده للغرفة بعيدًا عن والدته، أخبرته بحالة سلمى التي عادت عليها من النادي، فقال بقلق: ماذا يعني كلامكِ؟ أقابلت معاذًا؟

_ هي لا تعرف أني أخبرتك شيئًا، لا داعي لأن نزيد الأمر سوءًا.

_ لا أتصور ما يمكن أن يحدث، أعرف معاذ جيدًا، مستحيل أن يجرحها، ماذا يعني 'جاء في الوقت الخطأ'؟ هل...؟ غير معقول.

اتجه يحي إلى غرفة أخته، وجدها تخبئ وجهها بالوسادة وتبكي، أبعدها عنها وجذبها إليه، أخذ يمسح على شعرها حتى هدأت، وقال: ماذا بكِ؟

_ هل ستفهمني؟

_ متى لم أفهمكِ؟! أنتِ قطعة من قلبي، أعندكِ شك في ذلك؟

قالت ببراءة: قطعة صغيرة منه، حنين أخذت الباقي.

ابتسم بسعادة، فمنذ صغرها ورغم حبها لحنين فإنها دائمًا تغار عليه منها كما تفعل الأخرى، ليقول: حنين تشاركِ فيَّ منذ زمن وما زلتِ تخشين على مكانكِ في قلبي.

_ نعم، منذ تزوجتها وهي في كل فرصة تخرج لي لسانها من ورائك وبمجرد نزولك صباحًا تأتي هنا لتحتل سريري!

ضحك قائلًا: لهذه الدرجة؟!

_ كلما حاولت إبعادها لا ترضى، وتنام بأريحية، كما تفعل في قلبك ولا تضعني في الحسبان.

_ ولماذا يا ساذجة لا تفعلين مثلها؟

_ لأنني أخشى ازدحام قلبك بمشاكلي أنا وهي، فأتركها تفعل ما تريد؛ هي أحق مني بقلبك، فليس لها سواك.

ضمها قائلًا بابتسامة: قلبي هذا ينبض لأجلكن فقط، سيقف لو لم تتعاركن عليه، هيا احكي لي ماذا حدث اليوم جعلكِ بهذه الحالة.

ردت بكلمة واحدة أكدت ظنونه: معاذ.

_ ماذا فعل لكِ؟ وأين رأيتِه؟

_ اليوم في النادي، أتى ليقابلني.

حاول السيطرة على غضبه لتكمل الحديث: ولماذا يقابلكِ؟

نظرت في وجهه تحاول معرفة رد فعله وقالت: طلب مني الزواج.

لم يحرك جفنًا، فأكملت: ألم تتفاجأ؟ أكنت تتوقع شيئًا كهذا؟

_ كنت أثق أنه سبب حالتكِ هذه.

قالت بدهشة: لماذا؟

_ وهل تعتقدين أن أخاكِ لا يشعر بكِ إلى هذا الحد؟ أتتخيلين أني لا أعرف سبب رفضكِ أي عرض زواج؟

أخفت وجهها بعيدًا عنه قائلة: هل واضح عليَّ إلى هذا الحد؟! كنت أتخيل أني نجحت في إخفاء مشاعري! ولكني للأسف وصلت لدرجة أن حتى زوجته كانت تعلم!

_ رحمة؟!

ابتسمت بسخرية قائلة: لم أكمل لك... هي صاحبة اقتراح الزواج.

أخذت تقص عليه كلام معاذ، وحتى محاولة إقناع رحمة لها عبر الهاتف، ولكن بالطبع احتفظت ببعض الخصوصية؛ فهناك ما لا يصح البوح دائمًا، انتهت من سرد ما حدث، انتظرت منه رد، ولكنه وقف ليخبرها: سأذهب لهذين الأحمقين الآن، وبعدها أخبركِ قراري.

_ أنت لم تعرف رأيي بعد.

_ لو كان الموضوع مرفوضًا بالنسبة لكِ، لكان الأمر انتهى لحظتها، لا معنى لتفكيركِ ولا انهياركِ هذا إلا شيء واحد.

اتجه بعدها إلى غرفته حيث كانت حنين في انتظاره، وقبل أن تسأله عن أي شيء، انصرف وهو يحثها ألا تترك سلمى بمفردها.

وبعد فترة قضاها في طريقه، فتح له معاذ دون النظر لوجهه وكأنه ينتظره، دخل يحيي وأغلق الباب خلفه بعنف، جلس أمامه يتأمل شكله المرتبك على غير عادته، وقبل أن يتعاطف معه أخذ نفسًا عميقًا وصاح به: هناك حدود كان يجب ألا تتعداها قبل أن تتحدث معها.

رد وهو يستند بمرفقيه على رجليه يحاول ألا يظهر مهزوزًا: أعلم هذا، وكنت واثقًا من إخبارها لك فورًا.

_ إذًا لماذا وضعت نفسك ووضعتها في هذا الموقف؟

_ لأن هذا الموقف بالتحديد لا يصلح أن يكون هناك وسيط.

رد بصدمة: أبعد كل هذه السنوات تعود لتجرحها؟

_ بالعكس، أنا أعدت لها الفرصة في أخذ حقها.

_ لماذا هذه المرة لم تخبرني؟

_ عندما أخبرتك منذ سنوات كنت أحمي أخت صديقي من نفسي؛ كانت مراهقة مندفعة، وسنوات عمري الأكبر حثتني ألا أستغل هذه المشاعر البريئة التي أقنعت نفسي بأنها مع الوقت ستتغير، تعلم كيف حاولت إبعادها، كيف حاولت ألا أظهر أمامها في أي مكان.

قال بحسرة: وكنت أمامها، مهما حاولنا، اندفاعها تجاهك كان البداية التي لم تنتهِ ولم نستطع فعل شيء لإيقافها.

_ كنت صريحًا معك؛ فهل تتخيل بعد ذلك أن أخدعك؟!

_ وماذا يعني ما قلته لها اليوم؟

_عرضت طلبًا حقيقيًّا، وكان لا بد من مصارحتها.

_ تخبرها أنها لو لم تكن رحمة ظهرت في حياتك لكانت هي؟!

_ هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعرفها، إنه حقها.

_ ورحمة؟!

_ رحمة لن تعود في قرارها، إما زواجي وإما الرحيل، وأنا لو آخر يوم في عمري فلن أتركها تبتعد، تعلم ليس لها غيري، منذ يوم زواجنا لم يسأل عنها أي أحد من أقاربها، لا أمها التي تزوجت بعد وفاة والدها وتركتها، ولا أهل والدها الذين تخلصوا منها بالزواج، رحمة لا يمكن أن تعيش من دوني.

ليرد وهو لا يستطيع الكيل بمكيالين: وهل تهون عليك أن تفعل ذلك بها؟ أيكون الزمن قاسيًا عليها للنهاية؟ وكيف عرفَتْ بأمر سلمى؟!

تنفس بصعوبة قائلًا: عرفت أكثر من اللازم دون أن يخبرها أحد.

_ أين هي الآن؟!

_ أعتقد أنها نائمة.

_ أريد الحديث معها.

_ لماذا؟

قال بحدة: سؤال ساذج، اذهب وأخبرها أني هنا.

تحرك دون مجادلة، وجدها منكمشة في الفراش تخفي وجهها بالغطاء، اقترب منها قائلًا: أعلم أنكِ مستيقظة، يحي بالخارج يريد مقابلتكِ.

لم تحاول التحرك قائلة: لا أريد، اعتذر إليه، أخبره أن دراسة الجدوى هذه المرة كالعادة ليس بها أخطاء.

_ انهضي رحمة، لن يغادر دون مقابلتك؛ فلا داعي للهرب.

نهضت وكأنها تبدلت لتقول: لم أتعود الهرب، لا داعي لاستفزازي.

_ سأذهب للرجل الجالس في منزلنا دون تحية، حتى تجهزي نفسك.

قالت بتردد: كيف هو شكلي؟

استوعب حرجها، هي التي تعودت أن تكون على أكمل صورة، وضع يده عبى وجنتها وقال: اغسلي وجهكِ وحاولي إخفاء هذه الكوارث.

قالت بعتاب: سيرفض طلبك إن رآني هكذا، اعتذر له.

ابتسم بسخرية وهو يضمها قائلًا: كم أتمنى أن يرفض، أخرجي كما تحبين، فقد سبق السيف العذل.

خرج وما هي إلا لحظات حتى وجدها تخرج ترتدي إسدال الصلاة، بالطبع دُهش يحي من مظهرها؛ فلأول مرة يراها بهذا الشكل، حزن على حالها، تذكر كم كانت سعادته بمعرفته رغبة معاذ الارتباط بها، فهي تستحق حياة أفضل من التي عاشتها يتيمة متنقلة بين منازل أقاربها، تحاول الاعتماد على نفسها لتنجح، نعم بمساعدة معاذ ولكن كان نجاحها فائق التوقع، انتبه من شروده الذي صاحبه نظرات لوم لصديقه، ليقول: أريد التحدث معها قليلًا بمفردنا.

رد بسخرية: أجئت تطلب الحديث مع زوجتي بمفردك يا رجل؟!

قال بجمود: اترك الباب مفتوحًا، أريد الحديث معها دون وجودك.

انصرف ورغم أنه متأكد أن معاذًا لن يبتعد عن الباب فإنه كان الأفضل ألا تراه أمامها، وبدأ بالحديث قائلًا: لماذا تفعلين بنفسكِ وبه هكذا؟

ردت محاولة التماسك بعد أن جلست حتى لا تخونها قدماها: لأني أحبه كان يجب أن آخذ هذا القرار.

قال بعصبية: هذا ليس مشروعًا، ليس قلبك ملف مناقصة.

_ أنت هكذا وفرت عليَّ الكثير؛ مؤكد أنت تعلم أني درست الأمر جيدًا.

رد بدهشة من إصرارها: الآن أنتِ تنتظرين إمضائي؟!

_ نعم، الأمر متوقف على قرارك، ولكن لتعلم أولًا أن حياتي مع معاذ متوقفة على نجاح هذه الزيجة.

بدأ يفقد أعصابه وهو يقول: تريدين أن تصيبينا جميعًا بالجنون.

_ لن أنتظر أن أصبح عبئًا عليه، لن أكون سعيدة وأنا أراه يضيع عمره معي، أيحقق هو أحلامي وأنا أبخل عليه بحلمه؟

أغمض عينيه بأسى أمام صراحتها وتركها تكمل حديثها، ولأول مرة يراها تبكي: تعلم أني أعتبرك أخي، عندما أراد معاذ خطبتي طلبني منك، وهذا ما جعلني أثق أنك لن تقبل لي الضرر، سنظل كما نحن.

صمتت قليلًا لتكمل بصوت منخفض: علاقة معاذ بسلمى ستكون بعيدة عني، سيكون لها حياتها الخاصة، وأنا أعدك ألا أحاول إزعاجها.

غادر الغرفة بهدوء، ولم يتفاجأ عندما رأى معاذًا واقفًا بجوار الباب يستند بظهره إلى الحائط، فوقف أمامه وقال: سأنتظركما مساء غد لإخبار أمي بالأمر؛ فأنا لن أستطيع إخبارها بمفردي، لو جاءت رحمة بهذا الشكل، فاعتبر الأمر منتهيًا.

حاولت لملمة روحها قبل أن تخرج من الغرفة لتجد معاذ واقفًا، وضعت رأسها على صدره قائلة: سنظل كما نحن، اجعلنا لا نفكر في شيء سوى أننا معًا.

ضمها بشدة قائلًا: لم أعد أتحمل أن أراكِ هكذا، آسف، أنا السبب.

رفعت رأسها بابتسامة قائلة: دعنا نعود ثلاثة أيام للخلف لنوقف الشريط أمام نظرات الممرضات بالمشفى.

ليخبر نفسه أنه لن يصبح القادم كأمس بعد الآن.

....

في غرفة سلمى، جلست أمامها حنين مصدومة مما تسمع، بعد أن بدأت تقص ما حدث فقالت: كيف تتحدثين بهذه البساطة؟ كيف تفكرين؟ تنتظرين مجيئه بزوجته لخطبتكِ! وتحاولين إقناعي أن قرارك السريع لمجرد أنه أنقذكِ من القهوة وكأنها مادة سامة؟!

قالت بتشتت: لا، ليس الأمر هكذا، وليس ضروريًّا أن تكون مادة سامة، إنها التفاصيل؛ عندما يهتم بكِ أحدهم ليُفضلكِ على نفسه، يتصرف معكِ دون تفكير في نفسه، يتحرك من أجلكِ حتى لو في ذلك ضرر له، مؤكد ستشعرين معه بالأمان، مؤكد يستطيع حمايتك.

_ رأيتِ المشهد من هذا المنطلق لأنكِ تريدين ذلك.

_ عندما أخبرتِني أنكِ كنتِ تتخيلين أن يحيي تزوج من أخرى، ويلبس محبس زواجها؟ أخبريني، هل استطعتِ أن تبتعدي عنه؟ بالعكس وافقتِ على الزواج به، أليس كذلك؟

حركت رأسها برفض، قائلة: لا، الوضع مختلف، أنا لم يكن أمامي أي حل آخر، يحيي هو المسؤول عني منذ صغري، أخ لي قبل أن يكون حبيبًا، ذهبت إليه ولم أفكر سوى أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع حمايتي، يحيي سندي في الدنيا منذ وعيت.

ردت منفعلة: ضعي نفسكِ مكاني؛ جاءت لي الفرصة لأقترب من الإنسان الوحيد الذي شعر به قلبي، لم أستطع أن أقنع نفسي بغيره، لم أتقبل أن أخوض أي تجربة، اليوم جلس أمامي يعرض عليَّ الزواج، يخبرني أن لي مكانًا بداخله، حتى لو كان صغيرًا، يوجد مكانا لي.

_ هناك واقع آخر، رحمة في قلبه، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا.

قالت بجمود: وأنا قررت خوض التجربة معها.

_ أقنعتْكِ المجنونة، ولكن... كيف تقنع نفسها؟!

_ نعم أقنعتني، وأخشى أن أضيع فرصة جاءت لي من دون طلب.

_ فرصة؟! أن تتزوجي رجلًا متزوجًا فرصة؟! بل تعلمين جيدًا حبه الشديد لها.

ردت بسخرية: قلب الرجل يسع أربعة.

_ لماذا تفعلين ذلك بنفسك أنت وهي؟! أنا لا أستوعب ما يحدث.

اقتربت منها سلمى تلتصق بها لتهمس وكأنها تحدث نفسها: حتى لو تقبلت ذلك ليوم واحد فقط، منذ تفتح قلبي، لم أتمنَّ سوى شيء واحد، قررت أن أترك التفكير لرحمة؛ صراحة أعجبتني أفكارها.

قالتها وهي تبتسم، فقالت حنين بدهشة: وما هذا الشيء الذي ستضحين من أجله هكذا؟!

ردت بهمس: أن أجرب كيف سأشعر وأنا... بين ذراعيه.

لم تحاول حنين الرد فهي تعي جيدًا كيف يجعلك الحب عاجزًا، ضعيفًا، تتشبث بأي أمل لتعيش لحظات حلمت بها بداخلك.

....

مساء اليوم التالي، اجتمع الجميع في منزل كريمة يتبادلون النظرات في صمت؛ فلم يكن عند أحدهم الجرأة لبدء الحديث، حتى صاحت بهم قائلة: لماذا أشعر أن هناك خطبًا ما؟! اجتماعكم هذا غير مطمئن، ماذا هناك؟

الفصل الرابع عشر

يقنع الكثير أنفسهم أن الغاية تبرر الوسيلة، يختارون وسيلة مشروعة من أجل أن يريحوا ضمائرهم ولا يهم على أكتاف من وصلوا ولا من استغلوا، حتى ولو كان بموافقة هذا الضعيف الذي قرر القبول بالقليل لكيلا يخسر كل شيء، هذا ما كانت تفكر فيه حنين وهي جالسة بينهم في جلسة تبدو عائلية من الدرجة الأولى.

تبادل الجميع النظرات أمام كلمات كريمة التي بدأت تشك في أمرهم، بدأ يحي بالكلام قائلًا: هناك من يريد التقدم لسلمى.

قالت بدهشة: ما المشكلة؟! هل هو أول خاطب لابنتي لتجتمعوا هكذا؟!

كان معاذ يجلس ممسكًا بمفاتيحه كعادته، يلهو بها ليخفي توتره.

فقال يحي بترقب: ولكن هذه المرة هو مختلف.

_ كيف مختلف؟ لا أفهم، هل أعرفه؟

قررت رحمة أن تختصر الوقت وترحم زوجها الذي لاحظت أنه حاول أكثر من مرة التحدث ولكنه يعود لسكوته مرة أخرى، تعلم أن لسانه لن يستطيع نطقها في وجودها، لتقول بابتسامة هادئة: سأخبركِ أنا خالتي، كل الموضوع أن معاذًا يريد الزواج من سلمى.

أنهت جملتها بسرعة ودون تردد، بشكل حسدها عليه الجميع؛ فحركت كريمة رأسها بعدم استيعاب قائلة: معاذ من؟

وأمام وجوم وجوههم جميعًا، أتاها الرد منها ببساطة: معاذ زوجي.

نظرت لها بدهشة، ثم قالت: هل هذه المزحة؟!

تكلم يحيي فلقد أشفق عليها قائلًا: لا أمي، ليست مزحة، هي حقيقة، ونحن هنا لمناقشتها.

_ أجننت أنت الآخر؟! تأتي هذه المجنونة تخطب لزوجها، وتجلس أنت بجواره، وتقول لي 'نتناقش'؟!

كادت أن تقف لتغادرهم، قائلة لرحمة: خذي زوجكِ هذا واذهبي.

ونظرت ليحيي قائلة: وأنت، إنه هذه المهزلة.

تفاجأ الجميع بسلمى تقول: لكن أمي، أنا موافقة.

وقبل أن تتحدث كريمة التي اتسعت عيناها فور حديث ابنتها، تحركت رحمة لتقف أمامها وتأخذ يدها لتجذبها للجلوس وجلست بجوارها قائلة: أرجوكِ، اسمعيني أولًا، وبعدها افعلي ما تريدين.

كانت تحاول أن تظل متماسكة، لم تستطع كريمة مقاطعتها، ولكنها ظلت تحرك رأسها بالرفض، بدأت رحمة في الحديث الذي رتبت له كثيرًا قائلة: لو انفصلت عن معاذ، وجاء لكِ ليطلب الزواج من سلمى فهو ابن صديقة عمرك، تعرفينه وتعرفين أخلاقه، تربى في بيتكِ، طبيب ناجح، لا داعي لأعد مزاياه فأنتم أهله، هل سوف ترفضينه وقتها أم ستفكرين في الأمر؟

ولأول مرة منذ أول هذه الجلسة يرفع معاذ رأسه ينظر إليها؛ فقد خشي عليها من الانهيار، في اللحظة التي لم تستطع فيها حنين ولا سلمى

السيطرة على دموعهما، فأكملت كلامها أمام عجز كريمة عن الرد، لتقول: هل وجودي هو المشكلة؟ إذا كنت أنا المشكلة فأنا أعدكِ أمامهم جميعًا أنب لن أمس سلمى بسوء، تعاملوا معي على أني مجرد شريكة ليحيى في الشركة وانسوا أمر زواجي من معاذ، أنا... أنا حتى لن أستطيع أن أنجب له أطفالًا يشاركون أطفالها في أبيهم، اعتبروا وجودي من دون فائدة، فقط أنا من أطلب منكم أن ترضوا أن أظل بينكم؛ فليس لي أهل سواكم.

اهتز صوتها ولم تعد كما بدأت، لتحاول أن تكمل قائلة: كنت أحلم أن أنجب أطفالًا وتصبح لي أسرة كبيرة، ولكنها إرادة الله، لو لم تتقبلي وجودي فسأنسحب من حياة معاذ دون تردد، وهو يعلم ذلك جيدًا.

أنهت كلامها وحاولت النهوض، ولكن تفاجأت بكريمة تأخذها بين ذراعيها تبكي وهي تقول: يعلم الله يا ابنتي قدركِ في قلبي، أنا امرأة، وأدرك قسوة ما تقولينه، والله ما أرضى لكِ أبدًا حرقة القلب وقهره، حتى وإن كانت سعادة ابنتي في ذلك.

مسحت رحمة دموعها التي بدأت ترفض سيطرتها عليها، قائلة: سأكون راضية وسعيدة بهذا الزواج، صدقيني.

تكلم معاذ أخيرًا قائلًا: هل أنهيتم جميعكم الكلام؟

ثم اتجه إلى كريمة قائلًا: خالتي، هل لي أن أتحدث معكِ بمفردنا؟

قامت معه إلى غرفة المكتب وأغلق الباب، ابتسمت رحمة أمام ما فعل؛ فقد استوعبت أنه لا يريد التحدث أمامها حتى لا يجرحها، تعلم أنه دائمًا ما يخشى عليها من أي كلمة قاسية، حتى لو دون قصد.

اتجهت سلمى للجلوس بجوارها، ونظرت لها بتمعن وقالت: كيف تملكين من القوة والجرأة لتقولي كل ذلك؟!

ردت بابتسامة: حبه هو قوتي.

_ أليس ما تفعلينه ضد الغريزة؟

ضحكت وأخذت يدها تحتضنها بين كفيها، لتقول: أليس ما يجعلك تجلسين جواري الآن تتحدثين بهذه البساطة معي، يجعلك مثلي؟

_ لا أعرف.

_ ولكني أعرف.

_ ماذا تعرفين؟

_ أعرف أني كنت على صواب منذ لم أرَ غيركِ تصلح له، وتأكدت أنكِ الوحيدة التي ستتقبل وجودي.

_ هل تعتقدين أن الأمر بهذه السهولة؟

_ نعم، اجعلي الأمر يمضي، استمتعي باللحظة وكونكِ عروسًا، انسيني وانسي وجودي... و... اجعليه ينسى كل شيء وأنتِ معه إلاكِ، هذه نصيحة لكِ من قلبي.

فتحت سلمى عينيها باتساع وقالت: يا الله! ضرتي تنصحني أن أُنسيَه إياها! أي جنون هذا؟!

ضحكت رحمة وقالت: افعلي مثلي وتعاملي مع الأمر على أنني أخرى ليس لي علاقة بمعاذ، انسي أنني أشاركِ فيه، أتفهمينني؟

_ تؤلمني صراحتكِ.

_ هذه ليست صراحة فحسب، إنها محاولة للتأقلم.

أما حنين التي جذبها يحيي بمجرد دخول معاذ ووالدته المكتب ليترك الفرصة لرحمة وسلمى للحديث دون أي ضغوط من حنين التي ترفض الوضع، خرج بها إلى الحديقة ليحاول تشتيت توترها الملحوظ قائلًا: ماذا بكِ حبيبتي؟

_ يحيي، أنا أريد طفلًا.

قال بدهشة: لا أفهم، هل أذهب إلى السوق لأشتري واحدًا الآن؟!

قالت بجدية: أنت تعلم كيف.

ابتسم بمكر قائلًا: وهل أنتِ تعلمين كيف؟

_ أنا لا أمزح، أريد أطفالًا، أنا أحبك ولن أتحمل.

_ حنين، لا تخلطي الأمور، لكل واحد ظروفه.

غلبتها الدموع قائلة: أنت تبتعد عني، تتجنبني منذ يوم زواجنا.

رد بدهشة قائلًا: ما الذي جعلكِ تقولين هذا؟! أنا لم أبعد عنك يومًا.

بكت قائلة: منذ يوم زواجنا ابتعدت عني ولم تحاول الاقتراب مني، أخبرني ماذا اكتشفت.

استوعب ما تفكر فيه، وصُدم لعدم إدراكها فقال: ما هذا الذي تقولينه؟

_ ألم تقل لي إنك تريد أن تهديني طفلًا؟ لماذا لم تقرب مني ثانية؟ ما... ماذا أبعدك عني؟

وضع يديه على كتفيها وهو يحركها وقد بدأ يستفزه كلامها: أنتِ يا بلهاء، ما هذا الذي تقولينه؟! حنين، أنا أعطيكِ الفرصة للعودة لحالتك الطبيعية، لا أريد أن أنهك مشاعركِ معي وأنت غير مستعدة لذلك.

_ لماذا تتجاهل وجودي؟

_ بالله عليكِ كفاكِ سذاجة، إلى هذا الحد لا تستوعبين! لم أكتشف شيئًا أفهمتِ؟

_ أنت... أنا كنت... هل يعني...؟

ضمها إليه لتخفي وجهها في صدره كما اعتادت، وسند وجهه على شعرها وهو يقول بهمس: حنين، ماذا تخيلتِ؟ لم يقربكِ غيري، ولو كان حدث لكنت قطعته وشربت دماءه أمامكِ قبل أن أسلمه للشرطة بيدي، ما تقولينه الآن يجعلني أتأكد أن قراري هذا سليم، أنتِ تحتاجين فترة قبل أن نعيش حياة طبيعية معًا.

ابتعدت عنه وقالت بغضب: لا أحتاج لأي فترة، أنا أريد طفلًا، أنت تتهرب حتى تتزوج بأخرى.

أخذها تحت ذراعه وهو يضحك، واتجه بها إلى داخل المنزل قائلًا: هذا الأمر نتحدث فيه في غرفتنا، وليس في الحديقة.

....

في غرفة المكتب، جلس معاذ بجوار كريمة وبدأ الحديث: أردت أن نتحدث بمفردنا حتى لا أجرح أحدًا بكلامي، اعذريني، هي عِشرة عمر، وجودها في حياتي ليس فيه نقاش.

حاولت الحديث ولكن صمتت عندما وجدته يكمل: رحمة قالت ما يكفي، ولكني أردت الحديث معكِ بمفردنا لكي أُطمئن قلبك، لو لم أحمل أي مشاعر تجاه سلمى لما أخذت هذه الخطوة، رحمة فعلًا أجادت الاختيار بالضبط كالأم التي تبحث عن عروس لابنها، سأقول لكِ ما قلته لسلمى، لو لم تكن رحمة ظهرت في وقت ما في حياتي، لكانت هي مكانها الآن، ولكنها أقدار، أعدكِ أن أحاول بقدر استطاعتي إسعادها وعدم ظلم إحداهما.

قالت بجمود: وهل ستستطيع أن تعدل، بني؟

أخذ نفسًا عميقًا وقال: سأحاول.

_ والحب هل ستعدل فيه؟

_ القلوب بيد الله، ليس بيدي، ولكني أعدكِ لن أجعل إحداهما تشعر.

وصمت قليلًا قبل أن يردف: هل وافقتِ، خالتي؟

قالت بحسرة: وافقت منذ أن أخذت رحمة بين أحضاني، وافقت أن تكون هي الأخرى ابنتي، وافقت من أجل أمك صفاء رحمها الله.

ابتسم براحة قائلًا: أراح الله قلبكِ.

فتح باب الغرفة، وبمجرد أن خرج لم يحاول النظر لأحد، ليأخذ نفسًا عميقًا قائلًا: ما طلباتكِ، سلمى؟

لم تفاجأ، وكأنها تنتظر أن يسألها أحد هذا السؤال، لتقول: لا أريد الزواج مباشرة، أريد فترة عقد قران أولًا لأعتاد الأمر.

رد بهدوء: حقك.

_ أريد أن نسافر بعد الزواج فترة ولو قصيرة، بمفردنا.

أغمضت رحمة عينيها بشدة، وقالت حنين هامسة لسلمى: جاحدة.

لم يرد، وإنما ردت رحمة، وقالت بنفس طريقة رده: حقك.

لم يعقب معاذ على كلمتها، فأكملت: لا أريد الخروج من هذا المنزل، أنا لن أستطيع أن أمضي أي يوم بمفردي وأنت مع زوجتك.

لم يجد ما يقوله، فدار وقد أبعد سترته بيده للخلف ووضع يده في خصره وهو يحاول أخذ أنفاسه، رأف يحي بحاله، فقال: سلمى، أي يوم لا يكون موجودًا به معكِ، يمكنكِ المجيء هنا.

وتم تحديد موعد عقد القران بعد أسبوع، وذهب كل منهما إلى مرساه.

....

في مرسى يحي وحنين، وبمجرد دخولهما الغرفة، وقفت تضم ذراعيها أمام صدرها وتنظر إليه بتحد قائلة: أخبرتني أننا سنتناقش في غرفتنا.

لم يرد عليها، خلع سترته واتجه لخزانة الملابس ليجدها تسرع وتقف أمامه قائلة: لا تتهرب مني، تحدث معي كما أتحدث معك.

أبعدها بيده وهو يخرج ملابسه ليكمل ارتداءها، فصاحت قائلة: لماذا لا تريد أن تجعلني أمًّا؟

رفع حاجبيه بدهشة وأكمل ارتداء ثيابه قائلًا بمشاكسة: هل تعرفين معنى كلامكِ هذا؟

_ إن لم تجعلني أمًّا، فسأخبر والدتك أنك لا تستطيع أن تجعلني أمًّا.

رمى قميصه بعيدًا قبل أن يكمل ارتداءه، ودفعها ليلتصق ظهرها بالخزانة، أمسك يديها وثبتهما جانبًا، ففتحت عينيها باتساع من المفاجأة، ليقول لها وقد ارتسم على وجهه الجمود: ماذا ستقولين لأمي؟ أعيدي ما قلتِه مرة أخرى لأسمع.

الفصل الخامس عشر

أدركت أنها أخطأت، فبلعت ريقها وقالت بتوتر: هل قلت شيئًا لم يكن يصلح للقول؟

حاول كتم ضحكته وهو يقول: أجل 'لا تستطيع' هذه تضيع فيها رقاب.

حركت أهدابها بسرعة تحاول الاستيعاب وقالت: إذًا قل لي ما يمكن أن أقوله لها.

ابتسم بحنو، فقد عجز عن التعامل معها وهي بهذه البراءة، حاوطت يداه خصرها وقال: أنتِ فعلًا معكِ حق، لا بد أن تخبريها، عند مغادرتي للعمل غدًا، اذهبي لها في غرفتها، بعيدًا عن سلمى، أفهمتِ؟

حركت رأسها بالفهم، ليكمل: تخبريها أنكِ تريدين ماذا؟

_ أريد أطفالًا.

_ لا، تخبرينها أنكِ تريدين معرفة كيف يأتي الأطفال.

_ ولكنك أخبرتني، يحيى.

قالتها ببراءة وهي تحاول ألا تنظر لعينيه، فرد عليها بابتسامة: هي ستخبركِ أفضل مني؛ فأنا ليس لي في النظري إطلاقًا.

_ ولكن، أنا أخجل منها.

ورغم بساطة كلماتها، فإنها حملت له معانيَ كثيرة، ليقول: أتخجلين من أمي ولا تخجلين مني، حنين؟

اعتدلت بين ذراعيه لتسند جبهتها على صدره وهي تنظر للأسفل تريح يدها بجوار قلبه وقالت: هي أخبرتني يوم زواجنا بهذا.

_ ماذا قالت لكِ؟

_ قالت إني يجب أن أتحدث معك في كل شيء مهما كان ولا أخجل منك لأنك زوجي.

ابتسم قائلًا: أمي لخصت المفيد بلباقة وأدب.

نظرت له بدهشة قائلة: ماذا تقصد؟

ضحك بشدة قائلًا: أقصد أنكِ تحتاجين أحدًا قليل الحياء، وليس أمي.

....

الحب كالماء مهم للحياة، من دونه سنصبح كالأرض البور، رغم أنها موجودة إلا أنها لا تنبت، الحب حياة برية لا يمكن فيها الروتينية، نعبر عنه فيتنفس ويخرج ليستنشق الهواء، ليس مهمًّا أن يكون حبًّا أفلاطونيًّا أو بطرق للتعبير محفوظة، فقط أخبر من تحب بما في قلبك، أعطِه إشارة البدء، أرشده ليستطيع الوصول ولا تتركه يضل الطريق.

نفذت حنين ما طلبه منها صباحًا، ذهبت لغرفة كريمة وقالت كما أخبرها بالضبط، وبعد سماع الأخيرة لها ابتسمت وأخذتها بين ذراعيها قائلة بود: لماذا لم تأتي لي من البداية؟ ألستُ أمكِ التي ربتكِ؟ أتخجلين من سؤالي في أمور كهذه وتجعلين هذا الولد يتلاعب بكِ؟ ولكن جنى على نفسه، سأخبركِ ماذا يجب أن تفعلي معه.

عاد معاذ من عمله ليجد رحمة في أبهى زينتها المنزلية، فلقد أطلقت العنان لكل ما فيها كي تكون في أوج حالاتها، علت وجهه ابتسامة رضا وسعادة قائلًا: واضح أنه موسم الأناناس.

لتقول بتلاعب: هكذا بدأت تفهم وجهة نظري جيدًا.

_ المشكلة أني فهمتها من البداية، والآن أريد تذوق الأناناس.

قالت متجاهلة مقصده: لقد أعددت لك الطعام الذي تحبه.

جذبها إليه قائلًا: أنا أحب أن آكل الفاكهة أولًا.

وكالعادة ضاع الاثنان في عالمهما الخاص، فهذا العالم لا يمكن أن يكون إلا لاثنين فقط، محاولين تجاهل ما هما مقبلان عليه.

....

أنهى يحي عمله، وكل ما يشغل باله في طريق عودته إلى المنزل سلمى، قطعة السكر التي تذوب رقة وبراءة، كيف ستكون حياتها بهذا الوضع الغريب؟ لا يخشى عليها لحظة من معاذ، فهو يعرف صديقه جيدًا ويعلم أنه مستحيل أن يجرحها، ولكن بأي حال الوضع ليس طبيعيًّا، يشفق على رحمة التي تبدو في أشد قدراتها على ضبط النفس، وضعتها الظروف في طريقه ليشعر بالمسؤولية تجاهها، عاد بذاكرته وهو يقود السيارة كيف تعرف عليها، رحمة الفتاة المتوهجة، أنيقة، جذابة، كانت تلفت الأنظار إليها بعنفوانها وتفوقها، ولكن يخشى الجميع الاقتراب منها، تعرف جيدًا كيف تضع الحدود، هذه المكافحة التي تحمل عبء مصاريف دراستها، هو الوحيد

الذي خصته بمعرفة ظروفها، ليتذكر جملتها التي قالتها له يومًا "أكرمني الله بوجودك في حياتي لأشعر أن لي في هذه الدنيا أخًا وسند"

رأى عينَي صديقه تلمعان وهو الذي لم يرَه بهذه السعادة منذ وفاة والدته، كان زائرًا مستمرًّا له من أجل صاحبة العينين الزرقاوين.

وصل المنزل وبحث عن حنين كعادته منذ زواجهما، قابل والدته وهو يصعد السلم فقال: كيف حالكِ، أمي؟

_ بخير حال بُني، هل أحضر لك الغداء؟

قال بإجهاد: سأبدل ملابسي أولًا وأرتاح قليلًا، وبعدها سآكل مع حنين.

ابتسمت بمكر قائلة: كما تحب، لكن أحذرك أن تأكل حنين نفسها.

وقف ينظر لها بدهشة قائلًا: لست جائعًا لهذه الدرجة!

قالت وهي تتجه للمطبخ: أشك في ذلك.

صعد السلم وهو يقول: هل يظهر عليَّ الجوع هكذا؟

وبمجرد أن فتح باب غرفته، أغلق الباب بقدمه وهو يتحرك بانبهار؛ فقد كانت ترتدي قميصًا قصيرًا قرمزي اللون، نجمته العالية واضح أنها وبفعل فاعل هو عرفه للتو قررت أن تتخلى عن براءتها، لم يرَها أبدًا بهذه الصورة، فلقد حافظ عليها حتى في أحلامه!

وقف يتأملها دون أن يتكلم، وكأنه يخشى انتهاء المشهد، انتبهت إليه، ومع ذلك استمرت في اللعب في هاتفها وكأن الأمر طبيعي وهي تقول: مساء الخير يحيى.

ظل صامتًا ينظر لها، لم يكن يعلم أن شعرها المتمرد إذا أعطاه أحد الفرصة للانطلاق فسيكون كالأشواك في قلبه تدعوه لاستنشاق زهرته، أهكذا يكون هذا الجسد الرقيق عندما يطلق له العنان لارتداء مثل هذا الثوب؟ قال وما زال مشدوهًا: ما هذا، حنين؟!

ردت ببساطة: ماذا تقصد؟

_ ما هذا الذي ترتدينه؟!

قفزت من على الفراش قائلة: آه، آسفة، لقد نسيت الروب.

_ حنين، من أين لكِ بهذا القميص؟!

ابتسمت قائلة بسعادة: إنه أكثر من واحد، أمي أحضرت لي الكثير، وأخبرتني إنها قررت أن تحضر ما نحتاجه كله أنا وسلمى معًا.

ضحكت بطفولية وهي تضرب كفًّا بالآخر قائلة: والدتك قالت إنها ستحضر كل شيء أحتاجه، حتى وإن كنت أنت لا تستحق.

اقترب منها يحاول تمالك السيطرة على ذلك الشعور الثائر بداخله وقال: أمي تلعب بالنار حنين، ماذا قلتِ لها؟

اقترب منها أكثر أخذ الروب من يدها وهي ترتديه، وألقى به بعيدًا قائلًا: كيف أقنعتْكِ بارتداء هذه الملابس؟

_ أخبرتني أن ما كنت أرتديه لم يعد يصلح بعد أن أصبحت زوجة.

ضمها إليه وأغرق رأسه في موج خصلاتها كما تمنى عندما دخل الغرفة، ليكمل حديثه: وماذا بعد هذه الملابس؟ ماذا أخبرتكِ أيضًا؟

_ لا شيء.

أبعد رأسه عنها ليعيد ما قالت بصدمة: لا شيء؟!

_ نعم، لا شيء.

_ إذًا أمي تلعب بي، تنتقم من زواجي منكِ بعيدًا عنها، فما رأيكِ أنت؟

قالت ببراءة: لا أعرف.

_ ألم تكوني مصرة على طفل منذ عدة أيام؟

ابتسمت ببلاهة وهي تخبره: لا، أجلت الأمر، أنسيت آخر جلسة مع الدكتورة؟ أخبرتني أن هذا أفضل حتى لا أضر الطفل، أمامي فترة حتى لا يحدث انتكاسة.

تحررت منه بسهولة بعد صدمته، وابتعدت عنه حتى لا يرى ابتسامتها الخبيثة، والتي لم تستطع إخفاءها أمام رد فعله، ليدخل بعدها مباشرة دورة المياه ويأخذ حمامًا باردًا ورمي نفسه على الفراش لينام، ولم يفكر في الطعام.

أما كريمة، فانتابها الضحك عندما أخبرتها حنين في اليوم التالي رد فعله على خطتها التي قررت أن تعيد بها تربيته، وتعطي الفتاة فرصة للثقة بنفسها.

....

مساءً، بعد انتهاء معاذ من عمله، وأثناء قيادته للسيارة، جائه اتصالًا غير متوقع ولكنه أسعده: أهلًا سلمى.

_ كيف حالك معاذ؟ أم أقول 'دكتور'؟

ضحك قائلًا: أنتِ كنتِ تقولينها مرة وأخرى لا.

ردت بخجل: شككت كثيرًا في عدم انتباهك.

_ إذًا تقصدينها.

_ صدقني هي كانت تخرج بمفردها.

ضحك قائلًا: ما زلتِ كما أنتِ سلمى، لم تكبري.

قالت بعتاب: لذلك لم تحاول التحدث معي.

_ كنت أنتظر عقد القران؛ فنحن إلى الآن لا يربطنا شيء رسمي.

قالت ضاحكة: أو ربما تنتظر أن تأتي من عند الله وتتخلص مني بعد أن فاجأتك بالموافقة.

_ هل يصح هذا الكلام؟

ردت بتوتر: كنت أنتظر أي مكالمة منك تُشعرني أن وجودي يهمك.

_ مؤكد وجودكِ يهمني.

_ لماذا أشك في ذلك؟

_ إذا كان هذا رأيك، فلماذا وافقتِ على الزواج؟!

_ ربما يأتي يوم وأخبرك فيه إجابة هذا السؤال.

_ ولماذا لا الآن؟

_ لأنك بكل بساطة إلى الآن تتعامل معي على أني سلمى أخت صديقك، التي تهربت منها منذ سنوات معتقدًا أنها مراهقة، ولكن حظك العاثر أوقعك بها مرة أخرى وما زالت كما هي، كبرت ولم تتغير مشاعرها.

شعر وكأنها تتوسل منه الحب، فقال: أعدكِ سيختلف الأمر، أعلم أنه ليس لكِ ذنب، لا أستطيع تغيير وضع اعتدت عليه بهذه السهولة.

_ معك حق، هيا اغلق الخط مؤكد اقتربت من المنزل.

قال بتعجب: كيف عرفتِ؟! أنا فعلًا أركن السيارة.

ليستمع لضحكتها بشقاوتها المعهودة كما عرفها منذ كانت طفلة: أعلم موعد خروجك من المشفى، وتغادر للمنزل مباشرة، والمسافة نصف ساعة بالضبط.

رفع حاجبيه بذهول وقال: أنتِ لستِ هينة يا فتاة.

_ أنت فقط لا تقتنع أني كبرت، هيا، حتى لا تتأخر على رحمة، سلام.

أغلقت الخط وتركته في حيرة تزداد كله لحظة

....

جاء اليوم المنتظر، وبرغم محاولة الجميع التعامل وكأنه أمر طبيعي، ولكن الواقع مربك؛ كريمة تحاول أن تنفذ وصية رحمة بأن تفصل بين وجودها والوضع الجديد، حنين تزداد توترًا وهي تشاهد فرحة سلمى وتعاملها مع الوضع بطبيعية، يحي تربكه حالة زوجته، أما معاذ فقرر أن يمضي اليوم كغيره من الأيام، ليس لشيء إلا لأجلها هي.

_ ماذا تفعل، معاذ؟

_ سأذهب إلى المشفى.

_ اليوم؟!

_ أجل ككل يوم.

_ ليس كأي يوم.

_ لماذا؟ ألن تذهبي للشركة؟

_ لا يوجد شيء مهم اليوم، سأعمل على الحاسوب، و... ربما تحتاج مني شيئًا قبل أن ترحل.

قال بشك: ألن تأتي معي؟

_ لا تشغل بالك بي، ما دمت ستذهب للعمل حاول ألا تتأخر اليوم.

ورفعت وجهها إليه لتضع قبلتها على وجنته وتبتعد، أما بالنسبة له فكانت كلسعة النار.

الفصل السادس عشر

أمضى معاذ يومه كالمعتاد، وأُثناء عودته اتصل بسلمى التي ردت بسعادة قائلة: هل اليوم عيد؟ ما هذا الكرم، دكتور؟!

_ كيف حالكِ يا شقية؟

_ بخير الحمد لله، أنتظر عريسي.

_ هل جهزتِ نفسكِ؟

_ وكيف أجهز؟

_ كأي فتاة، الفستان مثلًا!

_ عندي واحد، لا تقلق لن أحضر بالملابس الرياضية.

_ هذا صوت جرس الباب، أليس كذلك؟

_ لا تقل إنك تنازلت وجئت الآن.

دخلت حنين الغرفة بعد ثوانٍ تحمل حقيبة وضعتها على الفراش، واقتربت تقبل وجنتها قبل أن تغادر قائلة: واضح أن معاذًا قرر يبهرنا الأيام القادمة.

_ ما هذا، معاذ؟!

_ افتحيه، أريد أن أعرف رأيكِ.

فتحت الحقيبة وقالت بانبهار: إنه رائع.

_ ما رأيك؟

_ لم أرتدِ هذا اللون من قبل.

ضحك قائلًا: جربيه، وإن لم يعجبك فلا مشكلة بالنسبة لي.

ردت بارتباك: كيف تقول ذلك؟! أنا فقط...

_ أنتِ ماذا؟!

_ أخشى ألا يكون مقاسي.

سألها بدهشة: ولماذا تتوقعين هذا وأنتِ لم تجربيه بعد؟

قالت بارتباك: لأنك معتاد على ما يناسب رحمة.

أطلق معاذ ضحكة أربكتها وقال: جربيه، لن تخسري شيئًا.

_ هل أفسدت عليك المفاجأة؟

_ بالعكس بعد توقعاتك تأكدت أنه سيعجبك؛ لأنني بمجرد أن رأيته شعرت أنه صُمم من أجلكِ.

قالت بابتسامة تخشى أن يراها: لماذا؟

_ سأخبركِ عندما تخبرينني ما أجَّلتِه المكالمة السابقة.

_ هل هذا مقابل ذاك؟

_ اعتبريه كذلك، ولكن أعدكِ كرمًا مني أن أخبركِ أنا أولًا.

صمتت ولم ترد، فقال: هيا اذهبي لتستعدي.

أغلق الخط، ذهب وتركها تعيد كلامه مرة أخرى وكأنها تحفظه، تحلم بأي شيء يرضي شوقها لهذا اليوم.

صعد منزله وداخله شعور أنه لآخر مرة سيكون هذا الشخص، استقبلته ككل يوم، لم يحاول كلاهما أن يُشعر الآخر بما داخله، وبعد تناول الطعام قالت بهدوء: هيا، استعد حتى لا تتأخر.

_ ألن تأتي؟

_ ليس هناك داعٍ لوجودي.

نظر لها بتأنيب، أبعدت عينيها عنه وقالت: حقها ألا تشعر أني أراقبها، وجودي محرج للجميع حتى أنت.

ظل يتأملها يريد الغوص في أعماقها، ولكنها هربت من عينيه واتجهت للفراش، ووضعت الحاسوب أمامها وانهمكت في العمل.

حاول أن يتعامل بطبيعية، نظر إليها وهو يغلق أزرار قميصه وقال: من فضلكِ أحضري حقيبتي من الخارج.

أبعدت الحاسوب جانبًا وقامت بهدوء، ثوان ووضعت الحقيبة على الفراش وعادت لمكانها مرة أخرى، جلس أمامها قبل أن تحمل الحاسوب، ينظر لها بصمت غير مفهومة، جذب حقيبته، فتحها بعملية وكأنه سيقوم بالكشف عليها، دُهشت لتركيزه المبالغ، جذب يدها واحتضنها بين كفيه وظل ينظر لها ولم يحاول الكلام، كان يمسك كفها بشدة وكأنه يخشى هربها، وفجأة أخرج بيده الأخرى إحدى الحقن الجاهزة من حقيبته، وبكل سرعة ومهارة طبيب محترف حقنها في ذراعها قبل أن تستوعب ما يحدث وهي تبتسم، لم تحاول مقاومته أو جذب ذراعها، إنها الثقة حتى لو كان ما يحدث

غير منطقي، فثقتها فيه لا تجعلها تقاومه، حتى لو كان كل شيء لا يبدو طبيعيًّا، لتقول بابتسامة: معاذ، ماذا تفعل؟ أهي حقنة الرحمة؟!

مال مقبلًا يدها مكان الإبرة، ووضع يده الأخرى خلف ظهرها، فقد بدأ رأسها في الدوران، ليقول وهو يقربها من صدره: عذرًا حبيبتي، لا أستطيع ترككِ بهذه الحالة.

ابتسمت قائلة بصعوبة: تخدرني، معاذ؟!

ظل يحتضنها إلى أن تأكد من انتظام أنفاسها وضربات قلبها، ليلمس بشفتيه شفتيها، ولأول مرة لم يستطع تقبيلها وكأنه يخجل من نفسه، اعتدل في جلسته جوارها ليتأكد من سلامة نومها، أبعد الحاسوب، دثرها بالغطاء، ثم أخذ حقيبته وسترته وانصرف، وهو يقول: سوف تستيقظين لتجديني جوارِكِ، حبيبتي.

بعد أقل من ساعة وصل إلى منزل العائلة، فتح له يحيي الباب وبمجرد أن رآه كان السؤال المنطقي الذي توقعه: أين رحمة؟!

رد ببساطة: خدرتها.

ظل يحيي ثابتًا أمامه وما زال ممسكًا بالباب وعلامات الذهول عليه، لتأتي حنين من خلفه وتسأل نفس السؤال: أين رحمة؟!

وبنفس الرد قال: خدرتها.

ولكنها قالت بسخرية: أتريد أن تكون بحريتك لهذه الدرجة؟!

جذبه يحي من ذراعه بقوة قائلًا: لماذا فعلت ذلك؟ ما بال أن الأمر كله بعلمها وموافقتها؟!

أخذ نفسًا عميقًا ورد عليهما بهدوء: أيجوز وأنا طبيب أن أقوم باستئصال جزء من جسد إنسان دون تخديره؟! هذا ما فعلته، لم تكن لتأتي معي، حتى ولو كان عندها هذه الجرأة فلن أعرض قلبها لهذا الوجع، أردت ألا تشعر بالوقت حتى أعود.

صمت قليلًا أمام صدمتهما، ليكمل بأسى: خشيت أن تفعل بنفسها شيئًا.

تركه يحي يدخل وأمسك بيد حنين، ولكنها قالت قبل أن يبتعد: وماذا ستفعل يوم الزفاف؟ هل ستوقف عنها أجهزة الإنعاش رحمةً بحالها؟!

جذبها يحي لتبتعد عنه وقد نظر لها بعتاب قائلًا: مؤكد هناك حل.

ذهب إلى كريمة فقالت بعدما علمت ما فعله: خير ما فعلت، بُني.

حضر القليل جدًّا من الأقارب المقربين والأصدقاء، وعلى رأسهم باسم الذي بالطبع سيشهد على العقد.

ظهرت العروس لتخطف الأنظار، انتفض معاذ واقفًا بمجرد أن شاهدها في الفستان الذي اختاره، أبهرته أكثر مما تخيل، هو فعلًا صُمم خصيصًا لها، ومع كل درجة تهبطها، كان بغير إرادته يقوم بالمقارنة ولا يعلم لصالح من.

إنها أقصر من رحمة، ممتلئة أكثر منها شيئًا ما، لقد فكر في ذلك عندما اشتراه، ابتسم يخبر نفسه أنه لم يكن هناك داعٍ لخوفها، تأملها في الفستان بلونه الكناري، لقد قصد البحث عن هذا اللون بالتحديد! ضيق من أعلى

لأسفل لدرجة أبرزت أنوثتها كما لم يتصور، رغم شريطه الساتان من الوسط الذي يحمل خلفه ذيلًا واسعًا من الشيفون يمتلئ بالزهور، يحاول إخفاء هذا الجسد الملفوف عن العيون؛ فيلوم هو نفسه على اختياره بتلك الجرأة، شعرها المنساب بهدوء خلف ظهرها، لأول مرة يراها تتركه بحرية، ينافس ذيل الفستان طولًا! لتكون كالفراشة في مملكتها تقترب لتقف على أزهار قلبه.

جلس الجميع وبدأت إجراءات عقد القران، ظهر على الجميع الفرح وخاصة كريمة التي كم تمنت منذ صغره أن يكون زوج ابنتها! ولكن كان له اختيار آخر لتصمت وتدفن هذا الحلم مع صديقتها.

وضع يحي يده في يد رفيقه كوكيل للعروس، شعر الصديقان برهبة الموقف، وتحدثت العيون، اثنتان بالرجاء والأخريان بالوعد، أنهى المأذون العقد أخيرًا ليبارك لهما وهو يغلق الدفتر.

اهتز قلبها وهي ترى حلم حياتها يتحقق، أما معاذ ويحي فقد وقفا، ليحتضنا بعضهما البعض.

بدأ الحضور بتقديم التهاني، واتجه معاذ إلى سلمى التي ما انتهى عقد القران حتى جرت ترتمي بين أحضان والدتها تبكي، لتجذبها بعدها حنين تضمها إليها هي الأخرى، وهو يقف خلفهما ينتظر انتهاءهما بتأثر، فقالت حنين لها دون إدراك وجوده خلفهما: لولا علمي بما في قلبكِ منذ سنوات لما وافقتكِ، أعلم كيف يصبح الحب ضعفًا يجعلنا نرضى منه حتى بالقليل.

_ ولكن هذا أكثر مما تمنيت.

تفاجأت به الفتاتان يجذب سلمى ويقبل جبهتها قائلًا: أنتِ من هي كثيرة عليَّ.

بعد وقت، وبين تبادل التهاني وبعض الأحاديث الجانبية، رن جرس الباب، اتجهت حنين لتفتحه، فوجدت فتاة ذات شعر ذهبي مموج بعشوائية وعينين خضراوين، زينتها كاملة وكأنها هي العروس.

ابتسمت الفتاة بإشراق وقالت: هل تأخرت؟

دُهشت حنين من الثقة التي تتحدث بها، فقالت: عذرًا، من أنتِ؟!

ضحكت بسخرية قائلة: ما هذا السؤال؟!

_ وهل سؤالي غير منطقي؟!

لتقول الفتاة وقد زاد ضحكها بطريقة مستفزة: بالطبع غير منطقي.

تفاجأ يحي بالحوار الذي يدور، وبمجرد أن رأته الفتاة أبعدت حنين عن طريقها واتجهت له مسرعة تحتضنه وهي تقول: أوحشتني كثيرًا.

نظرت حنين بذهول لما يحدث خاصة بعد تجاوب يحي واحتضانه للفتاة، لم يبتعد عنها أو ينفر من فعلتها وكأنه اعتاد على ذلك، فقالت بصعوبة وقد أوشك قلبها على التوقف: من هذه؟!

ردت الفتاة سريعًا بسخرية: من سأكون مثلًا؟! زوجته.

ارتبك الجميع بمجرد سماع الحوار، وقبل أن يعلق أحدهم كانت حنين قد أمسكت رأسها وغابت بوعيها عن الواقع، ليبعد عنه الملتصقة به ليلحقها قبل أن يرتطم رأسها بالأرض، وقد أفزعه منظر الدماء وهي تخرج من أنفها.

الفصل السابع عشر

تفاجأ الجميع بغياب حنين عن الوعي، صرخ يحي في الفتاة قائلًا: لماذا قولت ذلك؟

تحركت سلمى قائلة: ابتعدي يا غبية، ماذا فعلتِ؟

ثم قالت بقلق وهي تحرك حنين: لا تصدقيها، افعل شيئًا معاذ.

صاحت كريمة في ابنها قائلة: احملها يحي، لا تتركها هكذا، تحرك.

نفذ أوامر والدته دون تفكير، صعد بها الغرفة مسرعًا وكريمة وراءه، أما سلمى فأخذت تصرخ في معاذ وهي تبكي قائلة: ألست طبيبًا؟! افعل شيئًا، هي غيري، حنين لا تتحمل ذلك، هي ليست رحمة،

خرج معاذ من المنزل واتجه لسيارته يحضر حقيبته الطبية، ووقفت سلمى تضرب الفتاة وهي تقول: لماذا أتيتِ؟! أنتِ غبية، متهورة.

عاد معاذ راكضًا ليجذب سلمى يبعدها عن الفتاة قائلًا: هيا.

صعدت معه مسرعة متخطية إياها بإهمال، حاولت الفتاة أن تصعد ولكن سلمى أوقفتها قائلة: ابعدي من أمامي، وإلا ارتكبت فيكِ جريمة.

في الغرفة، كان يحي في أسوأ حالاته وهو يرى وجهها هربت منه الدماء وهو يقول: حنين، لا تصدقي، إياكِ أن تصدقي.

قام معاذ بالإسعافات الواجبة فقد ارتفع ضغطها ولم تتحمل المفاجأة.

....

في الأسفل حاولت الفتاة الصعود، ولكن منعها هذه المرة باسم قائلًا بابتسامة باردة: يا أنتِ، إذا صعدتِ الآن فسوف يقتلونكِ.

قالت بغيظ: وأنت ماذا تريد؟ ابتعد من أمامي، لا ينقصني إلاك.

_ ألكِ عين بعد أن أفسدتِ الفرح؟!

كادت أن تُخرج غضبها به قائلة: من أنت؟! أنا لا أعرفك.

ضحك قائلًا: وهل يعرفكِ أحد هنا؟

_ ابتعد من أمامي، أريد أن أطمئن عليها.

_ أولًا أخبريني، هل أنت زوجته فعلًا؟ أم أرسلك أحدهم لإفساد الفرح؟

_ ماذا تقصد؟! أمجنون أنت؟!

نظر لها من أعلى لأسفل قائلًا: أيكون أمجد من أرسلك؟ اعترفي.

بدأت في البكاء وقد شعرت أنها شخص غير مرغوب فيه وقالت: أقال لك أحد من قبل إنك متطفل؟

قال ببرود: ما المانع أن يكون متزوجًا من أخرى؟ فصديقه فعلها، أتعرفين؟ هذان الاثنان أكثرنا التزامًا، وها هما كل واحد تزوج باثنتين كالصاروخ، وأنا لا أستطيع الزواج بواحدة.

مطت شفتيها باستياء قائلة: تدخل منزل أصدقائك لتعاكس زوجاتهم.

_ أبدًا والله، الموقف يستدعي الجنون، أخبريني من تكونين حتى أعلم كيف أعاملكِ.

بعصبية أخت تخلع عدستيها اللاصقتين، فقال بصدمة: إنهما عدستان! يا الله! تخفين هاتين العينين الساحرتين كالليل؟! بالله عليكِ طمئني قلبي، أنتِ زوجته أم إن شاء الله لا؟

رميت بهما أرضًا وداست عليهما، فقال: لمَ هذا العنف؟!

_ لأنهما السبب.

_ بالله عليك، أخبريني هل أنتِ زوجته؟

قالت بتوتر: وما الفرق؟

رد بثقة وابتسامة: لو كنتِ زوجته، فسأبتعد عنك فورًا.

ابتسمت بخجل تمسح دموعها وهي تقول: وإن لم أكن كذلك؟

عدل من نفسه قائلًا: سأكون وجدت ما أبحث عنه في هذا البيت المبارك إن شاء الله.

قالت بسخرية: أمجنون أنت؟! وجدت ماذا؟!

رد بسعادة قائلًا: لا تشغلي بالكِ، أنا عرفت الإجابة، آنسة.

ابتسمت بخجل قائلة: أيمكن أن أصعد الآن لأطمئن على حنين؟

ظهر من خلفه أحدهم قائلًا: اجعلها تذهب تطمئن عليها يا صديق.

دار باسم باتجاه الصوت خلفه، ليعود وينظر إليها وقد تبدلت ملامحه إلى الجمود وقال: اصعدي الآن آنسة... آه نسيت أنا باسم.

نظرت له بعدم فهم، فقال بابتسامة وكأنه يصحح ما قال: أنا آسف.

تركته الفتاة التي لم يعرف اسمها بعد، وصعدت تجري على السلم تعرف طريقها لغرفة يحي بالطبع، كيف لا تعرف هذا المنزل جيدًا؟ فهي تقضى فيه أكثر أوقاتها! وبمجرد دخولها الغرفة، وجدتهم جميعًا ينظرون لها شزرًا، فقالت: لم أقصد، لم أتخيل أنها لن تعرفني.

كان معاذ يغلق حقيبته وهو ينظر لها بضيق قائلًا: أنا نفسي لم أعرفكِ!

تحدث يحي وهو يمسك بيد حنين: رهف، لا أريد سماع صوتك إلى أن تفيق، لم تعد تتحمل حماقاتكِ، ابتعدي، لا تجعليها تراكِ الآن.

تحدثت رهف بقهر وقد أطلقت العنان لدموعها: كنت أمزح معها، لم أتخيل أن تقابلوني هكذا.

اتجهت لها سلمى تحتضنها قائلة: ليس الأمر كما فهمتِ، كيف حالكِ؟

جذبتها سلمى باتجاه كريمة التي كانت تجلس بجوار حنين على الفراش فقالت: كيف حالكِ رهف؟ لن تكبري أبدًا.

بدأت حنين في استعادة وعيها، وبمجرد أن فتحت عينيها وشاهدتها وسط الموجودين، كادت أن تصرخ، ولكن ضمها يحي إليه قائلًا: رهف، إنها رهف، انظري لها جيدًا؛ عدستان وصبغة شعر يا حنين، ركزي، كاد قلبي أن يقف بالله عليكِ.

اقتربت رهف لتجلس بجوار يحي وقالت بخجل: كنت أمزح حنين، هل ما زلتِ مجنونة بحب هذا المتعجرف؟!

أغمضت عينيها بشدة وهي تبكي، ولم يحررها يحي من أحضانه بعد، أشار معاذ لرهف أن تبتعد ليميل محدثًا حنين بصوت لم يسمعه سوى يحي: أنتِ لا تأخذين الدواء، حذرتكِ من قبل؛ ضغطكِ غير منتظم، إذا استمررتِ على ما تفعلينه فسوف يتزوج بعدما تموتين شهيدة حبه.

ابتعد ليغادر الغرفة، فأوقفه يحي قائلًا: معاذ خذ عروسك كما اتفقنا.

وقال لسلمى بإشفاق بعدما فسد حفلها: هي بخير لا تقلقي عليها.

وأكمل حديثه لوالدته قائلًا: معاذ كان قد طلب أن يأخذ سلمى لتناول العشاء بالخارج، أمي.

_ طبعًا بني، خذ زوجتك وهيا حتى لا تتأخرا.

غادر العريسان الغرفة، وبعدهما جذبت كريمة رهف من يدها لتخرج معها، ولكن رهف اتجهت إلى حنين واحتضنتها قائلة: افتقدت غيرتكِ وجنونكِ به.

لم تحاول النظر إليها، فقامت رهف مع خالتها بحزن، وبمجرد أن خرج الجميع من الغرفة، حاولت حنين الابتعاد عنه، فجذبها إليه مرة أخرى، لم تحاول النظر إليه خجلًا مما حدث أمام الجميع، فوضع يده أسفل وجهها محركًا رأسها تجاهه ليجبرها على النظر إليه قائلًا بعتاب: ما زلتِ تشكين أني متزوج.

لم ترد فرفع ذقنها بأنامله وقال: وصلت بكِ الغيرة ألا تعرفي رهف؟!

تحدثت أخيرًا وسط نشيجها المتقطع: بمجرد أن رأيت أمامي فتاة، وقبل أن تتحدث، كل الأفكار السلبية مرت في خيالي.

_ أتعلمين ماذا يمكن أن أفعل بكِ إذا تكرر هذا الأمر؟

قالت بطفولية محاولة الدفاع عن نفسها بأي شيء: أنت تعلم أنها تعمدت استفزازي.

_ هذه المرة أنتِ من فعلتِ هذا بنفسكِ.

قالت ببساطة: يحيى، اجعلها تعود لوالدها.

رد بصدمة: هل أنتِ حقًا لا تحبين وجودها؟

قالت ببراءة: نعم، هي تعاملك بأريحية دون أي اعتبارات.

دُهش قائلًا: ما زلتِ لا تقتنعين أنها أختي!

_ أنت لا تعرف ماذا كانت تفعل.

قال بتساؤل رافعًا حاجبيه: ماذا كانت تفعل؟!

_ كانت تتعمد احتضانك وتقبيلك أمامي لتغيظني.

ضحك وحرك راسه بـ "لا فائدة" فهو يعرف تصرفاتهما الطفولية منذ صغرهما، فقالت: كانت تفعل ما لم أستطع فعله! كنت أنا الوحيدة الممنوعة من الاقتراب منك، وأنت أول من منعني.

قال بابتسامة: ولنفترض ذلك، ماذا يضايقك منها الآن؟ لقد تزوجنا، ويمكنكِ تقبيلي كما تريدين.

لم يقاوم خجلها، فقال: أبعد كل هذه الغيرة تقاومين؟

لم تنطق بكلمة؛ فهي تعلم مدى ضعفها أمامه، فقال: حنين، هل ما زالت الطبيبة تحذركِ؟

قالت بخجل: هي لم تقل ممنوع.

قال بشك: أفهم من ذلك أنه مسموح؟

خبأت نفسها بين ذراعيه وهي تحرك رأسها إيجابًا، فقال بشك: ولكن ما قولتيه كان غير ذلك!

قالت بتردد: إنها والدتك أخبرتني أن أفعل ذلك.

اقترب من أذنها ليقول بهمس: أعلم أنها إرشادات أمي؛ لذا لي حق عندكِ ولا بد من أخذه، حنين.

وتركت له حرية الانتقام.

....

نزل العريسان، ليجدا باسمًا ما زال موجودًا يجلس بأريحية على الأريكة، فقال معاذ: هل ستظل هنا؟ أم أن هناك مشهدًا ينقصك؟

رد بابتسامة: أريد أن أعرف من هي؟

رد معاذ بنفاد صبر: ليست زوجته، أأشبعت فضولك؟ انصرف هيا.

قال وكأنه لم يسمعه: أعلم أنها ليست زوجته، من تكون بالضبط؟

جذب يده باتجاه الباب يخرجه وهو يقول: إنها ابنة خالة سلمى ويحيى، ارتحت هكذا؟ هيا اذهب من هنا، لا داعي لوجودك الآن.

_ فقط اسمها وسأذهب فورًا.

قالت سلمى بنفاد صبر: رهف يا باسم، اسمها رهف، هل ارتحت؟

رد بسعادة: أنا قلت إن نصيبي في هذا البيت المبارك.

فتح معاذ الباب وخرج وهو يجذب باسمًا في يده، وخلفهما سلمى التي أغلقت الباب، وقال: لا وقت لهذه السخافات.

عدل باسم ملابسه وهو يقول: عندك حق، سأختار الوقت المناسب، أنا أحبكم معاذ، وأحب وجودي معكم، صدقني، لا بد أن أكون عضو في هذه العائلة الجميلة.

لم يرد عليه، واتجه إلى سيارته يفتحها ويشير لها بالركوب، جلست بخجل؛ فلقد شعرت بالتوتر بمجرد وجودها بمفردها معه في السيارة، فبدأ هو الكلام قائلًا: ماذا يعني أنها غيركِ وغير رحمة؟

ضغطت على شفتيها مدركة خطأها، وقالت: لم أقصد جرح أحد، لكن هذه هي الحقيقة.

_ ما هي الحقيقة؟

قالت محاولة التبرير: حنين هشة، حياتها متوقفة على يحيى، كانت في صغرها تعتبره أباها، ترى الحياة من منظور واحد، يحيى فقط.

لتصمت قليلًا قبل أن تكمل: أتتخيل أنت وأخي أني لم أفهم ماذا بها.

حاول خطف النظرات لها وهو يقول: ما سبب استنتاج أن هناك شيئًا؟!

_ لست طبيبة ولكني تربيت معها في بيت واحد، أحفظ تصرفاتها، حركاتها، ردود أفعالها، حنين منذ زواجها بيحيى ليست طبيعية.

_ وبما أنكِ استنتجتِ أن بها شيء، فلماذا لم تعلقي على الأمر؟

_ لأني أعلم أن كونها عادت إلى يحي سيجعلها أفضل، أتوقع أنها تذهب للطبيب، أليس كذلك؟

أوقف السيارة جانبًا، وأخذ ينظر لها بتمعن، بدأت تتوتر من نظراته الجريئة لها لأول مرة؛ فقد سمح لنفسه بالتجول في تفاصيلها، وقال: ولماذا هي مختلفة عنكِ وعن رحمة؟ ما الداعي للمقارنة؟

قالت بارتباك: أنا ورحمة، وجودنا في حياة بعضنا البعض جاء تدريجيًّا مقنعًا لكلتينا، أما هي فلا يقنع عقلها إلا تملك يحي بمفردها، إنها تغار مني ومن رهف منذ طفولتها، فماذا لو هناك أخرى ليست أخته؟!

ظل ينظر لها بتمعن أربكها، وقال: وأنتِ كيف تنظرين لتملكِ لي؟

بتلعت ريقها وهي تحاول الهروب من نظراته المتفحصة، وقالت: قُد السيارة، معاذ، أسئلتك صعبة.

اعتدل في مكانه وضحك قائلًا: عندي الكثير من الأسئلة الأصعب صغيرتي، ولكن أشفق عليكِ منها.

بعد فترة أوقف السيارة تحت إحدى البنايات، وغادر منها ليتجه لها، ويأخذ يدها ليساعدها على الخروج من السيارة بفستانها، فلاحظ ارتباكها وارتجاف يدها بين يديه.

_ ألن نذهب لتناول العشاء؟

_ أجل، سأريكِ شيئًا أولًا، وبعدها نتناول العشاء.

جذب يدها التي أمسكها ولم يتركها مرة أخرى، مما أربكها وزاد من ضربات قلبها التي جزم بأنه يسمعها جيدًا، ليصعد بها إلى إحدى الشقق في الأدوار العلوية، ركبا المصعد ولم يحاول الحديث، أدخلها أولًا، ثم دخل وأغلق الباب، ولكنه لاحظ توترها الزائد وهي تنظر حولها بعدم فهم، فقال لها بجدية مصطنعة: خطفتكِ ما رأيكِ؟

الفصل الثامن عشر

حاول معاذ إظهار الجدية في كلامه، ليتفاجأ بها تقول: أجئت تخطفني بعدما تزوجنا؟! كنت أمامك طوال السنوات الماضية.

ضحك بشدة وأمام هذه الضحكة ذاب قلبها وهي لا تصدق أنه يتعامل معها بهذه الأريحية، هل هذا معاذ الجاد الذي يضحك لها بحساب ويتكلم معها بحساب؟! قطع أفكارها واقترب منها على مهل قائلًا: ما رأيكِ؟ إنها شقتنا.

ردت بدهشة: شقتنا؟! كيف؟

_ اشتريتها لزواجنا، وسوف تفرشينها كما تريدين أيضًا.

دارت حول نفسها، وقالت: كيف حصلت عليها بهذه السرعة؟

_ بالتأكيد ساعدني يحيي في اختيارها.

اقترب منها لتعود بظهرها للخلف بارتباك، خلع نظارته ووضعها في جيب سترته، ليقترب أكثر، فشعرت بأنفاسه على وجهها الذي بالكاد يصل إلى صدره لتقول بتوتر: ابتعد قليلًا، ماذا حدث لك؟! كنت عاقلًا!

_ وهل يكون عاقلًا من يرى المانجو وقد أصبحت بين يديه؟!

ابتلعت ريقها بارتباك وقالت: ما حكايتك مع المانجو؟! أنا لا أفهم.

_ لو يوجد مرآة هنا، لجعلتك تقفين أمامها لتفهمي، أو بمعنى أصح لتصدقي رأي رحمة كما صدقت أنا.

قالت بتوتر وعدم فهم: وما هو رأي رحمة؟!

قال وقد استند بيديه على الحائط ليحاوطها: أنكِ كحبة المانجو الشهية، تدعو من أمامها لالتهامها.

أبعدته بيدها لتفك حصاره عنها، وقد استوعبت أنه فقد صوابه ولم يعد كما عهدته، وقالت بجدية: هيا لنذهب لتناول العشاء.

_ طلبت الطعام، سيأتي هنا.

_ أين سنأكل؟! لا يوجد شيء في الشقة!

اتجه ناحية باب الشرفة وفتحه على مصراعيه، أحضر سجادًا موضوعًا جانبًا، وفرشه على أرض الشرفة والتي كانت تتمتع بسور مفرغ أعطى المشهد روعة وانطلاق، وقال: أليس هنا أفضل من أن نجلس بين عيون المتلصصين في المطاعم؟

ابتسمت بخجل تحرك رأسها بالإيجاب، فقال: هيا شاهدي الشقة حتى يصل الطعام.

ظلت تتنقل من مكان لآخر بسعادة، وما أدهشه أنه رآها فعلًا خفيفة كالفراشة، لم تتخلَّ عن طفولتها رغم كل ما بها من أنوثة، ليدق أخيرًا جرس الباب؛ فتركها وذهب لفتحه، ودخل بعدها بالطعام، وضعه على الأرض، وبدأ في فتح الأكياس بعد أن خلع سترته ورابطة عنقه ووضعهما جواره، نظر لها فوجدها ما زالت واقفة كما هي مرتبكة.

_ اجلسي هل ستشاهدينني وأنا آكل فقط؟!

ابتسمت ببراءة وقالت: إذًا أنت من طلب ذلك.

فكت الشريط الذي يحمل ذيل الفستان، مؤكد لم تكن تستطيع الجلوس به، وتفاجأ بعدها أنها رفعت الفستان قليلًا عن قدميها نظرًا لضيقه وجلست بكل براءة، بلع ريقه قائلًا: ما هذا الذي تفعلينه؟

ردت بابتسامة: لا حل للجلوس على الأرض إلا ذلك.

أبعد نظره عنها وقال: إذًا أيتها الشقية لا تلعبي بالنار حتى لا تحرقك.

لم يتصور أن كلماته البسيطة ستُخجلها هكذا وتجعل وجهها كحبة الكرز، حاولت الوقوف بصعوبة وقد امتلأت عيناها بالدموع، جذب يدها قائلًا: اجلسي، سلمى أنا زوجكِ، لا داعي لهذا الحرج، لم أتخيل أن تخجلي بهذا الشكل، هكذا لم تعودي مانجو، أصبحتِ فراولة!

جلست بخجل، فقال بمشاكسة: هكذا أصبحت كوكتيل فواكه، سلمى.

ظلت صامتة لا تتحرك ولا تحاول النظر إليه ليقول لها بعد فترة طويلة وهو يأكل: سألتهم الطعام كله وأنتِ ما زلتِ في خجلكِ.

أنهى طعامه ورجع للخلف، يستند إلى الحائط، وظل يتأملها وهي تأكل، الطعام يدخل فمها بخجل، تأكل كالأطفال بأنوثة مربكة، وبغير إرادته قارن بينها وبين أميرته التي تأكل وكأنها جالسة على العرش، ليخبر نفسه أنه لابد أن يفصل ولا يفكر في الأخرى حتى لا يجن.

أنهت طعامها ليجدها تمشي على ركبتيها كالأطفال حتى وصلت إليه، وأسندت ظهرها بجواره إلى الحائط، فقال: لماذا وافقتِ على هذا الوضع؟ من حقكِ أن يكون زوجكِ لكِ وحدكِ.

ابتسمت وأجابته بصراحة أدهشته: لأني لم أستطع تقبل رجل غيرك.

وبقدر صدمته من كلامها كانت سعادته؛ فهذه الفتاة التي حلمت به طوال عمرها أصبحت الآن زوجته، وقال: صغيرة على هذا الوضع.

_ كبير أنت في عيني، فلا أرى غيرك.

_ أخاف أن أظلمكِ، أنتِ لا تستحقين هذا؛ فرحمة في قلبي مميزة.

_ أعلم أنها مميزة لديك، أعلم قدر حبك لها، ولكن اقتنعت برأيها الذي جاء لي وكأنني كنت أنتظره.

_ وبماذا أقنعتْكِ؟

_ تعلم جيدًا أني لن آخذ في يدها الكثير لإقناعي.

_ منذ رأيتك اليوم تنزلين السلم أمامي، وأنا أسأل نفسي: هل يستطيع القلب أن يحب اثنتين؟!

ابتسمت أمام اعترافه الضمني، فردت عليه ببساطة: القلب يستطيع أن يحب لما لا نهاية، ولكن لكل شخص مكانة، وأنا أحاول أن أجد لي مكانًا بقلبك.

_ وهل تعتقدين أنكِ ليس لكِ مكان به.

صمتت، وكاد يسمع دقات قلبها أمام نظراتها له غير المصدقة، فقال: أجل سلمى، مكانتكِ في قلبي منذ زمن، دائمًا كنت أسأل نفسي ماذا سأفعل يوم زفافكِ على أحدهم؟ كيف سأشعر؟ لكني لم أعتد الخيانة، هي لا تستحق مني ذلك، لا يمكن لشخص عاقل أن يخونها.

_ اتفقت معها ألا تذكر إحدانا الأخرى، معها حق ليرتاح كل منا.

_ هذا الحل لكما وليس لي.

ابتسمت بتلاعب وقالت: أخبرك سرًّا؟ هي قالت لي إنك تستطيع، وأنا أثق في كلامها، تعرفك جيدًا وتعرف قدراتك أكثر مني، قالت إنك ستجعلني أشعر ألا يوجد سواي بحياتك.

_ رحمة أصبحت كأمي التي تحفظني.

أكمل كلامه قائلًا: وأنتِ طفلتي الشقية، ستكونين ابنتي، ما رأيكِ؟

تفاجأ بها تضحك بشدة، فقال: ماذا قلت لتضحكي هكذا؟

فقالت وما زالت تضحك: أخشى أن أخبرك أنها قالت هذا فيصيبك الجنون، لقد دخلَت عقلك وتلاعبَت بمفاتيحه.

أمسك رأسه بحرج وقال: أعلم أنها كارثة.

اقترب منها فحاولت إبعاده، فقال: أصبحت أثق في كلامها أكثر الآن.

_ كيف؟

اقترب منها أكثر قائلًا: إنكِ بنكهة المانجو.

....

أخذت كريمة رهف بين ذراعيها وجلست بها على الفراش وهي تقول: حبيبتي، ستنامين معي اليوم، وغدًا تذهبين إلى غرفتكِ، كيف حالكِ وحال أبيكِ وزوجته وأخويكِ؟

_ حياتهم تسير بطبيعية، أنا فقط حياتي لا تريد الاستقرار.

_ لماذا تقولين ذلك؟ أنتِ أفضل حالًا من الكثير.

_ أشعر بأني غير مرغوب بي في أي منزل.

قالت بضيق: هل هذا كلام يصح أن تقوليه؟!

_ هناك يتعاملون معي كضيفة، كلما سافرت لهم لا أشعر بالراحة، حتى أخوي يتعاملان معي بحدود، هما لا يعاملونني معاملة سيئة، أبي لا يبخل عليَّ بشيء، حتى زوجته، لكني لا أشعر أنه بيتي.

_ لأن هنا بيتكِ، وأنا لست أخت أمكِ فقط، أنا أمك التي أرضعتك، تربَّيتِ بين أحضاني بجوار سلمى، تشاركينها حبي كأنكما توأم، ويعلم الله أنه لولا حق أبيكِ فيكِ ما كنت وافقت على سفركِ للعيش معه أبدًا، ولأن فرصتكِ في التعليم هناك أفضل من هنا.

_ لم يرحب بي أحد، كنت أجري في المطار حتى أصل قبل عقد القران، أردت أن أفاجئ الجميع، يكفي زواج حنين ويحي دون حضوري.

ضحكت كريمة بأسى وهي تخبرها: لا تكوني حساسة هكذا، الأمر خلاف ما تفهمين، أنا نفسي لم أحضر زفافهما.

اعتدلت بمفاجأة وقالت: كيف ذلك؟!

_ لقد عقد قرانهما عند أبيها، وجاء بها بعدها إلى هنا.

_ كيف وافق عمي سليم على زواجهما؟!

_ المهم تعاملي معها بحرص؛ لقد مرت بظروف صعبة، وأنتِ تشتكين عدم الاستقرار وأبوكِ يضعكِ في عينيه وينفذ كل طلباتكِ.

احتضنت خالتها وقالت بخجل: أعدكِ ألا أحاول استفزازها مرة أخرى.

....

أخذ معاذ بيدها لتقف بهذا الفستان الذي قرر أن يكون ارتداؤها مثله للمرة الأولى والأخيرة، دخل الاثنان من الشرفة ليستعدا للمغادرة، ارتدى سترته وبدأت تعدل من وضع فستانها وذيله، وقفت مترددة وكأنها تريد قول شيء، فقال: ماذا تريدين أن تقولي؟

ردت بتردد: ألم تقل لي إنك ستخبرني لماذا اخترت هذا الفستان؟

_ أجل، وبعدها تخبرينني سبب موافقتكِ على الزواج بي.

_ إذًا هيا أخبرني.

_ أفهم من ذلك أنكِ موافقة أن تخبريني بعدها.

ترددت قائلة: نعم.

اقترب منها ليقف قبالتها وقال: لأنه بلون المانجو، شعرت أنه يشبهكِ، صُمم من أجل تفاصيل جسدكِ.

أبعدت عينيها عنه بخجل، فرجع خطوتين للوراء، وقال: تبقى إجابتك، ما السبب الذي جعلكِ توافقين بهذه السهولة على الزواج؟!

قالت وهي تنظر بعيدًا عنه: هناك سببان، أحدهما قديم والآخر جديد.

_ إذًا أخبريني ما الجديد أولًا.

_ فنجان القهوة الذي سُكب على الطاولة.

نظر لها بعدم فهم يحثها أن تكمل، فقالت: عندما تحركت بسرعة لتضع يدك حتى لا تسقط القهوة عليَّ، ولم يهمك أن تحرق يدك، عندها تأكدت أني معك سأكون في أمان، ستفكر بي قبل أن تفكر بنفسك.

لمعت عيناه مفاجأة من ملاحظتها التي هي رغم بساطتها تحمل الكثير وقال: والسبب القديم هل هو بروعة الجديد؟

أخذت نفسًا عميقًا لتُخرجه بهدوء، تعطي نفسها فرصة للاسترخاء قبل الرد، وقالت: كان كل حلمي شيئًا واحدًا بسيطًا أعلم أن تحقيقه مستحيل، وجاء أحدهم يخبرني أنه يمكن تحقيقه، حتى لو فشل هذا الزواج؛ لا بد أن أوافق قبل ضياع الفرصة.

قال بدهشة يحاول التوقع: ما هذا الشيء؟

زاد ارتباكها وحاولت التحدث بتردد؛ تخشى أن ينتهي اليوم لتعود كما كانت ولم تحقق حلمها الصغير، وربما ينتهي الزواج؛ فقالت: دائمًا كنت أتمنى... أن أعرف ماذا سأشعر بين أحضانك.

أنهت كلامها وتحركت في اتجاه الباب، استوعب الأمر سريعًا، وجذبها ليديرها إليه، رفع رأسها ليتفاجأ بالدموع تنهمر من عينيها، ضمها بين

ذراعيه وقد لامه قلبه على عدم إحساسه بها، أوجعه ضميره على ما فعله معها من قبل دون رحمة، وقال: أُخبركِ سرًّا؟ بيني وبينكِ فقط.

حركت رأسها دون النظر إليه، فأكمل وهو يضمها إليه يحقق حلمها وقد غاصت بين ذراعيه مع فارق الطول والحجم: تمنيت كثيرًا عندما كنتُ أراكِ أن أضمكِ بين ذراعيَّ لأخفيكِ من الدينا، أحميكِ حتى من نفسي وكأنكِ ابنتي.

حاولت الابتعاد؛ فلم يعطِها الفرصة، ليكمل: لا أقول ذلك لأرضيكِ، دائمًا كان بداخلي شعور أنكِ مختلفة بالنسبة لي سلمى.

بعد فترة أوقف السيارة أمام المنزل، وقبل أن تنزل جذب يدها ليميل مقبلًا كفها كما لم تعرف من قبل، فتح الباب وخرج يأخذ نفسًا عميقًا يحاول به العودة إلى نفسه التي تبعثرت بين اثنتين ولا يعرف كيف يلملمها بعد ذلك، دار ليفتح لها الباب يساعدها على الخروج، ودون كلام جذب يدها لتخرج معه، قبل جبهتها وانصرف.

الفصل التاسع عشر

هناك حكمة ربانية أن تصبح الغيرة في الرجال نخوة وشرف، أما النساء فدائمًا هي حب وجنون وأحيانًا ضعف، الغيرة حب، تزيد كلما زاد، هيجان يحدث في القلب بلا سابق إنزار، ليس لها علاقة بثقة أو شدة حب، إنها مرض القلوب، شخصًا واحدًا هو الذي بيده العلاج، فماذا لو كان هذا الشخص طبيبًا للقلوب؟

عاد معاذ وبداخله ألف تناقض، ليدخل غرفتها سريعًا، وجدها كما تركها ممددة على الفراش، جلس بجوارها بضع دقائق يطمئن عليها، ثم قام ليبدل ثيابه يتحرك بآلية، وعاد ليجلس جوارها مرة أخرى يتأملها، يحدثها وكأنها تسمعه: ما كل هذا الحب رحمة؟ كيف تفعلين بنفسكِ هكذا؟! أهي ثقة في حبي لكِ أم في نفسكِ؟ لم أستطع أن أفصل بينكما وأنساكِ وأنا معها، كنت كالتلميذ الذي ينفذ تعليماتك، كنت كالمملوك الذي يفعل ما تقوله له أميرته خوفًا من غضبها، ستظلين ملكة على عرش قلبي رحمة.

تمدد جوارها وضمها إلى صدره ليسألها دون انتظار إجابة: ماذا أفعل أنا الآن في هذا التخبط؟ بالله عليكِ دليني، أليست فكرتكِ؟

اقترب بأنفاسه منها، يستنشق عبيرها لينسى رائحة الأخرى، احتضنها بشدة يقبلها وكأنه لم يرَها منذ زمن، يخشى بُعدها، يخشى أن يفقد تلك المشاعر

يومًا، وضع رأسه على الوسادة وما زال يحتضنها وقال مبتسمًا: هكذا تم حذف الملفات وكل البيانات الأخرى.

في الصباح شعر بها وقد استيقظت ولكنه لم يفتح عينيه، تركها تستوعب ما حدث، جلست تمسك رأسها، دقائق واقتربت منه ليشعر بأنفاسها تحاول شم رائحته، تثبت أنها حواء مهما كان بها من قوة فبداخلها هذه الأنثى الغيورة التي دائما تبحث عن دليل الإدانة، ودون أن يفتح عينيه قال: لا تقلقي تم حذف الملفات بمجرد وصولي.

لم تستوعب ما يقوله، فقالت: أكانت حقنة تخدير أم للتأثير على عقلي؟

اعتدل يرتفع عنها ودار يأخذها تحت ذراعيه، قائلًا: كما سمعتِ، حذفت الملفات بمجرد أن رأيتكِ هكذا.

ومال على شفتيها ليفعل ما فعله وهي نائمة، اعتدل وأخذها بين ذراعيه قائلًا: هذا ما تم وأنتِ نائمة.

_ تقصد مُخدرة، أهُنت عليك؟!

_ لأنكِ لم تهوني عليَّ فعلتها، وها أنتِ استيقظتِ بين أحضاني.

_ هل هناك مخدر مفعوله أطول من يوم؟

قالتها ببساطة، ليشعر بارتجاف قلبه؛ فأخذ يضمها أكثر ليخبئ هو رأسه في عنقها، عجز لسانه عن الرد؛ فهو نفسه لا يعرف ماذا سيفعل حينها، نظرت له ببساطة وكأنها تتحدث عن موضوع عابر، وقالت: هيا، احكي لي كيف كان اليوم.

لم يستطع الرد عليها مجددًا، جذبت يده لتنظر بها، فلم تجد إلا محبس زواجها فقط، فقالت: هل خلعت الخاتم وأنت تحذف الملفات؟

_ أي خاتم؟!

_ ألم تلبس الفتاة خاتم زواج؟!

وضع كفه على جبهته بمفاجأة قائلًا: لم يأتِ بعقلي ذلك.

_ أليس من حقها أن تلبسها خاتمًا؟!

نظر لها بشكر وامتنان، فقالت بابتسامة: ليس معنى أنها أصبحت ضرتي ألا أنبهك لحقها، لم أدخلك هذا الطريق لتحمل وزر ظلمها وتدخل أنت النار حبيبي، أريدك معي بالجنة.

أمسك يدها يقبلها، فقالت: إنها فتاة مقبلة على الحياة، ليس لها ذنب في دخول لعبة نحن من جذبناها إليها.

بعد فترة، استعدا للمغادرة، وبمجرد خروجه من المنزل اتجه إلى أحد محال المجوهرات ليشتري خاتم زواج للعروس، وأحد الأطقم المميزة لتكون شبكتها، لم يشترِ لنفسه واحدًا، فقد عز عليه فعل ذلك ليزاحم خاتم رحمة، ولكنه اشترى خاتم به حجر من الياقوت البرتقالي!

ثم أرسل رسالة نصية إلى سلمى كتب بها "صباح الخير عروستي" واتجه إلى عمله، وقد بدأ قلبه يحارب على جبهتين في آن واحد!

....

لم يصدق نفسه عندما استيقظ صباحًا ووجدها ما زالت بين أحضانه لم يصبها الكوابيس ولا الأرق، طبع قبلة على وجنتها، دخل دورة المياه، ثم ارتدى ملابسه وغادر ليذهب إلى غرفة سلمى؛ فهو لم يرَها عندما عادت من عشاء معاذ، وجدها مستغرقة في النوم، قبل جبهتها وخرج.

تعثر بها وهو يهبط السلم تجلس على درجاته، وما إن رأته حتى وقفت تحتضنه: رهف، كفاكِ مشاكسة، يكفي ما حدث بالأمس.

_ يحيى، أنا افتقدتك؛ إنها سبعة أشهر، لمَ تعاملني بهذا الجفاء؟

شعر أنها جادة؛ فأخذها بين ذراعه يسير بها للخارج قائلًا: تعلمين كم أحبك ولكنكِ دائمًا تتعمدين استفزاز حنين.

_ أتعلم يحيى؟ إنها غبية.

قالتها وهي تضحك وما زالت تسير معه، فقال بجدية: أيمكن أن أعرف لماذا تنظرين لها هذه النظرة؟

وقفت أمامه تمنعه من السير، وقالت: إن لم يكن لي حق التعامل معك بهذا الشكل كما أفعل طوال عمري لكنت سأصبح منافسة لها بجدارة.

ضحك بشدة وجذب وجنتها قائلًا: أتندمين أنكِ أختي، أيتها الفتاة؟

قالت وهي تضحك: دائمًا رأيي فيك في محله، متعجرف مغرور، هي لم تستوعب أبدًا منذ صغرنا أن ما تغار منه في معاملتنا معك هو ما جعلها مميزة وتنام في غرفتك الآن.

مط شفتيه قائلًا: أتصدقين أول مرة أقتنع بكلامكِ، كنت أشك أنكِ تستطيعين التفكير كشخص بالغ، مبارك رهف لقد كبرتِ.

سار متجهًا لسيارته، لتجري خلفه قائلة: انتظر ما زلت أتحدث.

_ رهف، إنه وقت عملي، نتحدث كما تشائين عندما أعود.

وقفت أمام سيارته تشعر بالإحباط وهي تقول: هل كل من حضر الحفل بالأمس أصدقاؤك؟

انتبه قبل أن يغلق باب السيارة، فقال: بالتأكيد، من تقصدين بالضبط؟

انصرفت مسرعة وهي تقول: أبدًا، لم أقصد أحدًا.

....

اتصل معاذ بيحي وبمجرد أن فتح الأخير الخط، قال:

_ أهلًا، نسيبي العزيز.

_ جديدة هذه الكلمة، صديقي.

_ أصبحت قدري إلى الأبد، تحاوطني من كل اتجاه.

_ حتى من دون نسب، أنا قدرك وأنت قدري.

_ أخبرني ما عندك.

_ دائمًا تفهمني، صراحة نسيت شيئًا مهمًّا، ولا أعرف ماذا أفعل.

_ خاتم الزواج يا أحمق.

_ إذًا كان الأمر واضحًا، لماذا لم تنبهني؟!

_ انشغلت بجنين، واعتقدت أنك ستعطيه لها على العشاء، ولكن لم أرَ شيئًا بيدها صباحًا، فعرفت حماقتك.

_ يحيى، أنا لم أحضره من الأساس إلا اليوم.

_ بالله عليك كيف تخبرني ذلك؟! أنا أخوها أيها الأحمق!

_ لأنك صديقي وأخي ورفيق دربي، ليس لي سواك أسأله.

أخذ نفسًا عميقًا ليرد بهدوء: وكيف اكتشفت فجأة؟

_ أنا... لم أكتشف؛ إنها.... رحمة، عندما لم تجد آخر بيدي.

_ والله لو والدتك لما فعلت معك ذلك، وما المطلوب مني؟

_ أريد الذهاب لها اليوم لأعطيها هديتها.

_ إنه بيتك، بالإضافة أنها أصبحت زوجتك.

_ شكرًا، يحيى، أدامك الله لي خير رفيق.

أغلق الهاتف ولم ينتظر الرد مؤكدًا لنفسه أنه سيعاني لبعض الوقت فترة تخبط حتى يعود إلى اتزانه مرة أخرى.

وبعد عدة ساعات في منزل العائلة، وبمجرد عِلم سلمى بوجود معاذ، انطلقت تجري على السلم بملابسها المنزلية التي لم يرَها بها منذ كانت طفلة، ابتسم وهي تتجه نحوه لتقف أمامه مرتبكة، فأدرك أنها كانت سترمي نفسها بين ذراعيه، مال مقبلًا جبهتها وقال: كيف حال عروستي الجميلة؟ توردت وجنتيها وهرب منها الرد، فقال: ماذا قلت أنا يستدعي الخجل؟ ألم يخبركِ أحد من قبل أنكِ جميلة؟!

_ كلا، لم يقل أحد لي إني عروسته.

_ إذًا سأقولها كثيرًا؛ حتى أرى كل مرة هاتين الغمازتين.

عضت شفتيها بحركة لا إرادية وهي تشعر أنه يتعمد إخجالها، فوجدته يكمل هامسًا: أتعلمين؟ لولا أننا هنا لكنت جعلتكِ ترحمين شفتيكِ من هذه المعاناة.

جلست وقد خشيت أن تفضحها قدماها، ولم تحاول الرد؛ فجلس جوارها وأخرج من جيبه علبة مخمل الزواج، وجذب يدها اليسرى ليلبسها الخاتم، لمعت عيناها فرحة وهي تنظر للخاتم في يدها، فقال: آسف؛ ارتبكت بالأمس ولم أتذكر.

قالت وهي تنظر ليدها بسعادة: لم يكن معك من الأساس.

ضحكت عندما رأت صدمته، ليقول بشك: ومن قال لكِ ذلك؟

ردت ببساطة: أبدًا، لقد خلعت سترتك وألقيتها بعيدًا، ولو كان بها شيء لكنت تذكرته حينها.

قال بدهشة: وهل هذا سبب مقنع؟

_ وهناك سبب آخر أكد لي ذلك.

_ ما هو يا سيادة المحقق؟

_ عندما حضنتني، لم يكن هناك شيء في جيوبك سوى النظارة.

فقال بصدمة وقد رجع بظهره على الأريكة: يا الله! أيعقل ما أنا فيه؟! ما هذا الذي فعلته بنفسي؟! كيف تفكرن؟!

ضحكت بشدة وقالت: اهدأ، دكتور، ما بك هذا أبسط ما عندنا.

_ أعلم، إن كيدكن عظيم.

أخذ بعدها نفسًا عميقًا، وأخرج من جيبه علبة بها طقم ذهبي لإحدى الماركات المعروفة، وألبسها إياه، وهي ما زالت لا يشغلها إلا خاتمها، فقال: هل أحضرت لكِ كل هذا لتظلي تنظرين للخاتم؟!

_ لأنه لم يكن في أحلامي سوى خاتمك.

حاول عدم اظهار تأثره، وقال: هل أُخرج مِن جيبي ما بدأت أشك أنكِ تعرفين ما به منذ دخلت من الباب؟

ضحكت قائلة: لا... لا، ليس لهذه الدرجة، إنها مجرد توقعات.

قالت بتوتر: إذا هل أحلامك يوجد بها خاتم زواج خاص بي؟

_ أعلم أنك ترتدي واحدًا، وكنت أنوي أن أخبرك أنه لا داعي لآخر؛ هو دليل على زواجك، وأنت ترتدي واحدًا بالفعل، لا داعي للفت النظر، بالإضافة أنه سيجعل رحمة حديثًا للناس لأنك تزوجت عليها بأخرى.

قال بارتياح: أتعلمين أني أشكر الله عليكِ؟

ابتسمت ولم تُجبه، فأخرج من جيبه خاتمه ذا الحجر البرتقالي المموج، ابتسمت بمكر وأخذته من يده وألبسته له في يده اليمنى، فقال: ألم ألبسكِ الخاتم في اليسرى؟!

ابتسمت قائلة: لأن يسراك بها واحد، وأنا ورحمة قررنا ألا نجتمع.

الفصل العشرون

كل منا يسكن بداخله شخص يريد أن يخفيه عن العالم ليكون في أمان، ربما يربطنا به صلة الدم وربما لا، ولكنه بأعماقنا كدماء تنشر في الجسد الحياة، كيان غير ملموس بداخلنا يشارك روحنا الوجود، بل إنه نبض يدل على أنه ما زال بنا حياة.

عاد معاذ إلى منزله، اتجه لرحمة وجذبها بين ذراعيه ليحتضنها بشدة، فقالت بدهشة: لماذا كلما احتضنتني تفعلها بقوة؟

_ أشعر أني أريد أن أُدخلكِ بين أحشائي، كان لا بد أن تكوني جزءًا ما بداخلي، أنتِ كالشريان التاجي يمد قلبي بالدماء رحمة، سأصاب بسكتة قلبية إن توقف هذا الشريان عن دفع الدماء لقلبي.

زادت هي من احتضانه، ولم تنسَ أن تنظر للخاتم بيده، ابتسمت بسعادة رغم أنها حاولت عدم إظهار اهتمام بهذا الأمر.

....

أوقف يحيي سيارته أمام المنزل بعد عودته من العمل، فوجدها تسير ذهابًا وإيابًا، فقال: هل ما زلتِ هنا منذ تركتكِ صباحًا؟!

اتجهت رهف لكرسي الحديقة والتقطت من عليه باقة زهور وأعطتها له؛ فقال: ما هذا؟ أقررتِ حرق دم حنين لهذه الدرجة؟

_ ولماذا أحضر لك زهورًا؟! يكفيك زهور زوجتك المجنونة.

جذبها بين ذراعه كما هو معتاد وقال: أولًا أحذرك أن تقولي عنها مجنونة مرة أخرى، ثانيًا من أرسلها لك يا شقية؟

ناولته الكارت المرسل مع الزهور، ليقرأ ما به (لمن زلزلت المنزل بالأمس واهتز لجمال روحها كياني؛ إني عشقتكِ واتخذت قراري).

ابتسم لمعرفته المرسل، وقرر مشاكستها قليلًا قائلًا: من أخبركِ أنكِ المقصودة؟! لا يوجد أي دليل.

دارت بعينيها يمينًا ويسارًا، ورفعت حاجبًا قائلًا: وهل هناك غيري زلزل المنزل بالأمس؟

_ نعم، هناك سلمى العروس، وهناك حنين.

_ ينقص أن تقول هناك خالتي.

_ مثلًا، فعلًا، كلهن يصلحن.

ردت بغضب: هل سيرسل معاذ زهورًا إلى سلمى وقد كان هنا بالفعل وأعطاها هديتها وقبل جبهتها؟! وهل سيجرؤ أحدهم أن يرسل إلى زوجتك زهورًا وهي بين أحضانك؟! لا تحاول اللعب بأعصابي، أنت تعرف من هو.

_ انتظري، ما هذا الذي تتفوهين به؟ ماذا يحدث ببنات هذه العائلة؟!

لتضحك قائلة ببراءة: وماذا قلت؟! أتعطي نفسك الحق وتسلبه غيرك؟!

أعطته ظهرها لتضحك، فقال وهو يديرها له بنفاد صبر: حق ماذا يا مقصوفة الرقبة؟

_ ألم ترَ نفسك بالأمس وأنت تحتضن حنين ولم يهمك وجود العائلة والأصدقاء والجيران؟!

لم يستطع الرد فقط قال: أصبحتِ وقحة، رهف.

مطت شفتيها قائلة: إنه السن، لم أعد صغيرة، أنت فقط ما زلت تتعامل معي على أني طفلة.

_ سن؟!

_ نعم، أيرضيك وضعي؟ كلكم تزوجتم إلا إياي، وأنت مصمم ألا تخبرني من أحبني أخيرًا!

_ هل جن عقلك؟! تتحدثين عن زواج وأنتِ لا تعرفين شيئًا عن هذا الشخص؟! فرضًا أنه متلاعب، أو أحدهم يمزح معكِ!

شبت بقدميها تحاول وضع يدها على كتفه كما يفعل معها، وقالت: الموضوع ليس كذلك، أنا أردت أن أتأكد أنه نفس الشخص الذي تحدث معي بالأمس.

ضحك وهو يبعد يدها عنه ويسير ليدخل المنزل، قائلًا: تحدثتِ معه؟! وتقولينها بثقة! يا الله! أنا لا أستطيع تحمل ذلك السمج في العائلة.

جرت توقفه وقالت: انتظر، أنت تعرفه، قلت سمج، إذًا تعرفه.

_ ماذا تريدين مني الآن؟ أشكره على معاكسة أختي؟!

نظرت له بخجل لتقول بترجٍّ: من هو؟

أخذ نفسًا وقال: باسم، صديقي وزميل جامعة، ممكن أن أذهب الآن؟

حركت رأسها بالموافقة، وابتسمت بعد أن تأكدت أنه نفس الاسم الذي ذكره بالأمس، اتجه إلى غرفة سلمى ليجد والدته معها، مال يقبل رأس والدته وبعدها أخته، وجلس جوارهما قائلًا: ما الأخبار يا عروس؟

مدت سلمى يدها لتريه خاتمها بسعادة، ابتسم وأمسك يدها وهو يقول: مبارك، حبيبتي.

قالت كريمة وهي تعطيه علبة الهدية: هناك هذه ولم تهتم بها.

فتحها يحي وابتسم قائلًا: دائمًا ذوقه مميز، لماذا لم تعجبكِ، سلمى؟!

قالت وهي تشير إلى أصبعها: ومن قال إنها لم تعجبني؟ ما يهمني هذا.

وضعت كريمة يدها على كتف يحي وقد همت بالمغادرة، وقالت: أنتظرك في غرفتي.

بعد خروجها، سأل أخته قائلًا: هل أنتِ سعيدة؟

حركت رأسها بالإيجاب وأبعدت عينيها عنه، فرفع رأسها لتنظر إليه وقال: هل هذه السعادة التي تتمنينها؟ ما زال هناك فرصة، فكري جيدًا.

ردت بهدوء: لماذا تقول ذلك؟!

_ لا أريد أن أشعر يومًا أني فرطت فيكِ بسهولة ورضيت بوضع لا يليق بكِ، أخشى أن أكون رضيت بذلك لأنه صديقي.

_ لكنه كان أيضًا قراري.

_ أنتِ مسؤوليتي، سوف أُسأل عنكِ أمام الله، عديني ألا ترددي أن تلجئي لي مهما كان، إن شعرتِ يومًا بعدم الراحة فسوف تجديني معك في أي قرار.

احتضنته بشدة قائلة: لا حرمني الله منك أبدًا.

وفي هذه اللحظة تفاجأ الاثنان بالباب يفتح وحنين تدخل مندفعة وهي تقول: أين أنتِ سلمى؟!

وقفت أمامهما تضيق عينيها دون كلام، فما كان من يحي إلا أن قال وهو يبتسم: ضُبطنا متلبسين.

أخرجت سلمى لسانها لحنين التي هجمت عليهما قائلة: أنتِ، ماذا تفعلين؟ ابتعدي عنه، ألم تتزوجي بالأمس؟

ظلت سلمى متشبثة بأخيها الذي حاول الفصل بينهما، وأخيرًا استطاع أن يجذب حنين لتجلس بجواره تحت ذراعه الأخرى، ولكن ظلتا تتعاركان وهو بينهما، أغمض عينيه لحظات، رغم ما يحدث كان يشعر براحة غريبة، وفجأة ظهرت من اقتحمت الباب كما حدث من دقائق: أين أنتم؟ أنتظركم بـ...

وقفت ثوانيَ وبعدها نظرت أرضًا بحرج وكادت أن تغادر الغرفة، دُهش يحي من انقلاب حالها وقال بشك: ما بكِ، رهف؟

قالت وهي تستدير: أبدًا، أدركت أني لم يعد لي مكان بينكم.

أسرعت حنين نحوها قبل أن تغادر الغرفة، وجذبتها من يدها تجاههم قائلة: قلب يحي يسعنا جميعًا، جيد أننا ثلاثة ولا يوجد مكان لأخرى.

رجعت لرهف بهجتها وهي تقول: ولكن له ذراعان فقط.

دفعتها حنين لتجلس مكانها، دُهش يحي من الحوار الدائر حوله وما حدث من حنين، قالت رهف بسعادة: شكرًا، لم أتخيل أبدًا أن تفعليها.

قال يحي وقد بدأ يشك في أمرها: ما هذا الموقف البطولي؟!

جلست على رجليه ببساطة قائلة: أبدًا، حاولت أن أجد مكانًا مختلفًا.

بعد وقت ليس بالقصير، ضم الكثير من الأحاديث والذكريات، تركهن برضا وسعادة، وذهب إلى والدته.

....

جلس على الأرض أمام والدته، فابتسمت قائلة: تخيلت أن يكفيك نصف ساعة لتأتي وليس ساعتين.

نصف الساعة لسلمى فقط أمي، ولكن عندما يصبحن هن الثلاثة؛ فأنا هكذا خرجت من بينهن بأعجوبة.

ضحكت قائلة: إذا كان الأمر هكذا، فكان الله في عونك.

صمتت لحظات ثم قالت: ما أخبارك مع زوجتك؟

_ الحمد لله، أحتاج دعواتك فقط وليس مؤامراتك.

ضحكت قائلة: أنت من بدأت التلاعب بالفتاة يا ولد.

قال بجدية: أبدًا أمي، كنت أريد أن تعتاد وجودي معها بشكل مختلف بعد ما مرت به من ظروف، خشيت عليها من تهور مشاعري.

_ أسعدك الله بنيَّ، ورزقك منها الذرية الصالحة.

....

اعتادت رهف استقبال الزهور كل يوم، ولكن ذلك اليوم لم يصلها شيء، فظلت تجوب حديقة البيت بجنون لتحدث نفسها بصوت مرتفع: ماذا حدث يا رهف؟! هل مل من إرسال الزهور؟ مؤكد نسي شكلي، هو لم يرَني إلا مرة واحدة، ما لكِ أنتِ وما للحب؟! لقد اهتممت بكل شيء لكي يحبني أحدهم؛ لون عينيَّ، لون شعري، ملابسي، كل شيء، ماذا أفعل أكثر من ذلك؟!

_ ولا أي شيء، من يحبكِ عليه أن يحبكِ كما أنتِ، رهف بجمالها الطبيعي، خفيفة الظل، المتهورة الحمقاء.

دارت للصوت خلفها لتقول بغيظ: لماذا تستمع ما أقول؟!

ضحك قائلًا: تحدثين نفسكِ بصوت عالٍ.

_ اتركني يحيى من فضلك؛ أنا لست بمزاج معتدل.

_ ما رأيكِ أن أعدل لكِ هذا المزاج؟

ذهب إلى سيارته وأخرج منها باقة ورد تشبه التي تستلمها كل يوم، فقالت له بامتنان: لا داعي للتعاطف، ليس لهذه الدرجة.

ضحك قائلًا: إنها ليست مني.

برقت عيناها قائلة: هل هي منه؟

_ المجنون كان عندي بالشركة اليوم.

_ لماذا لم يرسلها ككل يوم؟!

رد بجدية: ألم يقل لكِ أحد إن هذا البيت به رجل يجب احترامه؟!

بلعت ريقها وقالت بحزن: هل منعته من إرسالها؟

_ نعم، رهف.

ردت بخيبة أمل: إذًا انتهى الأمر.

_ لا بد أن تثقي بنفسكِ، أنتِ جميلة، من يحبكِ لا بد أن يحبكِ كما أنتِ وبكل حالاتك، بعينيكِ السوداوين وشعرك الأسود المجنون هذا، رهف، عيناكِ جميلتان؛ لا داعي لهاتين العدستين.

ابتسمت بمجاملة وكادت أن تغادر فقال: انتظري، خذي زهورك.

أخذتها بيأس، وانصرف، لتتأملها وتحدث نفسها مرة أخرى قائلة: انتهى الحلم.

لاحظت كارت معلق بالزهور، التقطته لتقرأ ما به (قريبًا سأعطيها لكِ بنفسي)، جرت سريعًا داخل المنزل وهي تصرخ: يحيـــى، انتظر.

....

في خضم انشغالنا بحياتنا ومهما توقعنا ردود الأفعال، دائما ما نتفاجأ بما هو خارج عن المألوف بعيد عن تفكيرنا، مهما تخيلنا قدرتنا على تحليل المواقف وفهمها، فنندهش من أبسط التصرفات لمجرد أنها لسيت في حساباتنا، وعبر الاتصال هاتفي:

_ أهلًا رحمة! كيف حالكِ؟

_ بخير سلمى، لا داعي من الاندهاش، أفكر منذ أيام أن أتصل بكِ.

_ لماذا كل هذا؟!

_ كنت أحاول ألا أكون بالصورة، ولكن أردت أن أقول لك شيئًا.

_ أنتِ في الصورة فعلًا من قبلي وهذا الوضع كان باتفاقنا.

_ أريد أن أشكركِ.

_ على ماذا؟!

_ منذ ارتدى معاذ خاتمك، كلما رأيته أشعر بالامتنان تجاهكِ.

_ لماذا؟!

_ كنت أخشى...

صمتت قليلًا، فتحدثت سلمى قائلة: وعدتكِ ألا أقصيكِ من حياته، ولا حتى أن أشاركِ في مكانتكِ عنده، ومع ذلك، الخاتم كان فكرته، ولم يحضر محبس زواج.

شعرت بأنفاسها قد اضطربت، فأكملت: تستحقين حبه رحمة، أنتِ جميلة من الداخل والخارج، تملكين شيئًا بداخله مستحيل أن ينافسك به أحد، وأنا قررت أن أبحث عن مكان آخر ولا أعرف كيف سأجده، ولكني لا اطمع بأكثر من ذلك.

حاولت ألا تُظهر التأثر، فقالت بثبات: كنت أعلم أن الخاتم اختياره.

ضحكت قائلة: صراحة شككت أنه اختيارك أنتِ ولكن لمَ هذه الثقة؟!

قالت قبل أن تغلق الخط: لأنه لون المانجو، سلمى.

....

لو يعلم كل أب قاسٍ لا يعرف غير التقريع والتجريح كم يحمل أولاده من مشاعر متناقضة! لو يدرك أنه يهز ثقتهم بأنفسهم ويدمر شخصياتهم! والأدهى لو فتاة تحتاج إلى الحنان، تنتظر كلمة لطيفة أو ضمة تعطيها الثقة، وتظل رغم القسوة بداخلها ذلك النقاء الذي يجعلها تشتاق لإحساس أن لها أبًا! ألم يُوصِكم النبي يا بني الرجال بالنساء خيرًا؟!

دخل يحيي حجرته ليجد حنين نائمة على غير عادتها في هذا التوقيت، جلس جوارها، وبمجرد أن مال عليها ليقبل جبهتها وجد الدموع تغرق وجهها، رفعها عندما أدرك أنها ليست نائمة وقال: حبيبتي من أزعجها؟ أخبريني وسأنتقم لكِ.

قالت بتردد: أخشى أن تنزعج مني لو أخبرتك.

رفع وجهها إليه، وقال وهو يشير إلى رأسها: أي شيء يفكر فيه هذا، لا بد أن أعرفه، أفهمتِ؟

_ ولكن هناك أمورًا ممكن ألا تتقبلها.

قال يحثها على الحديث: مثل...؟

_ أريد أن أرى... أبي.

ضمها إليه وهو يقول: وهل هذا ما تخشين قوله؟! إنه والدك.... وعمي، أتعتقدين أني سأجعلكِ تقاطعينه؟! إنها مسألة وقت، أريدك أن تنسي كل ما حدث، وأن يأخذ وقته في التفكير جيدًا فيما وصلنا له.

حاولت التحدث بجدية، ودون أن يظهر عليها التوتر: أريد أن أتحدث معه، أواجه لأزيل كل خوف بداخلي، أن أكون أنا المتحكمة في حياتي، أن أقرر خطواتي.

ابتسم بسعادة وهو يشاهدها تتحدث بهذه الثقة والجرأة، وقال: أتعرفين ما هو إحساسي الآن؟ إحساس الأب عندما يرى أخيرًا ابنته استطاعت أن تقف على أول الطريق، إياكِ أن تتراجعي، أريدكِ دائمًا قوية صاحبة قرار، ولكن معي أريدكِ دائمًا هكذا.

_ هكذا كيف؟

_ ضعيفة بين أحضاني، طفلتي التي كبرت بين يديَّ.

....

قالت كريمة بصدمة من حديث عفاف بعد أن اتصلت بها بناءً على طلب يحي: كيف تركتِ المنزل؟! ولماذا لم تخبريني؟!

الفصل الحادي والعشرون

مع زحمة الحياة، وانشغالنا بأمورنا وأحلامنا، يسقط منا أحدهم، أو ربما نتذكره ولا نهتم لذكراه ما دامت حياتنا تسير بانتظام بعيدًا عنه، ولكن سيظل الواجب المفروض على أعناقنا يلزمنا بوضع هؤلاء في الصورة، حتى وإن كانوا لا يستحقون ذلك!

_ سيدة كريمة، لقد حاولت الاتصال برقمكِ لم يكن هناك رد، وبعد زواج حنين لم يعد لوجودي ضرورة، تكفي صباح فقط في المنزل.

_ هاتفي دائمًا ما أنساه، لست معتادة على حمله، أعطني رقم صباح.

_ للأسف ضاع مني وأنا الآن في بلدتي.

_ حسنًا، عفاف، سأتصل بكِ مرة أخرى، نحن لا نستغني عنكِ أبدًا، لقد ربَّيتِ الأولاد معي وأنا لا أثق إلا بكِ، منزلي يستقبلكِ في أي وقت.

....

استعدت رهف للذهاب إلى النادي كعادتها، ولكن هذه المرة كانت بحماس زائد؛ فقد وصلتها رسالة لتوها من رقم غير معلوم بها (أنتظركِ بالنادي في موعدكِ، أعلم بذهابكِ كل يوم)، كادت تطير فرحة؛ أخيرًا سيحادثها، ستخوض قصة الحب التي تتمناها طوال عمرها.

بعد فترة في النادي، جلست بداخلها شغف وانتظار أن يطل عليها فارس الأحلام يحمل زهوره المعتادة ويطلب منها الزواج.

_ صباح الخير، آنسة رهف.

رفعت رأسها بابتسامة ما كادت أن تظهر حتى اختفت وهي ترى شخصًا آخر غير الذي توقعته، أيعقل أن يكون هذا من يرسل الزهور وهي فهمت الأمر خطأ؟!

_ من أنت؟!

جلس أمامها ببساطة ومد يده بالسلام قائلًا: أمجد زاهر، صديق يحيي ومعاذ.

لم تمد يدها وحاولت المغادرة، ليوقفها قائلًا: انتظري آنسة، ألم تأتي في الميعاد؟! أريد أن أتحدث معكِ في أمر مهم، أنتِ رأيتِني يوم عقد قران سلمى ومعاذ، كنت أقف مع باسم عندما حاول منعكِ من الصعود.

قالت بصدمة: ماذا؟! أنت من أرسل الرسالة؟

_ بالتأكيد.

_ كيف حصلت على رقمي؟!

_ هذا أمر أصبح من أسهل ما يكون آنسة، انتظري دقائق، اسمعيني وبعدها قرري الانصراف.

رغم ترددها إلا أن الفضول دفعها لسماعه: من فضلك بسرعة.

....

بعد عدة أسابيع

_ لا أريد حفل زفاف.

نظر لها الجميع بدهشة، لتقول كريمة بحسرة: لماذا، حبيبتي؟

_ أمي، الحفل ما هو إلا مسرحية لا داعي لها، أنا سألبس فستان زفافي، وسأفعل كل ما يسعدني بوجود من أحبهم ويحبونني فقط.

تعمدت النظر لمعاذ الذي قابلها بنظرة امتنان وكأنها علمت ما يريد، فقال يحي مشفقًا على أمه التي بدأت في مسح دموعها بحسرة: سلمى، الفرح حلم كل فتاة.

قالت بابتسامة: من قال ذلك؟! حلم الفتاة فارس الأحلام وفستانها الأبيض، ليس في حلمي حفل كبير ومدعوون يتعمدون النميمة، وغالبًا لا يعجبهم لا العريس ولا العروس، ولماذا نبتعد؟! ألم تتزوج حنين من دون حفل؟!

وأكملت حديثها بعتاب: من دون وجودنا نحن من الأساس.

رد معترضًا: الوضع مختلف، لا داعي للمقارنة.

قالت وقد شعرت بإحراجها أخاها وزوجته: كل ما أقصده أن حنين فرحت بوجودها معك وكذلك أنت.

تكلمت رهف بعدم رضا قائلة: تتنازلين كثيرًا.

لأول مرة منذ بداية هذا الارتباط تؤيد حنين موقفًا لسلمى قائلة: من قال إن الاستغناء عن الناس تنازل؟! يكفي من يحبونها من قلوبهم، يكفي سعادتها بزوجها.

أنهت حديثها وهي تنظر ليحيي بابتسامة، ليقابل ابتسامتها بغمزة لم ينتبه لها سوى رهف التي نظرت أرضًا بعدها ولم تتحدث، تحركت سلمى للجلوس بجوار والدتها التي ما زالت تبكي بهدوء لتقول: أمي، كل هذا بالإضافة إلى أني لا أريد جرح رحمة، وجودها أو عدم وجودها في حفل الزفاف في الحالتين مؤلم لها.

لم يحاول معاذ النظر للموجودين؛ فقد كان كل ما يفكر فيه لحظتها أن هذا الحل لم يجرؤ على التصريح به من أجل سلمى، ليخبر نفسه أن رحمة أحسنت الاختيار.

تفاجأ الجميع برهف تقف وتصرخ قائلة: لماذا تفكرين فيها؟! ألم تُقم هي حفل زفاف عندما تزوجته؟!

أسكتتها كريمة قائلة: كل ما يحدث بموافقة رحمة؛ لماذا نجرحها نحن؟! سلمى معها حق.

نظرت لها رهف بصدمة وقالت: حتى أنتِ خالتي؟!

وجرت صاعدة السلم أمام صدمة الجميع من رد فعلها المبالغ فيه!

....

_ مبارك معاذ.

قالتها رحمة بابتسامتها المعتادة وهي تقبل وجنته، نظر لها بدهشة قائلًا: من أخبركِ؟

_ وهل كنت تنوي عدم إخباري؟ أم كنت ستعطيني حقنة مخدرة لمدة أسبوعين؟!

قال وعلى وجهه الجمود وكأنه كان يتمنى عدم علمها: من أخبركِ؟

حاولت أن تبقي ابتسامتها قائلة: أخبرني يحيي في الشركة أنه ينوي تحديد موعد الزفاف معك اليوم بعد أسبوعين، فأخبرته أن خير البر عاجله، ويكفي أسبوع.

نظر لها بحزن قائلًا: قدمتِ موعد زواجي، رحمة؟!

احتضنته قائلة: لمَ التأجيل؟ ولا تقلق، لن أحضر الحفل، ولا داعي لحقنة المخدر؛ سأكون بخير، لا تحمل همي.

ضمها إليه بشدة، ولم يجد ما يستطيع قوله.

....

بعد يومين مر معاذ على سلمى لتبتاع كل ما تريده قبل حفل الزفاف وقد جهز لها مفاجأة جديدة، وقف بسيارته أمام البناء الموجودة به شقتهم، نظرت له بريبة: معاذ، أين سنذهب؟

_ هل نسيتِ مكان شقتكِ يا فتاة؟

_ بالطبع لا، ولكن لماذا؟

_ لا تخافي، لن أخطفكِ كالمرة السابقة.

قالت بطفولة ساحرة ألجمته: زفافنا بعد يومين، وستخطفني العمر كله.

بمجرد دخولهما الشقة، صاحت بفرحة: فرشتها، كيف؟ ومتى؟

_ أتسألين هذا السؤال وأخوكِ يملك شركة هندسة وديكور؟

أخذت تتحرك ببهجة وهي تقول: حبيبي، يحيي! يعلم كل أحلامي!

أمسكها وقال بغضب: كل هذا و'حبيبي يحيي'؟! هو لم يدفع أي شيء، لقد أشرف على الأمر فقط.

_ وما المشكلة؟! أنا أعلم.

_ ألم يوجد أي 'حبيبي' للواقف أمامك؟!

قالت بتسل: ومن أخبرك أن هناك 'حبيبي' آخر؟!

جذبها قائلًا: أنا أعلم من دون أن تقولي يا شقية.

ولكنه وفجأة، وقف يفكر وهو يتشمم شيئًا حوله، وقال: أشعر برائحة رحمة في المكان.

لم تحاول التعليق، تجاهلت كلماته وابتعدت عنه، حاول السيطرة على أفكاره، وانتبه لردة فعلها، فشدها للداخل وهو يقول محاولًا تجاهل ما قال لنفسه وسمعته: هناك غرف لم تريها بعد.

فتح الباب قائلًا: ألن تدخلي غرفة النوم؟

_ نعم، لن أدخلها.

ولكنه جذبها إلى داخلها وهو يقول: لا، لا بد أن نجربها.

حاولت الابتعاد عنه وهي تقول: معاذ، لا تُخِفني.

وفجأة تغيرت ملامحه بمجرد أن وقع نظره على الفراش، وكأن أصاب جسده صاعق، نظر حوله في كل مكان كأنه يبحث عن شيء، ابتعدت عنه بقلق وقالت: هل لم ترَ الغرفة من قبل؟ ماذا بك؟!

قال وعلامات الصدمة على وجهه: رحمة دخلت هذه الشقة، كانت في هذه الغرفة.

دُهشت لما قال؛ فهي تعرف أن لا أحد يعلم مكان الشقة سوى يحي وقالت: كيف ستدخلها؟!

قال بانفعال وكأن لها يدًا في الأمر: أقول لكِ رحمة دخلت هذه الشقة، أنا واثق من ذلك، وليس دخولًا عاديًّا.

_ ماذا تعني؟

_ هذه الغرفة هي من فرشتها.

أخرج الهاتف من جيبه ليتصل بيحي، ومن دون مقدمات قال: كيف دخلت رحمة الشقة؟؟

_ ماذا تقصد؟! كيف ستدخلها وهي لا تعرف بأمرها؟!

_ أنا واثق، هي من رتبتها، أتفهم ما أقول؟

سكت قليلًا ثم قال: مؤكد استنتجت أنها شقتك رغم إخفائي بيانات المالك، وهي لم تحاول التعليق، للأسف لا تمرر شيئًا مرور الكرام، لا في العمل ولا خارج العمل.

أغلق الهاتف بأسى لتقول وهي لا تعرف ماذا تفعل، أو حتى فيمَ أذنبت: كيف عرفت؟ لا يوجد شيء يدل على دخولها.

قال بأسى وهو ينظر حوله: إنها التفاصيل؛ عندما يعرف شخص تفاصيل حياتكِ ستعرفين بصماته على الأشياء، ستعرفين إن كان مر بهذا المكان أم لا، وهي مرت من هنا، شممت عطرها بمجرد دخولي الشقة، ولكن كذبت نفسي وقلت ربما تأنيب ضمير.. ربما... أي ربما...

لم يُرد تكملة الجملة التي أكملها بداخله فربما لأنه يفتقدها.

كادت أن تبكي قائلة: العطر يباع في كل مكان، ربما مهندسة الديكور.

قال وما زالت تسيطر عليه نفس الحالة: غطاء الفراش، ثنيته من الاتجاه الذي أفضل النوم به، وجود المنبه في هذا المكان، اتجاه أدواتي عند المرآة وتنظيمها؛ لا يعرف هذه التفاصيل إلا هي.

صمتت سلمى ولم تتحدث، وخرجت من الغرفة بهدوء، خرج وراءها ولم يندم على ما قاله، كان لا بد من كسر هذا الحاجز بينهما لتطلع على حياته أكثر، وقفت تنتظر بجوار باب الشقة فشدها للداخل.

_ أرجوك، معاذ، أريد العودة.

قال وقد بدأ يفقد أعصابه: لا داعي للغباء، أنا أخبرتكِ بما أفكر فيه، لم أقُل ذلك لجرحكِ، استوعبي الأمر، لا داعي لأن يظل بيننا هذا الحاجز.

بكت قائلة: أريد أن أذهب من هذا المكان، من فضلك أريد العودة، دعني أغادر واذهب أنت لزوجتك.

جذبها لصدره يحاول احتضانها قائلًا: وأنتِ زوجتي، هذا أصبح واقعًا.

حاولت إبعاده قائلة: أنت لا تشعر بوجودي، هي بداخلك، هي حتى خارجك، هي حولك في كل مكان، هي بيني وبينك، أنا الدخيلة بينكما، أنا من يجب عليها الانسحاب، لقد تسرعت، فكرت خطأ، كان وهمًا.

_ وأنتِ زوجتي، ولا بد أن نستوعب أنا وأنتِ أنكِ زوجتي.

ليحاول التهجم عليها وقد فقد عقله ورزانته، ولكنه أمام دموعها أفاق فجأة على حالتها بين يديه، ليقول بذهول من نفسه: آسف... آسف.

حاول تهدئتها، فزاد ارتجافها عند اقترابه، جذبها بشدة لتستند برأسها على صدره وهو يقول: والله آسف، لم أستطع السيطرة على نفسي، أنا لا أعرف ماذا يحدث لي، لم أكن بهذا التهور في حياتي.

أخذت فترة حتى هدأت، وهو يحاول بكل الطرق أن يجعلها تعود لطبيعتها، وبعدها غادرا الشقة لتجده يتجه بالسيارة في غير اتجاه المول التجاري: أين نذهب؟!

_ سأخطفكِ مرة أخرى.

_ معاذ، اخطفني مرة واحدة بالله عليك.

ضحك بشدة فأردفت قائلة: أين سنذهب؟ أصبحت أخشى مفاجآتك.

فقال ولم يحاول اللعب بأعصابها: سنذهب إلى رحمة.

_ مـــاذا؟!

_ ألم تدخل شقتكِ؟ حقكِ أن تدخلي شقتها.

قالت بسخرية: عندك حق في ذلك؛ هكذا تكون عادلًا!

وأمام شقة رحمة، ضرب معاذ جرس الباب وبعدها فتح بالمفتاح؛ فهو معتاد على ذلك فقط عندما يكون معه أحد، أدخلها الشقة لتخرج رحمة وتصيبها المفاجأة عندما رأت أن من معه هي سلمى، لتقول بترحيب: أهلًا سلمى، أنرتِ.

سلمت عليها كما هي معتادة دائمًا، فقال معاذ قبل أن تسأل عن سبب الزيارة: ألم تدخلي شقتها؟ حقها أن تدخل شقتكِ.

ابتسمت بخجل ونظرت أرضًا، هي أيضًا لم تضع في الحسبان أنه سيعلم دخولها، قالت سلمى متفاجئة: دخلتِها فعلًا، لم يكن يتوهم؟!

ضحكت قائلة: لا تقلقي، هو أعقل من ذلك.

وسكتت قبل أن تكمل كلامها وهي تنظر في وجه سلمى بشدة، احمر وجهها خجلًا، ودون أي كلام جذبتها رحمة قائلة: تعالي معي، أريدكِ بالداخل حتى يطلب لنا هذا الوحش طعامًا، فأنا لم أجهز الغداء.

الفصل الثاني والعشرون

دخلت سلمى الغرفة وما إن شاهدتها حتى ضحكت قائلة: معه حق رحمة، لقد جعلتِها نسخة.

قالت بخجل: آسفة، ظننت أني أفعل ما يريحه.

_ ما أدهشني حقًّا كيف عرف وجودكِ من رائحتكِ.

_ ماذا؟!

حاولت أن تخفي تأثرها وقالت: بمجرد دخولنا الشقة قال محدثًا نفسه 'أشعر برائحة رحمة' ظننت أن ضميره يؤنبه تجاهكِ ويتخيلكِ حوله.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت: يعرف رائحة عطري فأنا لا أستخدم غيره، لابد ألا أقع في هذا الخطأ مرة أخرى.

بعدها جذبتها لتُجلسها أمام المرآة، وأخذت في وضع بعض الكريمات على وجهها لتخفي آثار بصمات معاذ عليه وقالت: لا يمكن أن تذهبي لعائلتك بهذا الشكل.

قالت بخفوت وخجل: هل هو متهور هكذا دائمًا؟

_ آسفة حقًا، ذهابي إلى الشقة أربكه، كنت أطمئن أن الشقة لم ينقصها شيء، دون أن أفكر رتبت أغراضه، والله ما كنت أقصد حتى الفضول، صدقيني.

خرجتا من الغرفة بعد فترة ولكن تفاجأت الاثنتان به وقد استقبل الطعام وقد أوشك على إنهائه، قالت سلمى بجدية: إنه يأكل أي شيء أمامه، وربما من آكلي لحوم البشر؟!

ضحكت رحمة بشدة وهي تخبط كفًّا بالآخر؛ فرفع رأسه وكأنه انتبه لهما أخيرًا قائلًا: سلمى، اجلسي لتأكلي؛ فلا يصح أن ترجعي إلى البيت دون طعام، ماذا سيقولون عني؟!

جذب رحمة للداخل، فقالت وهي تضحك: وأنا أريد أن آكل.

_ سأطلب لكِ طعامًا لاحقًا.

أدخلها الغرفة بعنف وأغلق الباب بالمفتاح، اقترب منها قائلًا: سأجن بسببكِ، تذهبين إلى شقة ضرتكِ، والأدهى ترتبين غرفة نومها!

ردت وكأنها لم تسمع ما قال: لا يمكن أن ترجع لعائلتها بهذا الشكل، ألهذا السبب أحضرتها هنا؟ أظننتها مانجو فعلًا؟! الفتاة مصدومة.

ضغط على أسنانه قائلًا بنفاد صبر: كيف تتحدثين بهذه البساطة؟! ألم يؤثر على قلبكِ ما يكون قد حدث بيننا؟! أي كائن أنتِ؟!

_ وهل لو ظهرت عليَّ الغيرة ستكون سعيدًا؟! أنا أنبهك لما يجب أن تفعله، أشعر بتأنيب الضمير تجاهها.

_ كبحت جماح نفسي معها ليكون هذا من نصيبك أنتِ.

خرج معاذ بعد فترة، وجذب سلمى من ذراعها: هيا، سنذهب.

قالت بشك: أين رحمة؟

رد عليها بنفس الهدوء: لا تشغلي بالكِ، لقد أكلتها.

....

في اليوم المنتظر، استيقظ معاذ في موعده ككل يوم ولكنه لم يجد أي أثر لرحمة بالمنزل، كاد أن يجن إلى أن وقع نظره على ورقة أمام زجاجة عطره، (حبيبي، اعتنِ بنفسك واستمتع بوقتك، ولا تقلق عليّ، لا تحاول الاتصال بي فهاتفي مغلق، اعتَدْ عدم وجودي كما أحاول أن أفعل، ستعود لتجدني في انتظارك إن شاء الله).

قد تبذل قصارى جهدك لتبدو قويًّا، تُظهر عكس ما يعتمل داخلك حتى لا تبدو منكسرًا؛ حتى لا تصبح محلًّا للشفقة، وفجأة تجد أنك لم تعد تتحمل، تحتاج في هذا التوقيت بالذات أن تصرخ من ألم وجع القلب وناره التي تحتاج أن تبرد... ابتعد... ارحل... اذهب إلى أي مكان إلا مكانهم، سافر بعيدًا واصرخ، حتى لا يسمعك أحد، اجعل صدى صراخك يعود ليرن من حولك، ربما يطفئ من لوعتك وقهرك، ربما تُخرج ما يؤجج النار في قلبك، واحذر أن يراك أحد، ظل قويًّا للنهاية، هذا ما قررت فعله.

ظل معاذ يتحرك في المنزل بعصبية لا يعرف ماذا يفعل، فهاتفها مغلق، اتصل بيحيي قائلًا بحسرة: رحمة رحلت.

_ كيف؟! إلى أين؟!

_ هاتفها مغلق، تركت لي ورقة بألا أبحث عنها إلى أن أعود.

_ هناك مسائل كثيرة في العمل لا يمكن أن تتركها؛ مؤكد ستظهر.

_ أين ستذهب؟ ليس لها غيري، لم تذهب من قبل إلى مكان من دوني.

أخذ يحي نفسًا يحاول ألا يظهر قلقه؛ فاليوم لا يحتمل توترًا، ليقول محاولًا تهدئته: مؤكد لم تستطع رؤيتك تتزين لعرسك وتُزف إلى غيرها، هي فعلت الصواب لنفسها، لا تكن أنانيًّا، غدًا سأطمئنك عليها.

أغلق الهاتف، وجلس لا يعرف ماذا يفعل، حتى قرر أن يبدأ في الاستعداد للنزول، فتح خزانة الملابس ليجد بدلة الزفاف جاهزة بكل ما يحتاج، وبجوارها حقيبة رحلة شهر العسل!

....

وقف الجميع ينتظر نزول العروس بيد أخيها، وسط زغاريد عفاف التي أتت على عجل بمجرد إخبار كريمة باحتياجها لها في يوم كهذا، وقف العريس ينتظر وصولها له، أخذت عقله وشتتت تفكيره، نسخة مختلفة من الجمال عن رحمة، براءتها، ابتسامتها، بريق خجل عينيها.

ومر اليوم وسط سعادة الجميع، وتوتر معاذ الذي يلتفت حوله بين الحين والآخر باحثًا عن عينيها، يشعر أنها ستأتي لرؤيته، ولكن كيف؟ لقد اختفت وكأنها طيفًا مر من أمامه ومضى!

أما رهف، فقد تعمدت معاملة معاذ بكل صلف، وزاد من سوء معاملتها له وجود باسم؛ فلم يحاول الحديث معها أو الاقتراب منها، رغم ابتسامته لها

من بعيد كلما تلاقت العيون، فهذا لم يكن كافيًا بالنسبة لها ولم يُرضها، بل جعل الظنون تلعب بها.

وأمام منزل العروسان وبعد أن رفضت سلمى السفر بفستان الزفاف، وقررا قضاء الليلة في منزلهما على أن يسافرا صباحًا، ركبا المصعد وقبل أن يغلق الباب نظر معاذ ليحيي يترجاه دون حديث، فهم يحي الرسالة وأغمض عينيه له بتفهم يطمئنه.

وقبل أن يتجه إلى حنين التي تقف بجوار السيارة، جري خطوات مبتعدا وعاد لها مسرعًا يصرخ فيها أن تركب، وانطلق، لتقول بعدم فهم: ماذا حدث؟

رد بتوتر وهو يزيد السرعة: رحمة كانت تقف بعيدًا، وبمجرد أن رأيتها جرت بالسيارة.

كانت رحمة أسرع في رد الفعل فلم يلحق بها، قص على حنين اختفاءها صباحًا، لم تندهش ربما لأنها نتيجة منطقية؛ فمهما امتلكت المرأة من القوة هي تحبه بجنون، وعندما يصل القلب لهذه الدرجة من الحب تضيع الإرادة، وتضعف القوة.

....

فتح معاذ الباب ليشير بحركة مسرحية للعروسة بالدخول، وبمجرد أن أغلقه، تراجعت للخلف بخوف، ليقول بأسى: أتخافين مني؟

لم تحاول الرد، ووقفت مرتبكة يزداد توترها كلما تقدم خطوة تجاهها، أدرك أن الأمر بينهما أصبح معقدًا بعد تهوره السابق، ليحاول تدارك الموقف: سلمى، أنتِ بهذا الشكل تجعلينني أصغر في نظر نفسي، إن كان لي عندكِ رصيد فرجاء اجعلي هذا اليوم مختلفًا لنظل نذكره.

هزت له رأسها بالإيجاب، مما شجعه على الاقتراب منها وضمها إلى صدره قائلًا: لو تعلمين كيف يصيبني الهدوء النفسي بمجرد أن أضمكِ لغفرتِ لي.

تمسكت بسترته وكأنها ترد عليه بهذه الحركة، وما كان منه إلا أن حملها لتتمسك بعنقه بشدة، دخل بها الغرفة وأنزلها لتقف أمامه، فوجدها ترتجف، فقال بصوته الرخيم: أعدكِ لن أقربكِ.

نظرت له بشك وهو يخلع سترته ورابطة عنقه؛ فابتسم قائلًا: مؤكد أننا لن ننام هكذا، ولكن لا تضعي في حسبانكِ أن ينام كل منا في غرفة، نصلي ركعتين لكي يبارك لنا الله في حياتنا، وبعدها ننام، اتفقنا؟

ليأخذها إلى عالم لم تعرفه إلا على يده، ويغوص هو في نكهة مختلفة؛ ربما ينسى قلقه على رحمة، فما الغريب؟! فهذا حال بني الرجال.

....

ظلت رهف مع كريمة طوال الليل تؤنس وحدتها، فهي تعلم كم تتعلق بسلمى، وكم يصعب عليها زواجها بهذه الطريقة رغم سعادتها بمعاذ زوجًا لابنتها، فهي لم تتمنَّ أبدًا أفضل منه لها.

_ لماذا تأخذين موقفًا من معاذ بهذا الشكل؟!

ابتلعت رهف ريقها وقالت: أتثقين به لهذه الدرجة؟

_ بالطبع وإلا فلم أكن لأوافق حتى لو كانت حياتها متوقفة عليه، معاذ ابني مثلكم تمامًا، حملته طفلًا بين يديَّ، ويوم دخوله كلية الطب كان من أسعد أيام حياتي، انفطر قلبي لعدم إنجابه ولكنها أقدار.

صمتت رهف والدموع تنزل من عينيها لا تستطيع قول شيء أمام صدق مشاعر خالتها التي تخشى عليها من الصدمة! لتكمل كريمة: والدته كانت أعز صديقاتي، يوم وفاتها شعرت أنها أخذت معها صباي وشبابي، لم أشعر أني كبرت إلا عندما تركتني، وكأنني جمعت ذكرياتي وأحلامي وسنوات عمري ودفنتها معها، توفيت وهو بالمرحلة الثانوية، لم أتخيل أن يحصل على مجموع كلية الطب، أخبرني أنه كان يجب أن يحقق حلمها، لتظل سعيدة.

بكت رهف وكأنها ترى المشهد أمامها، وقالت: يكفي خالتي، تُصعبين عليَّ الأمر.

ظلت كريمة تتحدث وكأنها لم تسمعها: صفاء كانت تحلم بالحفيد، دائمًا كانت تقول إنها تتمنى أن ترى أبناء معاذ، عندما طلب الزواج من سلمى صُدمت، ولكني قبل أن أرفض رأيتها تقف أمامي صبية كما كانت في شبابها، جميلة، تبتسم وتشير لي 'وافقي'!

احتضنت خالتها، ولم تستطع التعليق أو الإفصاح عن سبب رفضها، ولكنها أمام كل هذه المشاعر التي شحنتها بها طلبت منها شيئًا تمنته منذ زمن: احكي لي عن أمي هل كانت بمثل حنانكِ وطيبتكِ؟

ضمتها كريمة وهي تفرد جسدها على الفراش، لتنام رهف جوارها، وأخذت تحكي قائلة: كانت أجمل مني، أطيب وأرق، رآها والدكِ مرة وظل يطاردها شهورًا إلى أن وافق أبي أن تتزوج قبلي لأنها كانت الأصغر، أحبها بجنون، ولذلك هو يحبكِ ولا يستطيع أن يرفض لكِ طلبًا؛ أنتِ تشبهينها رهف.

_ ولكنها كانت أجمل، لذلك أحبها.

ابتسمت كريمة وهي تربت على شعرها قائلة: بالعكس، أنتِ نسخة منها، نفس تصرفاتها، خفة دمها وطفوليتها، عينيكِ السوداوين الواسعتين بكحلهما الطبيعي وتلك الرموش الكثيفة، اتركي شعركِ ليعود للونه وستجدين أنكِ نسخة منها، ولكن بروح جيلك.

_ أتعتقدين أني يمكن أن أجد من يحبني مثل أبي عندما أَحبها.

_ وهل لم تجديه بعد؟ أتتخيلين أني لا أعلم بأمر الزهور يا وردة؟!

الفصل الثالث والعشرون

وصل العروسان للفندق المقرر قضاء أسبوعين كاملين فيه، بناءً على رغبة العروس، وبمجرد أن استقرا في الغرفة، دخلت سلمى تأخذ حمامها بعد مشوار شاق، لتستعد بعدها للانطلاق؛ فالبحر في انتظارها.

أمسك معاذ بهاتفه يحاول الاتصال برحمة، ولكن لم يجد إلا الرسالة المسجلة تخبره بإصرارها على الاختفاء، اتصل بيحيي وقد بدأ قلقه يزيد قائلًا بعصبية: يحيي، طمئني بالله عليك.

_ رأيتها بالأمس ولم ألحق بها، زوجتك بارعة في القيادة.

_ يحيي بالله عليك لا تتركها.

أغلق الهاتف فور خروج سلمى من دورة المياه، لتقول بسعادة: الآن هيا للمغامرة.

نظر لها نظرة مطولة يتفرس هيئتها، ليقول وهو يحاول الابتسامة: واضح أنكِ تنوين على البحر.

حاول تجاوز توتره وعدم إظهار ذلك، يجتهد لإسعادها وتلبية كل طلباتها التي ما كانت أبدًا شاقة عليه، ظل الوضع على ذلك كل يوم وتوتره يزيد إلى أن وصل لمرحلة لم يستطع معها إخفاء ما به.

لم يكُف يحيي عن البحث عنها وإرسال الرسائل الإلكترونية لها، وما كان ليطمئنهم إلا أنها تقرأ الرسائل وترد على ما يخص العمل فقط.

وبالطبع لم يخفَ الأمر على سلمى التي أثر بها أن يفكر بأخرى وهو معها؛ بل هو ليس معها من الأساس، روحه تبحث عن رحمة في كل مكان وكأنها ستخرج من البحر أو ربما تنزل من السماء التي يجلس يتأملها، رغم أنها حزينة عليها تستوعب أنها لم تستطع الصمود.

سمعته يصيح في يحيى الهاتف قائلًا: عشرة أيام لا أعرف أين زوجتي، وأنت تطمئنني أنها ترد على رسائل العمل! والله لو حدث لها مكروه فلن أسامح نفسي أبدًا.

وأمام غضبه لم يستطع يحيى إلا أن يقول بنبرة شابها العنف: هي ليست طائرًا في قفص تريد إغلاقه خوفًا عليه من الهرب، قلت لك هي بخير وتراسل السكرتارية والمهندسين، ماذا يعني ذلك؟ انتبه أنت لزوجتك التي معك.

_ أعلم أني هكذا أُقصر في حق سلمى. ولكنها... رحمة.

أنهى المكالمة باسمها، ليجد سلمى واقفة خلفه ولم يشعر بها، فقالت له بصدق رغم دموع الحسرة التي تملأ عينيها: لا تخف عليها، هي بخير، أتعرف لماذا؟ لأنها تعلم أن لو حدث لها شيء فستؤذيك، وهي مستحيل أن تفعل.

لم يحاول النظر إليها، وظل ينظر للبحر أمامه وهو يقول: آسف والله ما بيدي، أنتِ لا تتخيلين شعور رجل لا يعرف مكان زوجته.

ابتعدت عنه لتقف أمام البحر، تبكي بهدوء حالها وحاله وحتى حال رحمة، قررت المحاولة؛ أمسكت بهاتفها وبدأت بتسجيل رسالة صوتية لم تستطع خلالها السيطرة على بكائها:

(رحمة، أعلم أنكِ ستسمعين رسالتي، إن كنتِ تحبينه فأرجوكِ طمئنيه عليكِ، أنتِ من جعلتِني طرفًا في قصتكما فلا تفعلي بي هذا، ولا تبخلي عليَّ بالسعادة التي حلمت بها، إنه يناديك وهو نائم، لا يراني، لا يشعر بوجودي، قلقه عليكِ يجعله يناديني باسمكِ دون أن يشعر، أنتِ وعدتِه بالسعادة، رحمة ينقصني الكثير).

أنهت الرسالة وظلت واقفة كما هي تبكي للبحر وجع قلبها، لم يمر دقائق حتى وجدته يقف فجأة يمسك بالهاتف، وكانت أول كلمة واضحة لسمعها:

رحمة، أين أنتِ بالله عليكِ؟

_ أنا بخير، قلت لك ستجدني أنتظرك عند عودتك.

بدأ يثور أمام هدوئها الذي لم يعد يستطيع تحمله: أين أنتِ رحمة؟ كيف تذهبين دون علمي؟!

_ إن كنت تريد معرفة مكاني لكي تطمئن فأنا بأمان، وإن احتجتك فلن أتردد لحظة، أما إن كنت تريد ذلك لأن شرقيتك تجعلك لا تتقبل أن أكون في مكان لا تعرفه؛ فسأخبرك ما تريد.

تنفس بصعوبة قائلًا: لماذا فعلتِ ذلك؟

_ هل انهياري أمام الجميع سيرضيك؟! أنا بخير، اعتنِ بالفتاة التي وثقت فينا وصدقت الوعود، لا تكسر قلبها، يكفي قلبي! اعتنِ بها من أجل أخيها، لم يخذلني يومًا فلا تخذل أخته، واهتم بنفسك، لا يرضيني أبدًا ما أنت عليه.

أغلقت الخط ولكنه ظل واقفًا فترة يلتفت حوله، ليجد سلمى تقدم عليه مسرعة بعدما رأته أنهى المكالمة، وقالت بسعادة تأملها: أكانت رحمة؟

_ نعم هي... أنا أشعر....

لم يكمل كلامه، نظر لها بتمعن وحملها فجأة وجرى بها على الرمال ليرميها في المياه وسط صرخاتها المرحة، وقال: أنا لم آتِ بكِ إلى هنا لتشاهدي الماء من بعي.

أطلق لروحه العنان وكأنه حصل على إشارة البدء، وبعد ساعات مرت رائعة كما لم يحدث طوال الأيام السابقة، داخل غرفتهما بالفندق، كان جالسًا يتصفح المواقع، قامت بتشغيل إحدى الأغاني الشرقية على هاتفها وتقف لتتمايل أمامه برقص شرقي محترف، فتح عينيه باتساع؛ فهذا ما لم يكن يتخيله من هذه البريئة، وبمجرد انتهاء الموسيقى جرت نحوه ببساطة تجلس أمامه وهي تبتسم وكأنها لم تفعل شيئًا، فقال وما زال غير مستوعب ما صدر منها: ما هذا، سلمى؟

قالت ببساطة: ما هذه الدهشة؟ ألم ترَ واحدة ترقص من قبل؟!

_ لم أرَ إلا على الشاشة.

ضحكت بعدم تصديق وقالت: أنسيت، أعلم أنك متزوج منذ أعوام؟!

_ وما المشكلة في ذلك؟!

نظرت له بشك لتقول: متزوج شمسًا وهاجة لو دخلت إحدى مسابقات الجمال لفازت دون منافس.

ضحك قائلًا: جميل أن تصفي ضرتكِ هكذا.

_ إنها حقيقة.

_ وما دخل رحمة إذًا بذلك؟

قالت وقد بدا عليها الاعتراض: نعـــــم؟! وهل فتاة مثلها لم ترقص مرة؟ أتخدعني؟!

ابتسم وقد أدرك أخيرًا مقصدها، ورغم أنه لا يريد الخوض في تفاصيل علاقته برحمة إلا أنه قرر أن يريحها ويغلق هذا الحوار: الرقص ليس من هوايات ولا اهتمامات رحمة نهائيًّا، ولا تسألي عن أمور تخصها مرة أخرى؛ لا يصح ذلك.

تخيل أنها لم تستوعب كلامه أو أن رده ضايقها، ولكنه تفاجأ بها تبتسم بسعادة وهي تقول: أصِدقٌ ما تقول؟

ضحك بدهشة: ما هذه السعادة؟!

قالت بانطلاق: أخيرًا وجدت أول الطريق؟

_ أول طريق ماذا؟!

ابتسمت وقد عاد لها الخجل مرة أخرى، وكأنه خُلق لأجلها: أول طريق الوصول لشيء أختلف به عنها.

ابتسم بأسى لا يعرف بماذا يرد عليها؛ هي تحاول الوصول له بأي شكل، وهو يفكر في غيرها، والمُثير للسخرية أنها تعلم!

....

آخر يوم في الإجازة، في شركة رحمة العقارية للهندسة والمقاولات، دخلت الشركة التي تحمل اسمها، اتجهت إلى غرفة يحي دون النظر حولها، وما إن رآها وقام مذعورًا من هيئتها المرهقة، جلست بهدوء؛ فقال بقلق: أين كنتِ؟ لماذا تفعلين بنفسكِ كل ذلك؟ ألستِ أنتِ من خططتِ لنصل لهذه النقطة؟!

تحدثت بخفوت ليس من عادتها، تسند رأسها على يدها دون النظر إليه: لم أشعر يومًا غير أني أختك، كنت أحسد سلمى عليك يحي.

_ أنتِ فعلًا أختي، لا داعي لهذا الكلام، هيا معي للمنزل.

_ اسمعني للنهاية.

تركها تقول ما تريد؛ لعلها تهدأ بعدما تُخرج ما بداخلها، ظلت تتذكر كيف عرفت معاذًا عن طريقه، كيف ساعدها للمرة الثانية ليكلل هذا الارتباط بالزواج رغم أنها واثقة أنه كان يتمنى زواجه من اخته، تخبره وسط دموعها أنها لن تنسى عندما لجأت له لا تعرف كيف تتصرف أمام رفض أهلها مساعدتها في تكاليف الزواج؛ فهو العريس ميسور الحال ولا داعي

لخسارتهم أي أموال، لم يرض أن يُكسر خاطرها أمامه، أعطاها بطاقته الائتمانية لتشتري كل ما تحتاجه، وأن ترد له كل هذه الأموال عندما تعمل، تخبره أنها تحمل له جميل موافقته بأن تحمل الشركة اسمها، أصبح لها راتب لا تصرف منه لأن معاذًا لا يتركها تحتاج شيء، وبعد نجاح الشركة، أصبح لها نسبة من الأرباح، ليصبح لها حساب بنكي.

أخذت انفاسها ومسحت دموعها، وهو مازال ينظر أرضًا، فقالت: أنا قررت رد الجميل.

رفع رأسه ينظر إليها فأردفت: نعم، أرد لك الجميل في أختك التي من أول مرة رأيتها أعلم أنها لم تحب سواه، رددت جميلك فيها، حتى لا أرى نظرة الحزن في عينيك كلما ظهرت أنا ومعاذ أمامها في مكان، لكني لم أستطع الصمود للنهاية، لم أستطع رد الجميل بأكمله.

تحدث أخيرًا يقطع كلامها: لا داعي لهذا الكلام الآن.

لتكمل وكأنها لم تسمعه: أتعلم أين كنت؟ كنت أشاهدهما من بعيد.

وقف بصدمة؛ فلم يتوقع أحد أن تكون بنفس المكان، وقال: ماذا فعلتِ بنفسكِ؟!

أمسكت رأسها بألم قائلة: منذ سنوات وأنا لا أنام إلا عندما يعود، أعاني من رهاب الانفراد، لم أخبره لأني منذ تزوجته أنام بهدوء، لم أكن أعرف أنني سأعود مرة أخرى أصاب بالذعر عندما أنام بمفردي، طلبت من الفندق

إخفاء اسمي، وتركت لهم رقم معاذ إذا حدث لي شيء، ولكن... منذ يومين... لم... لم يخرجا من الغرفة... بعد مكالمتي له اختفى من أمامي.

صمتت تحاول تجميع شتاتها، ولم يجد هو ما يستطيع قوله فقالت وهي تحاول الوقوف لتنسحب: آسفة... والله آسفة.

وقف يمنعها من الذهاب قائلًا: لن تخرجي من هنا وأنتِ بهذه الحالة.

وقال بنبرة حادة لم يحدثها بها من قبل: اجلسي ولا تجعليني أتعامل معكِ بيدي.

أخرج هاتفه من جيبه ليتصل بحنين يستدعيها للمجيء له بالمكتب ويخبرها بوجود رحمة، ظلت واقفة تسند على الباب إلى أن قال: لن أتركِكِ تذهبين، لا تضطريني أن أستخدم معكِ العنف.

أطاعته هذه المرة وبمجرد أن شعر بهدوئها، اتصل فورًا بمعاذ الذي كان يستعد هو وسلمى للعودة؛ ليطمئنه أنها معه بالشركة.

بعد فترة داخل شقة رحمة، حاولت حنين اقناعها أن تنام قليلًا أو تتناول أي شيء، ولكنها رفضت، لم تحاول الحديث، وظلت جالسة على الفراش تنظر للفراغ؛ فقررت حنين إجراء محاولة أخيرة وقالت: ما رأيكِ أن تأخذي مهدئًا؟ معي بالحقيبة، اشتراه لي معاذ مرة.

ابتسمت لأول مرة وهي تأخذه منها، فقالت: الآن تأخذينه لأنه نصيحة دكتور القلوب، أليس كذلك؟

لم يمضِ دقائق وكانت رحمة قد ذهبت في نوم عميق، وحنين تنظر لها بمكر وهي تعدل من وضع غطائها.

....

بعد ثلاث ساعات تقريبًا كان معاذ وسلمى قد وصلا لمنزل العائلة، اعتذر لها لعدم استطاعته الدخول حتى يطمئن على رحمة.

_ متى ستعود؟

_ لا أعرف.

_ اعتدت وجودك.

_ وأين سأذهب؟ أنا معكِ طوال العمر.

لم يجد منها سوى ابتسامتها العذبة التي تأسر قلبه، احتضن يدها بكفيه ورفعها لفمه يقبل راحتها، وبعدها فتحت باب السيارة وأسرعت داخل المنزل بسعادة.

وجدت والدتها في انتظارها بشوق أم لم تعتد بعد على ابتعاد ابنتها عنها، لتجذبها رهف بعدها تحتضنها وهي تبكي وكأنها لم ترَها منذ سنوات فقالت: أكنت متعلقة بي وأنا لا أعرف؟! أنت تعتادين السفر دائمًا والغياب عنا، ما كل هذه العواطف التي ظهرت فجأة؟!

حاولت الابتسام قائلة: لا أعرف.

_ مؤكد، هذا أمر يستحق الدراسة.

جذبتها كريمة تُبعد رهف قائلة: تعالي معي، يمكنكِ الحديث مع هذه المشاغبة في وقت آخر.

لتقول سلمى وهي تخرج لسانها: عذرًا، رهف، هناك أمور لا يمكن التحدث بها أمامكِ؛ اذهبي والعبي بالحديقة.

....

دخل معاذ منزله ليجد يحيى في انتظاره، تحرك باتجاه الغرفة وكأنه سيقتحمها، ولكن منعه قائلًا: انتظر، حنين بالداخل.

قال بغضب: إذًا أخبر زوجتك أني جئت.

_ اجلس أولًا، دعنا نتحدث، هي ليست في حالة طبيعية.

_ نتحدث؟! زوجتي ظلت أسبوعين لا أعرف لها مكانًا يحيى.

وقف أمامه يدفعه بيده قائلًا: لا داعي لهذا الحديث، لا يصح ما تقول.

جلس يمسك رأسه، ليقول بصوت مختنق: ماذا بها؟

_ كان أولى لك أن تعلم أنت ماذا بها، للأسف جميعنا تخيلها تمتلك من القوة ما يجعل الأمر يمر بسهولة.

_ أين كانت؟

_ أخبرتني اليوم عندما عادت.

أخذ معاذ نفسًا عميقًا وقال: كانت في القرية السياحية التي كنت بها، أليس كذلك؟

الفصل الرابع والعشرون

من منا لم يجرب يومًا أن يشعر باقتراب حبيب أو صديق، تلتفت متوقعًا وجوده خلفك فتجده، تستيقظ تنتظر محادثته فتجد منه رسالة، فما بالك لو كان هذا الشخص هو من ينتفض قلبك باسمه؟ تشعر بقربه فتجده لا لشيء سوى هذه الهالة التي ينشرها حوله، ولا يشعر بها سواك، تجذبك كالمغناطيس من دون أن تشعر!

دُهش يحي من علم معاذ بمكان رحمة، وقال بحدة: أكنت تعلم بوجودها؟ تركتها بمفردها؟

_ لم أرَها، حاولت البحث عنها دون علم سلمى، ولم أجد لها أثرًا، إنه إحساسي؛ كنت أشعر أنها قريبة، عندما حدثتني شعرت أنها تراني.

_ ألذلك لم تخرج من الغرفة منذ حديثك معها؟

حرك رأسه بصمت، فأكمل صادمًا إياه: انهارت لأنها لم ترَك.

_ خشيت عليها، خفت أن تشعر سلمى بوجودها، لم أجد حلًّا آخر.

_ إنها تعاني رهاب الانفراد، وأنت لا تعلم يا دكتور!

قال بصدمة: زوجتي... تعاني من فوبيا؟! كيف.. كيف عرفت ذلك؟

_ هل تسألني أنا؟! كيف لا تعرف طوال السنوات الماضية؟! منذ أن كانت في الجامعة وأنت تعرفها، خطبتها وعقدت قرانك بالإضافة لأكثر من ثلاث

سنوات زواج وأنت لا تعرف عنها شيئًا كهذا! لا تعرف أن زوجتك تخشى النوم بمفردها، وكانت تعالج قبل زواجكما يا دكتور.

لم يستطع التكلم وأغمض عينيه بأسى، لم يحاول يحي تأنيبه أكثر من ذلك، فنادى حنين لينصرفا، وقبل أن يغادرا قالت: أعطيتها المنوم الخاص بي؛ لن تستيقظ قبل الصباح، اعتنِ بها، ولا داعي للعتاب؛ هي لا تحتمل ذلك الآن.

وبمجرد مغادرتهما، دلف إلى الغرفة ليراها كما لم يرَها من قبل، باهتة الوجه هزيلة، واضح عليها الإجهاد، جلس مستندًا بمرفقيه إلى الفراش، وأمسك بيدها، وأخذ يقبلها باشتياق وهو يقول: لا أعرف هل أطلب منكِ السماح أم من نفسي؟ هل أنا السبب أم أنتِ؟ أعذركِ أم ألومكِ؟ أردتِ تحريك المياه الراكدة وها هي تحركت، هل رضيتِ الآن؟ أنا أناني رحمة، لم أفكر ماذا ستفعلين في غير وجودي، أنتِ لستِ أمي، لستِ امرأة حديدية لأفعل بكِ هكذا، ماذا أفعل الآن؟ علمتِني كيف أعشقكِ وكيف أعشقها، فدليني لقد ضللت الطريق.

نام جوارها يضع يده تحت رأسها يضمها إليه، وراح في نوم عميق، ولم يحاول التفكير في شيء، فقط هي بخير.

....

عاد يحي وحنين إلى المنزل، فوجدا سلمى في انتظارهما بقلق، قبل رأسها قائلًا: كيف حالكِ يا عروس؟

جذبتها حنين تحتضنها وهي تقول: سأصعد لأبدل ثيابي؛ فأنا مجهدة، وصباحًا انتظريني، لنا حديث طويل، لن أتركِ.

وأكملت بهمس حتى لا يسمعها يحي: لتخبريني هل عرفتِ الفرق.

ضحكت وقالت بنفس الطريقة: لا، بل عرفت ماذا كان يقصد يحي بصديقات منحرفات.

لاحظ همسهما وهما ما زالتا في أحضان بعضهما البعض، فجذب الاثنتين من أعلى ملابسهما بيديه قائلًا: أتتخيلان أني لا أعلم ماذا يمكن أن تقولا الآن؟

تخلصت حنين من يده وصعدت مسرعة، فأشار لسلمى أن تجلس على الأريكة ليجلس جوارها ويأخذها بين ذراعه، لا يعرف ماذا يقول، ولكن لا بد من التحدث: هل أنتِ سعيدة؟

ابتسمت بخجل تحرك رأسها بالإيجاب، وسألته: كيف حال رحمة؟

تحدث مترددًا: أتمنى أن تراعي ظروفها لفترة، ولا تثقلي على معاذ؛ فهو مرتبك ويحتاج لبعض الوقت لتنظيم حياته.

_ هل هي متعبة لهذه الدرجة؟

_ أكثر مما تتخيلين.

قالت محاولة عدم إظهار حزنها: معنى ذلك أنه لن يأتي لي.

رفع يحي رأسه لينظر للسماء وكأنه يطلب العون من الله، فمهما كان هي أخته التي يعلم أن سعادتها منقوصة، وقال بمرارة: الأمور دائمًا في بدايتها صعبة، أنتِ رضيتِ بوضع تعرفينه منذ سنوات، أما هي ستأخذ فترة لتتأقلم على انسحابه من حياتها بعض الوقت، للأسف سأقول لكِ ضعي نفسكِ مكانها؛ وقته كله كان لها وفجأة اختفى.

....

صباحًا، استيقظ معاذ وما زالت هي نائمة، أخذ حمامه الصباحي، واتجه إلى مطبخ لإعداد الفطور، وعاد ليجدها كما هي، فقرر الاتصال بسلمى قبل أن يوقظها: صباح الخير، عروستي، كيف حالكِ اليوم؟

ردت بإحباط: استيقظت مبكرًا؛ لقد عودتني على ذلك، لترحل بعدها!

_ لن أرحل وأتركِ أبدًا.

صمت قليلًا، ولم تحاول التحدث، فأكمل بأسى: إنها متعبة بشدة، تكاد تكون لم تأكل أو تنم الفترة الماضية، إلى الآن لا تشعر بوجودي.

صمت يحاول أن يختار الكلام المناسب، فهو لا يريد استعطافها، فقط يحتاج منها أن تقدر الوضع، ليكمل: أعلم أنكِ عروس، سامحيني، لا أستطيع تركها هكذا.

قاطعته بلوم: أعرفت عني قسوة القلب؟ أنا... أنا تخيلت أنها أقوى من ذلك، ألم تكن هي من رسمت لنا الحياة وردية كسلة الفاكهة؟ لقد مدتني بالجرأة والقوة لأخذ هذه الخطوة.

قال وهو يتأمل وجه رحمة من بعيد: هي كذلك وستعود، ما هي فيه صدمة البداية؛ فمهما كان، الكلام أسهل من الواقع، استمتعي بيومكِ وبمجرد أن أطمئن عليها سأكون عندكِ، أعدكِ.

صمتت قليلًا قبل أن تسأله بحرج: هل لي أن أخرج قليلًا؟

_ بالطبع حبيبتي، كما تشائين، ولكن أخبريني فقط أين أنتِ.

فهمست قائلة: أفتقدك.

ابتسم بمرار قائلًا: أنا أيضًا أفتقدكِ، مسألة وقت، وستنتظم حياتنا.

بعد أن أغلق الهاتف عاد ليقترب منها بقلق؛ فهي تنام منذ أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة دون طعام ولا يعرف متى آخر مرة أكلت فيها، فأخذ قليلًا من عطره على يده وقربه من أنفها قائلًا: رحمة، ما كل هذا النوم؟

فتحت عينيها بصعوبة لتراه أمامها، وأكملت نومها، تركها لحظات ولكنه خشي عليها من قلة الطعام، فبلل يده بالماء ووضعها على وجنتها، لتقول بضيق: اتركني أنام، معاذ.

مال بجبهته يسندها على جبينها وهو يحاوطها بذراعيه، قائلًا: هكذا أنتِ تتهربين، استيقظي وإلا حملتكِ كما أنتِ ووضعتكِ في حوض الاستحمام، وأنتِ تعلمين أني أفعلها.

حاولت الجلوس وكأن جسدها تيبس من النوم، فساعدها وهو يقول: صباح الخير.

هربت بعينيها بعيدًا عنه، وقالت بتوتر: لا أتحمل العتاب.

قال وهو لا يحيد بنظره عنها: ومن قال إني سوف أعاتبكِ؟! سأنتظر أن تستردي طاقتكِ وقدرتكِ على المجادلة كاملة، لأعرفك عواقب ما فعلتِ بي وبنفسكِ.

خفضت بصرها تخجل من النظر إليه، فرفع رأسها بأنامله لتنظر له وقال: لماذا؟

لم تحاول الرد، وأغمضت عينيها هربًا منه، فقال وهو يربت على شعرها ويضمها إلى صدره بشوق: لماذا ذهبتِ هناك؟ تعلمين أني شعرت بوجودك، واثق أنكِ كنتِ ترينني ونحن نتحدث في الهاتف.

قالت بصوت ضعيف لم يعهده منها حتى في أصعب الأوقات: لأني لم أجد مكانًا أذهب إليه دون وجودك معي.

ضمها بشدة وتركها تكمل كلامها: وجودك بالمكان يطمئنني.

_ لماذا لم تخبريني بمشكلة نومك من قبل؟ لماذا دائمًا تحاولين إسعادي ولا تفكرين بنفسكِ؟! كيف لم أكتشف كل هذه السنوات؟!

ردت بخفوت: كنت أهاب النوم عندما كنت أعيش بمفردي، لم أستطع النوم براحة إلا عندما تزوجنا، تخيلت أن الأمر انتهى.

ليقول محاولًا السيطرة على نفسه كي لا يعنفها: ماذا كنتِ تفعلين عندما أغيب في المشفى أو يكون عندي جراحة ليلًا؟ أكنتِ تأخذين أدوية من ورائي وتخفينها عني؟

تشبثت بصدره ولم تحاول النظر له، قائلة: كنت لا أنام إلا عندما تعود، وأحاول إشغال وقتي بأي شيء.

قال بصوت حاد: كنت أعود لأجدكِ نائمة رحمة!

قالت بضعف تحاول عدم البكاء: لم أنم مرة قبل عودتك.

تحدث بأسى وشفقة على حالها وعلى وجهه ابتسامة سخرية: أكل ذلك بداخلكِ وتُظهرين الشجاعة؟ وأنا أتخيل أني أعرفكِ وأحفظ أنفاسكِ!

_ أردت ألا أشغلك بأمر لم يعد مهمًّا، أنا تداركته بوجودك جواري.

_ تداركتِه؟ لدرجة أن تظلي كل هذه الفترة في الفندق بمفردكِ ودون الخروج من الغرفة! هل تتخيلين لو حدث لك شيء كيف كنت سأجدكِ؟ ماذا سيكون إحساسي وأنتِ بنفس المكان الذي أنا به وأستمتع بوقتي، لماذا جلد الذات رحمة؟!

_ تخيلت أن يمر الأمر كما رسمت، لم أكن أضمن أن أخرج من الغرفة فتراني، حتى عطري لم أضعه.

غرس رأسه في شعرها وهو يقول بنبرة اختلط بها اللين والعنف: وإحساسي بوجودكِ ماذا تفعلين به؟ هل تخيلتِ أني لم أشعر بكِ، كنت متأكدًا أنكِ هناك، سألت في الفندق عن اسمكِ ولم أجده!

بدأت تخونها الدموع وهي تقول: شعرت بأنك عرفت، فأخبرت الفندق بإخفاء اسمي، عاقبتني بعدم خروجك من الغرفة، أليس كذلك؟

قال وقد بدأ يفقد السيطرة على هدوئه: بحثت عنك ليلًا في كل مكان وأنا أعرف أنكِ لن تتركي لي فرصة لأجدكِ.

أطلقت العنان لشهقاتها أمام عتابه وهي تقول: أكان من المفترض أن أخبرهم أني زوجة هذا العريس؟!

قال بحنو محاولًا عدم التمادي: انسي الأمر، سأتغاضى عنه فقط من أجل اطمئناني عليكِ، ولكن اقسم بالله إن تكررت هذه الحماقات فلسوف أتعامل معكِ معاملة أخرى، ومن الآن لا خروج من المنزل دون علمي، أتفهمين؟ حتى العودة من العمل، تخبريني بها.

ابتسمت بمرار وقالت: أنا كبرت على هذه المعاملة.

_ أنا المخطئ من البداية لأتركِ دون متابعة ولا عناية، كل ما مضى انسيه لأنكِ من اليوم لن تَخْطِي خطوة إلا بعلمي، حتى نومكِ سأعلم به، وتحملي نتيجة أفعالكِ.

قالت بضعف: هل لم تعد تثق بي إلى هذا الحد؟!

_ الأمر ليس نقص ثقة وأنتِ تعلمين، ولكن عندما تصل بكِ تصرفاتكِ لما أنتِ عليه الآن، فلا بد أن أحميك من نفسك.

_ مصمم أن تُشعرني بالانكسار أمامك.

_ حبيبتي، أريدكِ أن تعودي أمام الجميع كما كنتِ؛ رحمة الواثقة القوية، لا أريدكِ أن تنكسري أمام أحد، ولكن لا مانع أن يكون انكسارِكِ هذا أمامي أنا فقط.

حملها على كتفه لتصرخ من المفاجأة قائلة: هل قررت قتلي؟

_ لا، حبيبتي قررت غسلكِ.

دخل بها دورة المياه وفتح صنبور حوض الاستحمام ليملأه، وبعدها أنزلها وهو يشير: سأذهب لأعد الفطور، خذي حمامكِ واستجمي قليلًا، اغسلي من ذهنكِ كل شيء لتعودي كما كنتِ.

حركت رأسها بطاعة، هي التي كانت دائمًا متمردة، أصبح بها من الوهن ما يجعلها تنفذ دون مجادلة! غادر، وظلت تنظر إلى الماء بتأمل، حررت شعرها من عقدته، خلعت ثيابها التي لم تبدلها منذ عادت، لتلقي بجسدها في الماء وكأنها تتخلص من نار قلبها.

دخل معاذ إلى الغرفة بعد أن تركها بحريتها فترة، ليجدها مستكينة مغمضة العينين تجلس على المقعد أمام المرآة، اقترب منها على مهل لا يريد إزعاجها، يتأملها لتبتسم وهي ما زالت مغمضة، فقالت: أنا أيضًا أشعر بوجودك.

قال وعيناه تحاولان الشبع من تفاصيلها: هل ملكتي تحتاج لشيء؟

فتحت عينيها اللتين تفتحان له أبواب الجنة، وقالت: كنت أحتاج لذلك.

_ دائمًا أعلم ماذا تحتاجين، هيا ليس عندي استعداد أن أعد طعام آخر.

تحركت معه، ولكن وقفت في منتصف الغرفة، فقال بدهشة: لماذا تقفين هكذا؟!

تعلقت برقبته قائلة: لا تجعل يومًا يمر دون أن أراك؛ كدت أجن عندما تخيلت حياتي من دون وجودك.

شدد من احتضان خصرها، وهو يقول: أنا من لا أتصور حياتي وأنتِ لستِ بها، أنتِ جزء مني رحمة، وعد لن يتكرر ما حدث.

....

جلست حنين بجوار رهف في الحديقة تتحدثان كما لم يحدث منذ زمن، ظهرت سيارة يحيي تقترب من بعيد، دُهشت الفتاتان من عودته مبكرًا، وقفتا تنتظران وقوف السيارة، لتفاجَآ بوجود فتاة بجواره، نظرت حنين لرهف قائلة: هل تعرفينها؟

_ لا.

تقدم يحيي نحوهما بصحبة الفتاة بوجه خالٍ من أي تعبير، وقال دون انتظار أن يسأله أحد: أعرفكما، داليا زوجتي.

رجعت حنين بظهرها لا تستوعب ما يقوله، لتتحدث رهف صارخة: ما هذا الذي تقوله؟! متى؟!

ليرد بنفس الجمود: تزوجتها قبل عودة حنين.

تراجعت بظهرها لا تصدق ما يحدث، لتكمل رهف بحنق: لماذا يحيي؟ أين الحب الذي عشت تتغنى به؟! لماذا جئت بها الآن؟

_ للأسف لم يعد يصلح إخفاء الأمر؛ لأنها... تحمل طفلي.

وبمجرد سماع حنين هذه الجملة، جرت خارج المنزل تهرب من ذلك الكابوس الذي وقعت فيه، أسرع يحي خلفها، وقبل أن يلحق بها، دوت صرخة ارتجف لسماعها كل من بالمكان، أثر ارتطامها بسيارة مسرعة لم تستطع رؤيتها من هول الصدمة.

الفصل الخامس والعشرون

الخوف من شيء يجعلك تعيشه وكأنه واقع غرس بداخلك، ينخر كدود يعرف طريقه لعقلك وقلبك، حتى تشعر به حقيقة!

جرى يحي مفزوعًا أثر صرخة حنين، ليقول بقلق: حنين، استيقظي، هل عادت الكوابيس؟

بدأت تتدارك أنه لم يكن سوى حلم، ومع ذلك اخذت تبكي بشدة، ضمها محاولًا تهدئتها: لماذا عادت الكوابيس مرة أخرى؟

زاد بكاؤها وهي تتشبث به وتقول: لماذا تفعل ذلك بي؟

دُهش ليسألها بتعجب: أنا! ماذا فعلت لكِ؟! كنتِ نائمة وأنا أرتدي ثيابي لأذهب للعمل.

_ دائمًا تفعل بي هذا، دائمًا تقهرني، دائمًا توجع قلبي.

زادت دهشته قائلًا: متى دائمًا هذا؟ لا بد أن أعرف بماذا تحلمين؟

ظلت تبكي ولم ترد عليه، فقال: أهو نفس الحلم؟

حركت رأسها بالإيجاب وقالت: وكل مرة واحدة غير الأخرى.

_ كل مرة واحدة كيف؟! لماذا كلامكِ مبهم؟

قالت وهي تحاول الابتعاد عنه بضيق: كل مرة تتزوج عليَّ وتأتي لتخبرني، وهذه المرة حامل بطفلك، وأنا لم تجعلني أحمل مثلها.

ظل ينظر إليها والصدمة تعلو وجهه، مرر أصابعه في شعره، نظر حوله ثم نظر لها بعدم استيعاب قائلًا: ماذا؟! هل هذا الحلم الذي يقلب ليلكِ وتصرخين بعده لينقلب المنزل وتأتي أمي وسلمى يوم زواجنا وتصبح فضيحة وأنا أحاول لملمة الموقف؟!

حركت رأسها بـ "نعم" وهي تمسح دموعها، فقال: أنا مصمم أن أقهركِ وأوجع قلبكِ؟! في الحلم! تجمدين دمائي كل مرة، وأظل أتخيل ما هو الكابوس الذي يؤرق حياتكِ؛ وفي الأخير يكون هذا هو الحلم؟!

أدارت رأسها بعيدًا عنه، فوضع يده على وجهها ليديره له قائلًا: لا تقلقي؛ فأنا بعد ما تفعلينه بي قد لا أصلح لا للزواج ولا للإنجاب، لا منكِ ولا من غيركِ.

وقف يعدل من ملابسه يحدث نفسه بكلام لم تفهم منه شيئًا، وغادر الغرفة صافقًا الباب خلفه، فقالت: لماذا يُحدث نفسه؟! لم يعد طبيعيًّا!

....

أنهى يوم عمله وكلما تذكر كوابيس حنين العجيبة مسح بكفيه على وجهه مستغفرًا، يفكر كيف يقنعها أنه لم ولن يتزوج من أخرى.

دخل الغرفة ليجدها متقوقعة بجوار الفراش لتعود لحالتها السابقة، خلع سترته وقميصه واتجه يجلس جوارها يحاوطها بذراعه قائلًا: لماذا عدتِ لهذه الحالة؟ وما الذي جعل هذه الكوابيس المزعجة التي ليس لها علاقة بالواقع نهائيًّا، أتسمعين؟ نهائيًّا، تعود؟

قالت بأسى: هل يستطيع الرجل بهذه السهولة أن يحب أكثر من امرأة؟! هل ببساطة يتأقلم ويتحول من واحدة لأخرى؟!

صمت يحاول معرفة ما يرمي إليه كلامها، لتكمل: رأيته كيف ينظر لسلمى، كيف يحاول أن يرضيها ويسعدها، رأيت لهفته وخوفه على رحمة، هل بهذه السهولة تتنقلون بين هذي وتلك؟!

ابتسم وقد أدرك ما بها، فوقف ورفعها ليُجلسها على حافة الفراش وجلس جوارها، قائلًا برفق: سبحانه يعطي كل إنسان قدر استطاعته حنين، هناك دول لا يسمح فيها بتعدد الزوجات ومسموح بالعلاقات غير الشرعية، في نفس البلاد هناك رجال لا يخونون.

رفعت رأسها تنظر إليه باستفهام قائلة: ماذا تقصد؟

_ هناك من يحب ولا يستطيع رؤية أي أنثى غير التي يهواها قلبه، هي وحدها من تقر عينه، وهناك مجتمعات تقبل فيها المرأة زواج زوجها بسهولة، ومع ذلك في نفس المجتمعات رجال لا يتزوجون غير واحدة، يكتفون بها عن كل نساء الدنيا.

ضمها لصدره ليكمل: إنها فروق فردية واختلاف ظروف وطباع، قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ).

_ أشعر بالرهبة كلما رأيت معاذًا مع إحداهما، أشعر بقلبي ينقبض كلما رأيت حب واحدة له وكيف تقبل هذا الوضع، قلبي يحترق كلما وضعت نفسي مكانهما.

_ لا تتركي الظنون تتلاعب بكِ وتفسد حياتنا، الشك هلاك، أبعدي عن تفكيركِ كل الأفكار السلبية، تذكري فقط كل شيء جيد في حياتنا، جميعنا بخير، حتى سلمى ورحمة بخير، لا تضعي نفسكِ مكان أحد؛ منظور السعادة مختلف من واحد للآخر.

تحدثت بخفوت تخبره بما داخلها لعلها ترتاح: منذ زواج معاذ وسلمى، أخاف ألا أنجب لك أطفالًا وتفعل مثله.

ابتسم لها بحب وأخذ يعبث بشعرها المتساقط قائلًا: أحسني الظن بالله، ودعي غدًا للغد، ما علينا إلا أن ندعوه.

....

اتجه معاذ للباب الذي يدق جرسه؛ ليتفاجأ بالواقفة أمامه مبتسمة، فقال بدهشة: سلمى؟! لماذا لم تخبريني أنكِ آتية؟!

_ ألم أخبرك أني أريد الخروج؟ أنت لم تسألني إلى أين سأذهب!

أبعدته بيدها ودخلت، فقال وما زال ممسكًا بالباب: إلى أين؟!

_ أين رحمة؟!

_ ما لكِ بها؟!

ردت بابتسامة: وما دخلك أنت؟ أريد صديقتي.

نادت عليها بصوت مرتفع فخرجت رحمة مسرعة بابتسامة، لتحتضنها قائلة: كيف حالكِ، رحمة؟ علمت من هذا الرجل أنكِ متعبة، فلم أستطع الانتظار لأطمئن عليكِ.

ردت بمحبة: بخير الحمد لله.

تحرك وهو يضيق عينيه، مرددًا كلمتها: هذا الرجل!

نظرت له سلمى بطرف عينها، وجذبت رحمة لتدخل بها الغرفة قائلة: تعالي لنتحدث بالداخل.

جلست الاثنتان على الفراش كأنهما صديقتان أو هكذا تريدان، وقف معاذ أمام باب الغرفة ينظر لهما ولسان حاله يقول كيف يجتمع الشمس والقمر، ليجد سلمى تقول: أنت يا هذا، فتاتان تريدان الحديث مع بعضهما البعض لمَ تقف؟!

ضحكت رحمة أخيرًا وقالت: تلميذتي.

حاول رسم الجدية قائلًا: هل ستتآمران عليَّ؟! لن أتحرك من هنا.

قالت سلمى: هل زوجكِ معتاد الجلوس مع صديقاتكِ؟!

ضحكت رحمة فابتسم وخرج قائلًا: وقعت ولم يُسَمِّ عليَّ أحد.

وبمجرد مغادرته الغرفة نظرت رحمة لسلمى وقالت: هل أنتِ سعيدة؟ أخشى أن أكون قد ظلمتكِ.

ردت بابتسامة قائلة: أنا أكون سعيدة بمجرد حديثه معي، لا بمجرد وجوده أمامي، حتى ولو كانت روحه تبحث عن أخرى.

_ آسفة لكِ وله ولنفسي.

قاطعتها سلمى قائلة بترجٍّ: بالله عليكِ لا تفعليها مرة أخرىِ، تبدل حاله بمجرد اطمئنانه عليكِ.

_ آسفة.

_ لم تخدعيني، دخلت حياته وأنا أعلم بحبه الشديد لك، أعرف كيف ينظر لكِ، كيف يبتسم لرؤيتكِ، أعرف حتى عيونكما وهي تتحدث، أنا أحاول أن أبحث عن شيء بداخله تجاهي مختلف، أنتظر أن يحبني حبًّا مختلفًا عن حبكِ؛ لأنه ببساطة مستحيل أن يكون لحبكِ منافس.

_ محظوظ هذا الرجل؛ يحظى باثنتين لا تتمنيان من الدنيا غيره.

_ أخبركِ أمرًا ربما لم أبُح به لأحد من قبل؛ ليلة زفافكِ إلى معاذ لم أستطع النوم، كنت أشعر بقلبي يؤلمني، ظللت فترة إلى أن استطعت أن أعود لطبيعتي وأتأقلم على الوضع، كل ذلك وهو لم يعدْني بشيء؛ لذلك أعلم أن ما بداخلك أصعب، سيمر الأمر لأننا نريد ذلك.

دخل معاذ قائلًا: هل سيطول حديثكما كثيرًا؟! لقد طلبت الطعام ووصل للتو، هل سآكل بمفردي كل مرة.

وقبل أن ينهي كلامه كانت الاثنتان تجريان خارج الغرفة، خرج وراءهما بدهشة، جلستا أمام الطعام بسرعة وإذ بهما تنظران لبعضهما البعض وتضحكان بشدة، رفع حاجبًا؛ فقد فهم ما جال بخاطرهما وخوفهما أن يأكل الطعام بمفرده كالمرة السابقة، فجذب الطعام تجاهه قائلًا: إذًا سآكل وأحلي بكما بعدها، وهذا أفضل عقاب.

أكل الثلاثة والابتسامة لم تفارقهم، وبعد فترة وقفت سلمى لتستأذن للمغادرة، لاحظت فيها حيرة معاذ، فقالت: سأذهب كما جئت، لا تشغل بالك، معي السيارة.

اتجه معاذ معها إلى الباب وهو يحثها على الاتصال به بمجرد الوصول ليطمئن عليها، فوجدها ترتفع على أطراف أصابعها وتضع قبلة على وجنته وتقول هامسة: لا تجعل يومًا يمر دون أن أراك.

وغادرت وتركته يمسك رأسه يحدث نفسه قائلًا: كيف ومتى يا ربي؟! الاثنتان تريدان رؤيتي كل يوم؟!

....

جلست رهف مع سلمى وحنين تقنعهما بالخروج؛ فهي تشعر بالوحدة، دخلت كريمة تبحث عن الفتيات، فاستمعت لكلام رهف، فقالت بشفقة على حالها: اذهبن معًا، حبيباتي؛ أنتن فعلًا تحتجن ذلك.

وهمت بالخروج وهي تكمل: هيا، كل واحدة تستأذن زوجها.

ذهبت كل فتاة لغرفتها، لتقف رهف بين الغرف تنظر لهاتفها بحزن تقول لنفسها: ألم يعدني بالعودة ومعه الزهور؟!

ودخلت غرفتها وهي تقرر الاتصال بشخص ما!

بعد فترة، استعدت الفتيات للمغادرة، ركبن سيارة رهف لتنطلق بهن أولًا إلى النادي وبعدها للتسوق.

في نفس الوقت، قرر باسم القيام بخطوة تجاه رهف، ففكر في التحدث معها في النادي؛ فقد لاحظ تواجدها يوميًّا وانطواءها من دون الحديث مع أحد، وقف أمام البوابة ينتظر وصولها ككل يوم، وأمسك هاتفه ليتصل بيحي ويستأذن منه القيام بتلك الخطوة.

جلس في سيارته ينتظر ظهورها وعيناه تبحث عنها في كل مكان، ليتفاجأ بها تركن سيارتها بجوار سور النادي، ومعها حنين وسلمى، كاد أن ينصرف شاعرًا بخيبة الأمل، ولكنه قرر دخول النادي خلفهن لعله يعثر على فرصة للحديث معها بمفردها.

أما الفتيات بمجرد أن أوقفت رهف السيارة قالت سلمى بشك: ما بكِ، رهف؟! كدنا نضيع بسبب عدم تركيزكِ!

أغمضت عينيها ولم تحاول الرد، لتقول لها حنين: أنتِ لستِ طبيعية منذ فترة، واليوم بكِ شيء غريب، ماذا حدث لكِ؟!

ردت رهف ولم تحاول النظر لهما وما زالت تنظر أمامها: هل أنتِ سعيدة، سلمى؟

دُهشت الفتاتان من هذا السؤال الذي في غير محله، ردت سلمى بعد أن أشارت إلى حنين بعدم التدخل: ما هذا السؤال الذي يسأله لي الجميع؟! هل لا تظهر عليَّ السعادة؟!

_ هل أنتِ سعيدة لأنكِ ستمضين معظم الوقت دون زوجكِ؟! هل سعيدة وأنتِ تعلمين أنه مع أخرى؟!

قالت حنين تحاول تدارك الموقف: رهف لا يصح هذا الحديث.

أكملت دون اهتمام: هل مقتنعة أن تتزوجي شخصًا بغرض الإنجاب؟ هل فكرتِ إذا أنجبتِ وأخذ الطفل لتربيه زوجته الأولى وحبيبة عمره؟!

صمتت سلمى أمام قسوة كلامها، ولم تستطع الرد، فصاحت بها حنين: اخرسي رهف، مؤكد أصابكِ شيء.

ردت بثورة: لا حنين، أنا أقول ما تحاولون جميعًا تجاهله، من منا لا يعرف حب معاذ لرحمة؟! فتح لها شركة تحمل اسمها، جعلها تشارك أعز وأنجح أصدقائه، معاذ يعيش من أجل تحقيق أحلام رحمة فقط؛ فهل هذا الزوج يتزوج بسهولة من أخرى أم هناك أسباب أخرى؟!

صاحت بها حنين: أية أسباب، أيتها البلهاء؟!

نزلت حنين من السيارة لتفتح الباب بجوار سلمى التي نظرت أمامها وكأن الدماء هربت من وجهها، وقالت بقلق وهي تحركها: سلمى، ماذا بكِ؟ تكلمي، حبيبتي.

لتكمل رهف كلامها وكأنها لم تدرك ما يحدث حولها: أنتما تعيشان في وهم، لا يوجد حب، حتى ولو كان تزوجكِ لأنه يحبكِ فسيكون خائنًا لزوجته التي أحبته، أنانيًّا يبحث عن السعادة على حساب قلبها.

في هذه الأثناء رن هاتف رهف لترد بغموض: نعم، نحن أمام النادي.

كل ذلك وباسم يقف بعيدًا يشاهد ما يحدث بتردد؛ هل هن يتشاجرن؟ ماذا يحدث؟ أيجب عليه التدخل؟

ليتفاجأ بسيارة من سيارات الدفع الرباعي سوداء اللون تقف أمام سيارة الفتيات، نزل منها ثلاثة رجال ضخام وكأنهم خارجون لتوهم من إحدى المسابقات القتالية، وفي لحظة أخرج الرجال زجاجات صغيرة رشوا بها على وجوه الفتيات ليغبن عن الوعي فورًا، وبسرعة حملهن الرجال للسيارة، وقبل وصول باسم لهم كانت السيارة تنطلق ومعها الثلاث فتيات.

الفصل السادس والعشرون

دائمًا ما تجد حولك الخائن الذي ينجح في استغلال الساذج الضعيف؛ إنها النفس الأمارة بسوء، حقيقة حولنا لا يمكن انكارها.

عاد باسم لسيارته يحاول اللحاق بهم، لا يستوعب كيف اختُطفت الفتيات أمام عينه، حتى هن لم يكن لهن فرصة الاستنجاد بأحد، قاد بسرعة يخشى اختفاء السيارة من أمامه في أي لحظة، واتصل بيحي ليقول بأنفاس متقطعة: الفتيات في خطر.

_ ليس عندي وقت لمزاحك.

_ هذا الكلام ليس فيه مزاح، رهف وسلمى وحنين خُطفن من أمام النادي، ثلاثة رجال قاموا برش مادة مخدرة عليهن، الأمر حدث في ثوانٍ، أنا خلفهم بالسيارة الآن.

لم يرد عليه بغير الصياح فيه؛ فأوقفه باسم قائلًا: لا وقت لعدم التصديق، أبلغ الشرطة، سأرسل لك خريطة الموقع، إنهم يذهبون باتجاه مكان ناءٍ، أحاول ألا يلاحظني أحد، لن أقدر عليهم بمفردي.

أغلق الخط وفتح خريطة التتبع في هاتفه وأرسلها، أما يحي فقد خرج من مكتبه يحاول استيعاب ما قاله باسم، واتصل فورًا بأحد أصدقائه من ضباط الشرطة ليخبره ما حدث، والذي بدأ على الفور بإعداد قوة للاتجاه لنفس المكان، وبالطبع أبلغ معاذ الذي لم يقل رد فعله عنه.

استقرت السيارة أمام أحد المنازل في أطراف المدينة، حاول باسم الوقوف بعيدًا بقدر الإمكان حتى لا يلاحظه أحد، فرآهم يحملون الفتيات إلى داخل المنزل، كاد يجن أمام هذا المشهد وهو مشلول الحركة، إن حاول اللحاق بهم بمفرده فمؤكد سينتهي أمره وأمرهن، ظل يراقب المكان من بعيد ولم تمر ثانية دون استقبال مكالمة سواء من يحيي أو معاذ؛ فقد كاد الاثنان يصيبهما الجنون.

....

أفاقت حنين لتجد ثلاثتهن ملقيات على أرض غرفة نوم قديمة مهملة، وهما بجوارها غائبتان عن الوعي، أصابها الذعر وأخذت تصيح بهما: سلمى، رهف، بالله عليكما ردا، أين نحن؟! يا الله!

بدأت الفتاتان في استعادة وعيهما، يرتجفن خوفًا مما قد يحدث، حتى دفع ثلاث رجال باب الغرفة، جذبهن للخارج وسط صرخاتهن المفزوعة، لتكون المفاجأة برؤية أمجد يجلس بأريحية على أريكة ممددًا قدميه أمامه باستلقاء، وما إن رأته حنين حتى صرخت فيه باحتقار: أيها الحقير، أوصلت بك الدناءة لهذا الحد؟!

رد بابتسامة عريضة تحمل من التشفي والشماتة الكثير: أنتِ هنا في عريني؛ فاحترمي نفسكِ ولا داعي لطول اللسان.

أطلق ضحكة مستفزة وأكمل: رغم أنكِ في كل الأحوال ستندمين عمركِ كله، أنتِ وحبيب القلب.

قالت رهف بصدمة واضحة: ألست صديق يحي؟ ألم تخبرني بخوفك عليه؟! أنا لا أفهم شيئًا!

التفتت لها حنين بشك قائلة: كيف عرفتِه؟ ليس صديقه، إنه حقير حاول الاعتداء عليَّ من قبل.

وضعت رهف يدها على وجهها تتحدث بندم وقد استوعبت المكيدة التي وقعت فيها؛ فقالت بقهر: أنا السبب فيما أنتما فيه الآن.

صفق قائلًا: هذا المشهد أعجبني، ما رأيكِ حنين؟ أوفيت بوعدي.

قالت سلمى لرهف بشك: كيف أنتِ السبب؟ ماذا فعلتِ بنا؟

ظلت رهف تبكي بقهر لتتذكر ما حدث منذ مدة في النادي

_ ما الأمر من فضلك بسرعة؟

_ أريد مساعدتكِ في كشف أمر خطير يخص يحي، ألا يهمكِ أمره؟

جذب اهتمامها؛ فأكمل: هناك مؤامرة تحاك ضده من معاذ وزوجته.

_ ماذا تقول؟! إنه رفيق يحي منذ الصغر، كيف تجرؤ على قول ذلك؟!

_ اسمعيني أولًا، أيعقل أن امرأة كرحمة توافق على زواج زوجها بهذه السهولة؟!

لم ترد، ليردف قائلًا: إنها خطتهما للاستيلاء على الشركة بأكملها؛ فبزواج معاذ من سلمى يستطيع ابتزاز يحي ليترك الشركة.

ليكمل بخبث وقد أوشك على الوصول لهدفه: أتعلمين ماذا ينويان؟ تخيلي ما يمكن أن يحدث لابنة خالتكِ، سيأخذ الطفل ليعطيه لزوجته حبيبة عمره بعد أن يرمي قريبتكِ في أول فرصة.

قالت بتشنج: وماذا بيدي أن أفعل؟

_ أريد أن أتمكن من الحديث مع سلمى وحنين لأكشف أمامهما الأمر؛ معاذ يؤثر على يحيى بدهائه وخبثه الذي يعرفه الجميع.

أنهت رهف تذكر ما حدث ودموعها تنهمر إدراكًا لمدى سذاجتها، نظرت سلمى إليه باشمئزاز وقالت: لو كنت رجلًا لما تكالبت على ثلاث فتيات، ولا لجأت لهؤلاء المأجورين لحمايتك منا.

استمر في ضحكه المستفز باستمتاع، وقال: يحيى ربى ثلاث قطط مفترسات ولكن مثيرات.

تحرك تجاههن بنظرات وقحة قائلًا: لا تتخيلن سعادتي بجلسة الاعترافات هذه لأنها تجعلني أتخيل شكل رجلكن الشجاع وأنتن تقصصن عليه ما حدث.

ما كان من سلمى إلا أن بصقت عليه، فجرها من شعرها وهو يصفعها قائلًا: واضح أنكِ متعجلة ما سيحدث معكِ لتبدأ الحفلة بكِ.

حاولت حنين ورهف تخليصها من يده، ولكن تكالب عليهما رجاله، فأخذ يقترب منهما بوقاحة لتصرخ به رهف وسط بكائها لتقول بارتجاف: انتقم مني أنا، صَفِّ حساباتك معي؛ ليس لهما ذنب.

اقترب قائلًا: أعجبتني فكرتكِ؛ أنا لا أفضل المتزوجات.

ظل يضحك أمام ذهولهن وجحوظ عيونهن، ليكمل: ولكني وعدت الرجال بحرية الاختيار بينكن.

تمسكت الفتيات ببعضهن بخوف، ليكمل وهو ينظر لحنين: ما رأيكِ؟ هل أعجبتكِ؟ الكل يخطف واحدة، وأنا خطفت ثلاثة! ضربة واحدة ستؤلم، ما بالكِ بالثلاثة؟ إنها في مقتل.

قالت حنين وقد بدأت في فقد أعصابها: هل تعتقد أنك لن تحاسَب؟!

رد بسخرية: وهل تعتقدين أن شيئًا كهذا غاب عني؟! طائرتي باقٍ عليها ثلاث ساعات.

ليقترب منها بخطر وهو يقول: سأنهي الأمر معكن وأطير؛ فلا يوجد ما أبكي عليه هنا، فقد طردني والدي بفضلكِ.

ضحك أمام صدمتهن وقد نجح في إفقادهن آخر أمل بالنجاة، وقال لأحد رجاله وهو يشير إلى رهف: أدخلها الغرفة وقيدها في السرير، فأنا أعلم حركاتهن جيدًا، لنبدأ بها الحفلة.

ليظل يضحك وسط صرخات الفتيات ومحاولتهن العابثة أمام هذه الحيوانات البشرية لإنقاذ رهف من يده.

وأخيرًا يشعر بالانتصار على يحي الذي كان دائمًا وأبدًا حاقدًا عليه وعلى حب الجميع له، رغم محاولاته جذبه لطريق اللهو ولكنه فشل، ظل ينظر لحنين زوجة غريمه التي كانت السبب في طرده من جنة والده؛ ليعايره بما وصل إليه يحي وما لم يصل هو له، ابتسم لأنها لم تعد تستطيع المقاومة وجذبها من شعرها قائلًا: جاءت لي فكرة أجمل، ما رأيكِ أن تشاهدي ما سيحدث لتقصيه جيدًا على زوجكِ؟

حاولت سلمى تخليص حنين من يده، ولكن منعها الرجلان لينهالا عليها ضربًا محاولين الاعتداء عليها بعدما جذب أمجد حنين للداخل، لتجد رهف وقد قيدها الرجل في الفراش يتهجم عليها وسط توسلاتها، فصرخ أمجد فيه: اذهب الآن وانتظر دورك.

خرج الرجل من الغرفة بقنوط، وأمام صراخ حنين ونعته بأبشع الصفات انهال عليها ضربًا محاولًا التهجم عليها وهو يقول: أعتقد القليل منكِ لا يمنع.

سقطت أرضًا غائبة عن الوعي، اتجه لرهف التي أغمضت عينيها من شدة الخوف وقد سلمت أمرها لله، أما سلمى تكالب عليها الرجلان بالخارج، فقد كانت أقواهن لتظل تصرخ تحاول الخلاص منهما.

في نفس الوقت خارج المنزل

وصل معاذ ويحي وقابلا باسمًا، ليقفوا لحظات لم يستطيعوا فيها السيطرة على أعصابهم، ثار يحي على صديقه الضابط عبر الهاتف: كيف أنتظر،

مصطفى؟! كيف تطلب مني الصبر؟ أتفهم؟! زوجتي وأختاي بالداخل مخطوفات وأنت تطلب مني الانتظار حتى وصولكم!

وقبل أن يغلق الهاتف كان قد تحرك ثلاثتهم باتجاه المنزل، فلم يعد الأمر يحتمل الانتظار، وما إن اقتربوا حتى سمعوا صراخًا، صاح معاذ بذعر: إنه صوت سلمى.

بسرعة تكاتفوا على الباب لكسره، ليقابلهم أحد الرجال وقد أفشى فيه الثلاثة غليلهم، فما كان منه إلا أن هرب بعد إدراكه مصير الآخرين، وبمجرد دخولهم المنزل، شاهدوا أبشع منظر ممكن أن يتخيله رجل، فقد تكالب الرجلان على سلمى، ولحسن حظها قد وصلوا في الوقت المناسب، لينهال عليهما الثلاثة ضربًا، صرخت بهم سلمى وهي لا تستطيع أن تقف على قدميها، تستجديهم الإسراع: رهف... رهف وحنين بالداخل.

سبقهما باسم للداخل، ليظل يحي ينهال ضربًا على أحد الرجال الذي لم يتمكن من الهرب، ثم تركه لمعاذ الذي استطاع بكل ما يملك من نخوة ورجولة أن يودي به أرضًا لا يستطيع التحرك، وأخذ سلمى بين ذراعيه بعد أن خلع سترته ليضعها عليها.

دخل باسم الغرفة ليُصدم بأمجد وأنه وراء كل ما يحدث، جذبه من عنقه كثور هائج عندما شاهده يتهجم على رهف، وانهال عليه ضربًا: أيها القذر! تنتهك الأعراض يا عديم الشرف!

وما إن دخل يحي وشاهده حتى اكتملت أمامه الصورة، وبكل شراسة أسد جريح يثأر لنفسه ولعرضه كاد يموت في يده، يصرخ به بكل ما أوتي من ألفاظ وضيعة لأمثاله.

أتت الشرطة بالخارج وقد قبضت على الرجلين، ولم تستطع اللحاق بالثالث الذي نجح في الهرب، وخلصوا أمجد من يد يحي قبل موت محقق كان في انتظاره.

اتجه باسم لرهف الملقاة على الفراش يحاول فك قيودها وهي ترتجف في حالة يرثى لها مغمضة العينين لا تحاول فتحهما.

دخل معاذ يحتضن سلمى ليرى هذا المشهد المُريع؛ فقد كانت حنين على الأرض غارقة في دمائها، جلس على قدمه يقيس لها النبض، ليصرخ في يحي الذي ترك أمجد أخيرًا لرجال الشرطة، ووقف يدور حول نفسه بذهول، ينظر لزوجته على الأرض غارقة في دمائها، وسلمى التي تلتصق بالحائط تحتضن نفسها بذعر لا يظهر وجهها من قسوة ما واجهه، وخلفه رهف يفك باسم قيودها غير واعية لما يحدث، ممزقة الثياب، دقائق قليلة رأى فيها يحي أبشع ما يمكن أن يتخيله.

وأمام هذه الحالة التي انتابته من الذهول والإحساس بالعجز، صرخ به معاذ: أفق، يحي، لا وقت لما أنت عليه، إنها تنزف.

صاح بصوت مرتفع: إسعـــــــــــاف، يحي، تحرك وإلا حملتها أنا، واضح أنها كانت حاملًا.

خلع يحي سترته وأعطاها لباسم ليضعها على رهف، وقد ظل باسم يحاول طمأنتها من دون فائدة.

_ رهف، أنتِ بخير، افتحي عينيكِ، أنتِ بخير، كلنا هنا بجوارِكِ، لا تخافي، رهف، انظري لي، أنتِ بخير.

حمل يحي زوجته، وخلفه معاذ وقد أخذ سلمى بين ذراعيه تتشبث بصدره، وصلت سيارة الإسعاف التي استقبلت حنين ليركب معها يحي، وخلفها سيارة معاذ، لم تكف سلمى عن البكاء والصراخ باسم حنين، حاول طمأنتها وعلى لسانه جملة واحدة: الحمد لله، كلكن بخير.

أما رهف فقد ظلت على حالتها تخشى فتح عينيها، اضطر باسم أن يحملها إلى أن وصل إلى سيارته ليريحها على الكرسي بجواره، يحاول إخراجها من هذه الحالة، يسكب المياه على وجهها ويخبط بأصابعه على وجنتها: رهف، افتحي عينيكِ، أنتِ بخير، أنا باسم، هل تعرفينني؟ انظري لي، افتحي عينيكِ، رهف، سيقف قلبكِ.

بدأت تستجيب له، وما إن فتحت عينيها ورأته أمامها حتى رمت نفسها بين ذراعيه وقد تحررت عيناها أخيرًا لتجهش بالبكاء، وأمام صدمته من رد فعلها، ربت على كتفها وأبعدها بهدوء، قاد السيارة باتجاه المشفى، وظلت ترتجف باكية تصرخ كل دقيقة والأخرى.

وقف يحي أمام غرفة العمليات وما زالت تنتابه حالة الذهول، قال معاذ بمواساة: ستصبح بخير، الحمد لله، قدر ولطف.

_ لمَ كل هذا؟! ماذا فعلت به لينتهك عرضي؟!

_ سيأخذ جزاءه، الحمد لله الذي أرسل باسم في الوقت المناسب.

أمسك برأسه كأنه لم يسمعه وقال: ماذا كان سيحدث لو تأخرنا؟ لا لا، ماذا كان سيحدث لو لم يرَ باسم ما حدث؟! رأسي سينفجر.

_ استغفر الله، إنها رحمة ربك.

في هذه الأثناء كانت سلمى ورهف بداخل إحدى حجرات المشفى ومعهما الطبيبة تقوم بعمل الإسعافات اللازمة لهما، فاتجه معاذ للغرفة ليجد باسم واقفًا ليقول بمجرد أن رآه: كيف حال حنين الآن؟

رد معاذ بإرهاق: ما زالت في غرفة العمليات.

وصمت قليلًا ليردف: شكرًا، باسم.

_ حتى لو لم أكن أعرفهن كنت سأفعل نفس الشيء.

دخل معاذ الغرفة ليجدهما منكمشتان: سلمى، هل أنتِ بخير؟

ردت بوهن: الحمد لله... الحمد لله.

_ رهف، كيف حالكِ الآن؟

لم تنطق بكلمة وأجهشت بالبكاء؛ فقال بقلق: رهف، هل بكِ شيء؟

ظلت تبكي وتخفي وجهها؛ فنظر إلى سلمى وقد بدأ يشك في أمرها قائلًا: ماذا أصابها؟

_ اطمئن، هي بخير، المهم الآن أن نطمئن على حنين.

_ سأعود لأطمئن عليها، كانت لا تزال في غرفة العمليات.

وقبل أن يغادر الغرفة، وقفت رهف وقالت: أريد أن أذهب إليها.

وأمام غرفة العمليات، انضمت لهم رحمة التي علمت ما حدث من معاذ عبر الهاتف، دقائق وخرج الطبيب قائلًا: الحمد لله، هي بخير، ولكن فقدت الجنين.

ربت معاذ على كتفه وقال: عوض الله عليك، الحمد لله أنها بخير.

صرخت رهف بهستيريا: أنا السبب... أنا السبب.

انتبه الجميع لما قالت، فنظر لها يحيي بحدة وقال: أطمئن على حنين أولًا، وبعدها أرى كيف كنتِ السبب.

الفصل السابع والعشرون

خرجت حنين من غرفة العمليات، ظل يحي جوارها إلى أن استفاقت واستوعبت ما حدث، أجهشت بالبكاء بقهر بين ذراعيه وهي تضع يدها على بطنها وتقول: كان عندي طفل، كان هنا طفل.

قال بألم يحاول إخفاءه للتخفيف عنها: حمدًا لله على سلامتكِ، حبيبتي، الحمد لله أنك بخير.

_ كنت أنتظره، لماذا حدث ذلك؟!

_ لله حكمة في ذلك.

ليكمل وهو يحاول الابتسام مخففًا عنها: غدًا نأتي بغيره، اهتمي أنتِ بصحتكِ ولا تحملي هم هذا الأمر.

دخلت الفتاتان الغرفة، ابتسم يحي للجميع ممتن لله على سلامتهن، وقف ليأخذ سلمى ورهف بين ذراعيه وقبل جبهتيهما، وقال: أخرجاها مما هي فيه بأي شكل، هل سمعتما؟

بالخارج وبمجرد دخول الفتاتين قال باسم لمعاذ بأسف: حذرته منه، أنا أعرفه أكثر منكما، وأعرف أنه لن يترك الأمر ينتهي بسلام، إنه يتعاطى منذ سنوات، وكثيرًا ما يكون غير مدرك لما يفعل.

_ وهل تخيل أحد أن تصل به الحقارة لهذه الدرجة؟ هل تعرف كيف عرف رهف؟ إنها هنا منذ فترة قصيرة، كيف عرف بوجودها؟!

قال باسم بدهشة: ماذا تقصد؟

_ واضح أنه عرف مكانهن عن طريقها.

رد باسم بأسف: مؤكد يوم عقد قرانك على سلمى.

_ كيف وهو لم يحضر من الأساس؟!

_ تركتم الباب مفتوحًا بعد دخول رهف، فدخل ولم يره أحد.

_ لهذا ظللت موجودًا ولم تغادر.

_ أجل، تشاجرت معه لكي يرحل، كان قد أتى ينوي استفزاز الجميع.

في هذه اللحظة خرج يحي وترك الفتيات معًا بالغرفة، وقف قبالة باسم ليقول له بامتنان: جميلك في رقبتي طوال العمر.

_ لا تقل هذا الكلام، لم أكن لأسامح نفسي لو كان حدث لهن مكروه.

رن هاتف يحي ليجد المتصل والدته، بالطبع قلقت على الفتيات بعد أن اتصلت على هواتفهن ولم تجد الرد، تظاهر بالهدوء قائلًا: هن معي أنا ومعاذ، لا تقلقي، مؤكد الهواتف نسينها في السيارة.

دخل الجميع الغرفة للاطمئنان على حنين، ليوجه معاذ حديثه ليحي: بعد إذنك، سلمى ستعود معي اليوم، لن أستطيع تركها بهذه الحالة.

حرك يحي رأسه بالموافقة، وقال: المشكلة ماذا سنقول لوالدتي والفتيات بهذا الشكل، وخصوصًا حالة حنين.

رد معاذ وكأنه فكر في هذا الأمر: سنقول الحقيقة، أنها أجهضت أثر حادث، ولكن لا داعي لذكر ما حدث معهن.

ليصمت قليلًا وينظر لرهف التي أبعدت نظرها عنه غير قادرة على مواجهته، ليكمل: حادث سيارة تسببت به رهف.

بعد الاطمئنان على حنين، غادر معاذ مصطحبًا سلمى ورحمة التي رحبت بدورها بعودة سلمى معهما!

ظل باسم يقف مترددًا خارج الغرفة يريد الاطمئنان عليها، ينتظر خروجهم ليغادر هو الآخر، وجد رهف تخرج من الغرفة أخيرًا لتترك حنين مع زوجها تستعد للمغادرة، وبمجرد أن رآها اتجه لها بابتسامة هادئة قائلًا: كيف حالكِ الآن؟

حركت رأسها ولم تحاول رفع نظرها له، كل ما يجول بخاطرها في هذه اللحظة كيف رآها بهذا المنظر، وكيف سيفكر فيها بعد الآن.

_ لم أُرد الذهاب إلا بعد أن أطمئن عليكِ.

ظلت صامتة تنظر أرضًا، لا يعرف ما يجول بخاطرها في هذه اللحظة، ولكنه قرر ألا يضغط على أعصابها، فيكفي ما هي فيه، ليقول محاولًا فتح حديث: أرسلت صديقًا لسيارتكِ ليتأكد من إغلاقها، وغدًا بإذن الله سأحضرها لكِ أمام المنزل، حقائبكن وهواتفكن في السيارة، لا تقلقي.

لاحظ محاولتها كبت دموعها؛ فقال: كنت لن أسامح نفسي أبدًا لو مسكِ أي سوء، وكأن قلبي ما جعلني أنتظركِ اليوم أمام النادي.

رفعت رأسها تنظر له بشك، تحاول أن تتأكد مما قال؛ فابتسم بسعادة لتجاوبها وأردف: أعلم ذهابكِ للنادي كل يوم في نفس الموعد، أراكِ دائمًا هناك، الحمد لله الذي أرسلني اليوم في الوقت المناسب.

وضعت يدها على وجهها تحاول كتم شهقاتها، فها هو غباؤها جعلها تضيع اللحظة التي انتظرتها كثيرًا.

_ رهف، لماذا البكاء الآن؟ جميعكن بخير، الحمد لله.

جذب يديها يبعدهما عن وجهها، وظل ممسكًا بهما لتقف عن البكاء أمام مفاجأتها؛ فقال بابتسامة أسرتها وما زال ممسكًا بيديها: أريدكِ أن تعودي كما كنتِ، منطلقة تملئين الدنيا بهجة.

خرج يحي بصحبة حنين؛ فترك باسم يدَي رهف والتي لم تحاول جذب يديها، لا يعلم هل بسبب حالتها أم ارتاحت يدها بين كفيه كما ارتاح هو، اتجه إلى يحي قائلًا: هل تريد أي مساعدة، قبل أن أغادر؟

_ شكرًا باسم، يكفيك هذا اليوم، اذهب لترتاح ولنا كلام غدًا.

....

بعد فترة في منزل كريمة، وبمجرد دخول يحي يحمل حنين يتجه بها إلى الغرفة وبجواره رهف تخفي نفسها في سترته، قالت كريمة بذعر: ماذا حدث؟ ماذا أصابهن؟ انطق أين سلمى؟

_ بخير أمي وحدثتكِ، عادت مع زوجها، هل أمنعه من أخذ زوجته؟!

_ ماذا حدث؟؟

قالتها وهي تصعد خلفه تحتضن رهف بقلق؛ فقال: حادث سيارة، الحمد لله، هن بخير، وسلمى لو كان بها مكروه لم أكن لأتركها.

صمت يفكر كيف سيخبرها بأمر حنين، دخلت رهف غرفتها بسرعة تخشى الآتي، ودخل يحي غرفته، وضع حنين برفق على الفراش، جلس جوارها ونظر لوالدته التي تقف بريبة ليقول: حنين كانت حاملًا أمي، حدث لها نزيف بسبب الحادث.

_ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عوضكما الله خيرًا منه، بنيَّ.

قالت كلماتها وهي تحاول كتم شهقاتها لتجلس بجوار حنين لتحتضنها، وظلت تربت عليها محاولة تخفيف ما بها.

ترك حنين مع والدته وذهب إلى رهف ليفهم ما حدث، طرق باب غرفتها، فتحت له بتردد وخوف تخشى مواجهته.

....

دخلت سلمى المنزل بارتباك لا تعرف كيف ستمر هذه الليلة، تندم على موافقتها العودة معهما، الموقف محرج ولكن لم يكن أمامها مجال للاعتراض؛ فهو زوجها، ويحي نفسه لم يرفض.

أما رحمة، فقد وقفت بداخلها ألف تساؤل رآه معاذ بعينيها رغم محاولتها الظهور طبيعية، ولكنه رتب لكل شيء ليقود هو الدفة.

ظل صامتًا لم يستطع نسيان منظر سلمى وهي تصرخ باسمه وباسم أخيها، اقترب منها يضمها يحاول إطفاء الحريق الهائج بداخله، وأخذ رحمة تحت

ذراعه الأخرى، وأخيرًا بعد كل هذا الصمت، قال وهو ينظر لسلمى: لم أكن لأرتاح إلا وأنت أمام عيني.

ونظر لرحمة قائلًا: خذي سلمى لتبدل ثيابها لا أريد رؤيتها مرة أخرى، اعتنيا ببعضكما الليلة، سأنام في الغرفة الأخرى.

أنهى كلامه وابتعد، أما هما فقد تقبلتا الأمر براحة شديدة؛ فكل منهما كانت تنتظر لحظة مبيته مع الأخرى، فمهما كان حدود قبولهما للوضع فالأمر في الواقع أصعب بكثير.

....

دخل يحيي غرفة رهف التي ترددت في فتح بابها خوفًا من مواجهته، وقد أبدلت ثيابها؛ فشكر الله على ذلك، لم تحاول النظر إليه، جلس على حافة الفراش، جلست بتردد وارتباك مبتعدة عنه على غير عادتها تنتظر ثورته، لومه، أي شيء، ولكنه لم يتحدث؛ فقالت بانكسار: أعلم أني أخطأت، مهما قلت فلن يعوضك طفلك.

أطلقت العنان لشهقاتها، أكملت وما زال ينظر إليها بجمود وقالت: بعث رسالة لي على الهاتف يريد مقابلتي في النادي، ظننت أنه باسم بعدما توقف عن إرسال الزهور، ذهبت إلى النادي لأجده ليس هو، عرفته لأني رأيته يوم عقد قران معاذ وسلمى.

لتكمل وهي تبكي بقهر: أقسم لك إني كنت سأرحل لولا أنه أصر أن الأمر يخصك وأن معاذًا ورحمة يدبران لإذلال سلمى من أجل تنازلك عن

الشركة، وإن أنجبت سلمى فسيأخذ الطفل منها ليعطيه لزوجته، فهي الوحيدة التي يحبها.

قال بعد صمت زادها توتر: كيف عرف بموعدكن اليوم؟

وبرهبة تتشابك أصابعها بتوتر قالت: أقنعني أنك لن تصدق شيئًا عن صديقك، وأنه لا بد أن يخبر حنين وسلمى؛ لذلك أخبرته بموعد ذهابنا.

زاد بكاؤها وأكملت: والله توسلت إليه أن ينتقم مني أنا ويتركهما.

رق لها قلبه أمام كلماتها الموجعة، وجذبها إليه قائلًا: كيف تتصورين أنكِ أقل منهما أهمية بالنسبة لي؟!

انخرطت في البكاء وهي تتمسك بقميصه بشدة تحاول أن تستمد منه الأمان، تذكر شكلها وهي مقيدة اليدين ترتجف بخوف تنتظر مصيرها، أغمض عينيه يحاول نسيان ذلك المشهد المريع، ضمها بشدة يطمئنها؛ فهي لا تتحمل أي عتاب، فقط تحتاج أن تشعر بالأمان، قال وهو يغمس يده في شعرها يريد الوصول لرأسها: وهل غباؤكِ الذي أقنعكِ بمخطط معاذ ورحمة هو نفسه الذي أقنعكِ أنكِ لست مهمة بالنسبة لي لأضحي بكِ بسهولة؟! يا غبية، أنتِ ابنة خالتي قبل أن تكوني أختي بالرضاعة، من دمي، أختي فعلًا بدليل أنكِ محرمة عليَّ، كيف أقبل أن يمسكِ سوء؟!

أخذ نفسًا يحاول به إخراج شحنات الغضب بداخله؛ ليكمل: انسي الأمر، الحمد لله، ثلاثتكن بخير، الطفل يُعوَّض، المهم أنتن.

مسح دموعها وهو يبتسم، حملها ووضعها على الفراش لتنام، أُحكم عليها الغطاء قائلًا: لا تفكري في أي شيء، سأظل جوارِكِ حتى تنامي.

احتضنته بشدة، قبل جبهتها بود وقال: سأجعل أمي تنام معكِ الليلة، ولكن احذري من التخريف بأي شيء أمامها.

أغمضت عينيها؛ فقال: ولنا كلامًا آخر بخصوص موضوع باسم.

أغمضت عينيها بشدة ولم تحاول الرد؛ فابتسم أمام تصرفها الطفولي وظل جوارها إلى أن تأكد من نومها، ثم غادر.

الفصل الثامن والعشرون

_ هل تعتقدين أن ما حدث لي اليوم هو ذنبكِ؟

دُهشت رحمة بشدة مما لفظت به سلمى، وقالت: أي ذنب؟!

دخلت سلمى في نوبة بكاء وهي تقول: تذكرت لحظتها أني استغللت الفرصة لأتزوج من أحب، حتى ولو كان على حساب مشاعركِ.

اقتربت منها تضمها بشفقة؛ فهي تشعر بقسوة ما تعرضت له وقالت: لا داعي لهذا الكلام، زواجك من معاذ كان برضائي وكامل إرادتي، وحتى لو لم يكن كذلك فمستحيل أن أتمنى لك السوء، والحمد لله، أنتِ وأختاكِ بخير، وهذا يكفي كي ننسى ما حدث ونصلي لله شكرًا.

_ أشعر بالإهانة وقد رآني زوجي بعد أسبوعَي زواج في هذا الموقف.

_ مؤكد كل الأفكار السلبية ستأتي بعقلكِ اليوم بعد ما مررتِ به، دعينا نتفق ألا نتحدث في شيء اليوم إطلاقًا، سنخرج الآن نتناول أي شيء لنعود وننام، اتفقنا؟

لتكمل وهي تغمز بعينها: أم تريدين النوم في أحضان شخص آخر؟

جذبتها للخارج، لتجدا معاذًا طلب بيتزا وقد وصلت بالفعل، وظل جالسًا ينظر للطاولة دون أن يتحرك، جلس الجميع، ولكن على غير عادة لم يحاول معاذ أن يأكل شيئًا، حاولت رحمة كسر حاجز الصمت، ولكنه لم يتجاوب، فوقفت سلمى قائلة بانكسار: أحتاج النوم، عن إذنكما.

بمجرد دخول سلمى الغرفة، قالت له رحمة بعتاب: لماذا، معاذ؟!

قال بألم: لم أستطع النظر إليها؛ كلما نظرت إليها تذكرت ما حدث.

_ لم أعهدك أنانيًّا ولا بهذه القسوة، ما ذنبها؟! وما دام هذا شعورك لماذا أحضرتها إلى هنا؟! كنت تركتها مع عائلتها.

_ أشعر أن لي يدًا فيما حدث لها، لم يمر أسبوعان على زواجي منها، أتتصورين ماذا كان بداخلي عندما سمعت صراخها وأنا خارج المنزل؟! أتتخيلين إحساسي عندما شاهدتهم...؟!

أخذ نفسًا عميقًا وأردف: لم أتعمد إشعارها بشيء، أنا أشعر بالإرهاق.

_ اذهب لها، طمئنها بوجودك جوارها، ولكن لا تتأخر بالداخل من فضلك، وتذكر أنها غرفتي.

أنهت كلامها بابتسامة هادئة، بادلها إياها بود وقبل جبهتها، وذهب لسلمى التي ما إن دخل الغرفة حتى وجدها منكمشة في الفراش تضع الوسادة على رأسها وتبكي، جلس جوارها وجذبها لتجلس، قربها إلى صدره وقال: لا أريد أن أرى الدموع في عينيكِ مرة أخرى، حبيبتي علينا اجتياز ما حدث، والحمد لله الجميع بخير.

نظرت إليه بابتسامة وكأنها لم تبكِ، فقال وقد ارتفع حاجباه بدهشة: ما هذا التحول؟!

ردت بسعادة: أول مرة تقول لي 'حبيبتي'!

شعر بالاختناق؛ ألهذا الحد يجرحها دون أن يشعر؟! وقال: إذًا، حبيبتي، لا بد أن تنامي الآن، وأنا سأذهب لأنام أيضًا لأن هذا المكان خاص بأخرى، يجب علينا احترام مشاعرها، وأنا هكذا سأتهور.

قالها وقبل جبهتها وغادر.

نامت رحمة وسلمى في هدوء، ليدخل معاذ الغرفة محاولًا ألا يُصدر صوتًا؛ فقد شعر بحاجته للاطمئنان عليهما؛ ليظل ثوانيَ ينظر إليهما قبل أن يغلق الباب ويذهب للنوم يسأل نفسه هل يستحق حبهما؟

بعد يومي عادت سلمى لمنزل والدتها وقد وعدها معاذ بحل لهذا الوضع في أسرع وقت.

....

مرت عدة أيام، تذكرت كريمة حديثها مع عفاف عن سليم، فقد تخيلت أنه سيحاول استرجاع ابنته؛ فدائمًا كانت كأملاكه لا يحق لأحد الاقتراب منها، ولكنه لم يظهر، انتظرت يحي عند عودته من العمل، وبمجرد دخوله المنزل قالت: لقد انشغلنا بأمر الحادث وحالة حنين، ونسينا السؤال عن عمك.

وضع يده على جبهته قائلًا: نسيت الأمر تمامًا.

_ ابحث وراء عمك؛ فالأمر غير مطمئن.

_ غدًا بإذن الله.

قبل رأس والدته واتجه للسلم ليصعد، ولكن اصطدم برهف، دُهش من انتظارها له؛ فقد حاولت بقدر الإمكان تجنبه، انتبه لحقيبة سفر بجوارها! فقال بغضب: ما هذا؟!

قالت بهدوء: سأعود إلى أبي، وجودي هنا ليس له مبرر.

هتف بها بحدة: هل أصابكِ الجنون؟! منذ متى تسافرين دون إذني؟! هل الآن تفضلين العيش هناك؟! وكيف وجودكِ هنا ليس له مبرر؟!

_ كان يجب من البداية أن أتأقلم مع وضعي والعيش مع أبي، وليس الهروب عندكم وتحميلكم همومي.

سمعت كريمة ما دار فصعدت السلم قائلة: أي هموم؟ ماذا أصابكِ؟! طوال عمركِ مثلكِ مثل حنين وسلمى لم أفرق يومًا بينكن.

حاولت رهف الحديث ولكنها صاحت بها مرة أخرى قائلة: لي فيكِ أكثر من أبيكِ، أنتِ قطعة من أختي التي انفطر قلبي عليها شابة ليعوضني الله بكِ تكبرين أمام عيني، ترضعين مني وتكونين قطعة مني كما أنتِ قطعة منها.

حاول يحيي تهدئة والدته، فقال: لم تقصد أمي، مؤكد تعاركت كالعادة مع حنين أو سلمى، سأتحدث معها قليلًا وأعدكِ ألا تسمعي منها هذه السخافات مرة أخرى.

جذبها بغضب ليُدخلها غرفتها ويغلق الباب خلفهما بقوة، تراجعت بظهرها برهبة وخوف وكأنها تخشاه، كذَّب نفسه وحاول الاقتراب منها؛

فوجدها تخفي وجهها بيدها، قال بصدمة: أتخافين مني رهف؟! لم أمد يدي عليكِ من قبل؛ ماذا حدث؟

قالت بصوت مهتز: حدث أني أضعت حلم حنين في إنجاب طفل، حدث أني فقدت ثقة سلمى بعد شكي في زوجها، حدث أني خيبت ظنك بي، حدث أني خسرت الشخص الوحيد الذي دق قلبي له، فقدت الإنسان الوحيد الذي أحبني.

مسح على وجهه يحاول استيعاب كلامها؛ فمؤكد ما مرت به جعلها تصل لكل هذه التخيلات، وقال: من قال لكِ كل هذا؟!

قالت بانفعال: الكل يتجنبني، حنين لا تخرج من غرفتها، سلمى لم تحاول الحديث معي، حتى أنت.

_ حنين حالتها الصحية لا تجعلها تتحرك كثيرًا، ومؤكد حزنها على الجنين يجعلها منعزلة، كان يجب عليكِ أنتِ وسلمى إخراجها من هذه الحالة، ولكني راعيت ما أنتما فيه، أما الأخرى فالأمر ليس له علاقة بكِ نهائيًّا؛ هي فقط تحتاج زوجها ولا تستطيع أن تطلب منه ترك رحمة، أما بالنسبة للإنسان الوحيد الذي أرادكِ؛ فما زال متمسك بكِ، والأغرب أنه بعد أن كان يتسم بالبرود أصبح وكأنه أمسك بسلك كهربائي أعاد شحنه ليصبح كتلة نشاط!

نظرت له بدهشة وحركت رأسها بعدم فهم، قائلة: كيف؟!

ابتسم بعد تغير حالتها، ليقول: أخيرًا وبعد ذهاب وإياب وسفر وترحال، قرر العمل معي من أجل صاحبة العينين الكحيلتين.

وقبل أن يتركها التفت لها قائلًا: أعيدي حقيبتكِ، ولا أريد سماع هذا الهراء مرة أخرى.

دخل غرفته فوجد حنين على حالتها السابقة كما تركها، اتجه لها قائلًا: حبيبتي وحنين قلبي، هل ستظلين على هذه الحالة كثيرًا؟

لم ترد عليه؛ فجلس جوارها وضمها إلى صدره وقال بدفء: مؤكد تعرفين قصة العبد الصالح، عندما وجد غلامًا فقتله، سأله موسى 'أتقتل نفسًا بغير حق؟' فأجابه أن الله أعلمه أن الغلام سيصبح كافرًا إذا كبر وأن والديه صالحان، وأراد الله أن يموت الغلام ليرزق أهله خيرًا منه، لله حكمة في أمره؛ لعله لم يكن خيرًا لنا، حبيبتي.

لم تحاول التحدث؛ فقال: عديني ألا أراكِ هكذا مرة أخرى.

حركت رأسها لتعده رغم عدم اقتناعها، تؤكد لنفسها أنه مستحيل أن يشعر بوجع أم فقدت جنينها إلا أم مثلها.

....

أنهى يحيي أعماله وانصرف ليذهب إلى عمه كما وعد والدته، تفاجأ بهدوء الشركة النسبي عن ذي قبل، أخبرته السكرتيرة أن عمه لم يدخلها منذ فترة، صاح بها قائلًا: كيف لم يخبرني أحد؟! وكيف تسير أمور الشركة؟!

لترد عليه بتوتر: أستاذ يحيى، أنا لم أرَك إلا مرة واحدة، ولا أعرف كيفية الاتصال بك، سليم بيه أنهى معظم التعاقدات، وأي أوراق تحتاج التوقيع أو الاطلاع ترسل إليه في المنزل.

غادر الشركة على عجل، يشعر بتأنيب الضمير؛ كيف يترك الرجل دون السؤال عنه بعدما أخبره عن وضع ابنته؟!

دخل المنزل الذي كان يومًا يشع بهجة وحياة، والآن مظلمًا كمقبرة كبيرة هجرت منذ زمن سحيق، قابلته صباح بترحاب شديد؛ فقال بذهول: ما كل هذا الظلام وما زلنا ظهرًا؟! افتحي النوافذ، أين عمى؟!

قالت بتوتر: بالأعلى في غرفته... هو... هو من أمرني بعدم فتحها؛ فهو لا ينزل إلى الأسفل نهائيًّا، حتى الطعام يأكله في الغرفة.

صعد يحيى السلم دون أي حديث آخر، اتجه للغرفة التي يعرف مكانها جيدًا، طرق الباب عدة مرات، ودخل بعد فترة بتردد دون أن يؤذن له بالدخول.

الفصل التاسع والعشرون

دخل غرفة عمه برهبة، وجده جالسًا على كرسيه بجوار النافذة يبدو وكأنه ظهر عليه علامات السن فجأة؛ ذقنه غير المهذبة، شعره غزاه الشيب بعد أن كان يسعى لإخفائه، جسده زاد نحافة وأصبح هزيلًا، وقف خلفه ولم يحاول عمه الالتفات وكأنه لا يهتم لدخول أحدهم الغرفة؛ فقال: ماذا يحدث لك؟ لماذا تفعل ذلك؟

رد عليه دون أن يلتفت: وهل يهمك أمري؟!

_ هل عندك شك في ذلك؟ وحتى لو لم يهمني فهو يهم زوجتي، ابنتك.

ضحك بسخرية قائلًا: ابنتي التي لم تجد الأمان بجواري، ابنتي التي تعرضت لمحاولة اعتداء وهي في حمايتي، مرة واثنتين وأنا لا أشعر؟! أم ابنتي التي تزوجتها بالتهديد بفيديو فاضح، ابنتي التي هربت مني لتذهب إليك؟!

_ المهم أنها بخير.

قال بوهن: وكيف أسامح نفسي بما وصلت إليه، وبعدما ابتعدت عني ابنتي الوحيدة التي عشت عمري كله لأجلها؟!

رد محاولًا إزالة أي ضغينة بداخله تجاهه: قدرها أن تمر بكل ذلك.

_ لقد قصمت ظهري، أنت ربحت في النهاية لتكون هي الجائزة، جعلتك تفوز بالشركة أيضًا، ألم يكن ذلك حلمك؟ ستجد توكيلًا عامًّا مع المحامي باسمك، خذها كما أخذت حنين، وأنا سأسافر.

اقترب يحي ليجذب كرسيًّا ويجلس أمام عمه الذي لم يحاول النظر له طوال حديثه، وقال: أخذتها زوجة وليست صفقة أو ربحًا؛ حنين بالنسبة لي حياة، روحي في جسد آخر، لم يكن يومًا وجودها بيننا تخليص حسابات، وإلا لما كانت تمر سنوات وهي بعيدة عني دون أن أحاول استغلالها ضدك، أما الشركة، فستظل شركتك أنت ووالدي، لم أكن أطلب يومًا أكثر من حقي، وأنت من رفضت إعطائي هذا الحق، ومع ذلك لم أقف أمامك، أنت من تعمدت كسري.

_ لو كنت أكرهك أو لا أريد وجودك معي ما كنت تركت كل شيء كما هو إلى الآن.

تساءل بعدم فهم: ماذا تقصد؟

_ أعلم جيدًا أنك سترثني آجلًا أو عاجلًا، لو كنت لا أريد وجودك لكنت منعت هذا الميراث من أن يصل لك وكتبت كل شيء لحنين، ولكني ورغم رفضي زواجها منك كنت واثق أنك حمايتها من بعدي، حتى وإن كانت قد تزوجت غيرك، أعلم أنك سوف تحمي مالها ولن تطمع به، ولكنك غبي؛ فضلت العيش بدور الضحية.

ظهرت عليه الدهشة؛ فلأول مرة يسمع هذا الكلام من عمه، هل ما حدث كسره بهذا الشكل؟! أم أضعفت السن قواه ليستسلم في النهاية؟!

نظر له عمه نظرة مطولة، وأكمل قائلًا: أتعلم، زواجك منها أراحني.

ابتسم يحي بسخرية وقال: بعد الشريط الفاضح الذي تتحدث عنه؟!

_ لم أزوجها لك بسبب تهديدك الغبي؛ علمت يومها من صباح ما حدث بعد أن سمعت ذلك الحقير في الحديقة، آلمني أن تكون أنت أمانها أكثر مني، وبكني ارتحت لوجودها معك، زوجتها لك لتحميها، لم أجد من أأتمنه عليها سواك، أعلم أنها ضعيفة هشة لا تجيد التصرف.

سكت قليلًا بأسى رجل انكسر كبرياؤه وأردف: كنت أتركها معك في بيت واحد ولم أقلق عليها، كنت أجعلك أمينًا عليها في ذهابها إلى أي مكان، لم أسألك يومًا عن تأخير أو سفر؛ ألم تسأل نفسك لماذا؟!

لم يرد، فأكمل: لم يكن عدم اهتمام؛ بل ثقة في تربية هذا البيت.

قال بحسرة: الحنان عمي، هو ما بخلت عليها به، بخلت حتى بمعرفتي ما تقوله لي الآن، القسوة هي ما جعلتنا نقف عند هذه النقطة لنحاسب أنفسنا من المخطئ في حق من، قسوتك ما جعلتها تهرب لتبحث عمَّن يحنو عليها، أمام جفائك لم يفكر أحدنا فيما تفكر به أنت.

وقف يربت على كتف عمه، وأكمل قائلًا: اخرج من حجرتك، عد للشركة، أنا لا أريد لها أن تنهار، دعنا نعود كما كنا لننسى ما مضى، حنين بخير وهذا ما يهم.

_ وهل سلمى بخير؟ زوجت أختك صديقك المتزوج!

رد مدافعًا: نعم، هي بخير وسعيدة مع زوجها، اختارت واقتنعت ورضيت عمي، أنت تعرف معاذًا جيدًا؛ لا داعي لأي تهكم أو تشكيك.

_ أحضرهم جميعًا هنا، أنت من غادرت من البداية، سأسافر؛ فلا تشغل نفسك بوجودي، إنه مؤقت.

_ إلى أين؟! ولماذا؟

_ اعتبرني قررت الاستجمام، أعطيت الشركة أكثر من اللازم، أخذتني حتى من ابنتي، لم أعد أطيق العمل، لك الشركة والمنزل، افعل ما تشاء، ولك ابنتي، حافظ عليها؛ فأنا لن أقبل أن تتزوج عليها كصديقك.

غادر يحي ليركب سيارته متجهًا لمنزله وهو يفكر في الحديث الذي لم يتخيله، ليسأل نفسه هل سهل الاعتراف بالخطأ؟ هل ما زال هناك وقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟ كيف برجل كان بهذا الجبروت أن يصبح على هذا القدر من الضعف؟ أهي السن ما تفعل بنا هكذا؟ أم الضمير؟ ربما يكون الخوف من الوحدة؟ أم الإحساس باقتراب الأجل؟

لا يهم السبب، المهم أنه قبل فوات الأوان.

....

دخل يحي المنزل ومعه باسم، ليرحب به قائلًا: دخول البيت من بابه أفضل من الانتظار على الطرقات، سيد باسم.

_ كنت راضيًا بالزهور، ولكن أنت من منعتها.

رد يحي وهو يجلس أمامه وعلى وجهه ابتسامة: أتعلم أني أشكر الله على أنه ألهمني منعك من إرسال الزهور؟!

_ ولمَ هذه السعادة؟!

_ ببساطة لولا ذلك لما كنت انتظرتها أمام النادي.

_ معك حق.

وقف قائلًا: سأصعد لأحضرها يا روميو، وتذكر هذا الجميل، وأني سمحت لك بالحديث معها ولم تكن تحلم بذلك.

_ شكرًا لسيادتك على هذا الكرم.

ابتسم يحي وقال بمشاكسة: أخبرني أولًا، ماذا ستقول لها؟

رد محاولًا كبت غيظه من هذا الذي يلعب بأعصابه: اجلس معنا أفضل.

أشار له يحي بيده بعلامة الموافقة وهو يقول: حسنًا، فكرة جيدة.

وقف باسم ليغادر، ولكنه دفعه في كتفه ليسقط جالسًا على الأريكة وقال: اجلس ولا تتحرك، هل تتخيل خروجك من هنا سهلًا؟!

ذهب إلى رهف وكان قد أقنعها بتجهيز نفسها للخروج معه، وجدها على غير عادتها من دون عدسات لاصقة ولم تعد تحاول صبغ شعرها، تركته كما هو متمردًا؛ فقال: أين رهف؟

ردت بحزن: ألهذه الدرجة شكلي من دون زينة سيئ؟ أخبرتني خالتي أني إن تركت نفسي من دون تغيير سأشبه أمي.

يعلم أنها في الفترة الأخيرة أصبحت حساسة لأبسط الكلمات؛ فقال: بالعكس، هذه هي رهف، البريئة ذات الشعر المتمرد وعينَي المها، أنتِ هكذا أفضل؛ لأنكِ هكذا رهف.

ابتسمت بسعاد، جذبها لتسير بجواره، وما إن نزلت معه السلم حتى تفاجأت بوجود باسم أمامها، بمجرد أن رآها وقف مبتسمًا، يتأملها لأول مرة من دون أي اضافات كما كانت تفعل، يرسمها بعينيه، فهذا من حق قلبه.

ابتسم يحي؛ فكم أسعدته نظرات الاثنين وما تحمله من حب! وقال قاطعًا الصمت: هل ستظلان كثيرًا هكذا؟! سينتهي الوقت المحدد لكما، مسموح بنصف ساعة فقط، وذلك إلى أن يتم عقد القران.

أنهى يحي كلامه وغادر، أفاق باسم من حالته ليبتعد بنظراته عنها، وجلس يترك لها فرصة التحرك دون حرج، جلست أمامه وبالطبع لم تحاول الكلام، ليبدأ هو: كيف حالكِ رهف؟

_ الحمد لله.

ردت باقتضاب؛ فقال بعتاب: سمعت من يحي أنكِ أردتِ السفر!

ترد بخجل: أجل، شعرت أن وجودي هنا ليس له مبرر.

_ وهل أنا لست مبررًا؟

هزت رأسها بعدم فهم؛ فأكمل: أبعد أن وجدتكِ تتركينني؟

لم تستطع الكلام، فقد كان صريحًا وسريع الرد على غير ما توقعت، ليكمل: اتفقت أنا ويحي أن يكون عقد قراننا بعد الاتفاق مع والدكِ على موعد لحضوره.

رفعت رأسها بمفاجأة لتقول بغضب وقد تبدل حالها: وهل تتفقان من دون إخباري؟! ولماذا فرضت قبولي بهذه السهولة؟! بل كيف تقبل بي بعد ما حدث؟!

ابتسم؛ فقد أخبره يحي بما تمر به منذ الحادث وقال: اتفقنا لأنه كما قال يحي يجب دخول البيت من بابه، وقبل سؤالكِ يجب أن أطلب يدكِ من والدكِ، هذا حقكِ وحقه، أما بالنسبة لفرضي قبولكِ، فهذا ليس فرضًا، إنه تأكيد من قلبي.

توترت لما يرمي إليه كلامه، وقالت بكبرياء أنثى: وما الذي جعلك متأكدًا هكذا؟!

ابتسم بخبث قائلًا: منذ يوم الحادث قد تأكد قلبي وعقلي من ذلك.

ردت بانكسار قائلة: فرضت موافقتي لما أصابني أمامك، أليس كذلك؟ مؤكد بعد ما حدث لي سأوافق حتى من دون أخذ رأيي!

رفع حاجبيه بدهشة مما وصل إليها، يعلم أن الأمر كان قاسيًا، ولكنه لم يتخيل أن تظن فيه ذلك؛ فقال بعتاب: أتعتقدين أني أستغل الظروف؟

لم تحاول الرد، أبعدت نظراتها عنه وانسابت عبراتها، وقف يأخذ نفسًا عميقًا، تخيلته سيغادر فزادت دموعها، لتتفاجأ به يجلس بالقرب منها قائلًا: ما حدث ليس لكِ يد به، ولا لأي واحدة منكن، والحمد لله، ثلاثتكن بخير وأفضل حال، وهو ينتظره أشد عقاب؛ ارتكاب جريمة كالخطف ليس بالهين، وهو يستحق ما سيتلقاه من عقوبة، يعلم الله أن

إحساسي حينها لم يقل عمَّا كان به يحي ومعاذ، ولم أكن لأسامح نفسي أبدًا لو حدث لواحدة منكن مكروه لا قدر الله، أما بالنسبة لقصدي منذ يوم الحادث، فلا أعرف هل تتذكرين أم لا.

_ أتذكر ماذا؟!

ابتسم بتلاعب، وقرر أن يشاغبها قليلًا ليخرجها من هذه الحالة المملة قائلًا: ألم تتذكري كيف خرجتِ يومها من المنزل؟

حركت عينيها يمينًا ويسارًا محاولة تذكر ما حدث؛ فهي منذ ذلك اليوم لم تفكر فيما مرت به؛ فقال بشك: ألم تعرفي أني من أنقذتكِ؟

أغمضت عينيها وقد ارتبكت، ولكن... حملها أحدهم... وإلى هذه النقطة فتحت عينيها باتساع وهي تنظر أمامها، ليعلم أنها بدأت تتذكر ما حدث، وقالت مدافعة عن نفسها: حملني يحي.

ضحك قائلًا: ألم يكن يحي مع زوجته في الإسعاف؟

أغمضت عينيها مرة أخرى، وقبل أن تتكلم قاطعها قائلًا: مؤكد ليس معاذًا؛ فقد كان مع زوجته، وصراحة لم أكن أقبل أن يحملكِ؛ فأنا أولى.

وضعت يدها على عينيها بخجل؛ فضحك وأكمل: حملتكِ حتى سيارتي، ولم أتحرك إلا عندما اطمأن قلبي عليكِ، وصراحة كان أجمل اطمئنان.

نظرت إليه بشك من مقصده، ولكنها بدأت تتذكر ما حدث، لتقول: أيكفيك لعبًا بي؟ وإلا فسأغادر الآن وأخبر يحي أنه فهم موافقتي خطأ.

قال وهو لا يحيد بنظره عنها يحاول حفظ تفاصيلها: وإن كان يحي فهم موافقتك خطأ، فأنا لم أفهمها خطأ.

قالت تدافع عن كرامتها من ثقته الزائدة: ومن أين لك هذه الثقة؟!

شعرت رغم عدم اقترابه منها أنه يكاد يدخل في أعماقها بهذه النظرات التي تخترقها، وهو يقول: عندما يكون الإنسان في أصعب وأشد موقف ممكن أن يتعرض له، ويريد الإحساس بالأمان، ماذا يمكنه أن يفعل عندما يجد أمامه شخصًا يمثل له الأمان؟

لم تحاول الرد، ولكنها كادت تعتصر ذاكرتها لتحاول الوصول لما يقصده وهي تحرك عينيها في كل اتجاه إلا اتجاهه، ليكمل: هل من الممكن أن ترمي نفسكِ بين ذراعَي أحد لم تشعري معه بالأمان؟

أغمضت عينيها بشدة وقد فهمت مقصده، ليزداد وجهها خجلًا وهو يكمل بصوت خافت اهتز له كيانها: لو لم يكن بقلبك لي مشاعر، ولو لم يكن وجودي جوارِكِ وقتها أشعَرِكِ بالأمان بعد كل الرعب الذي عشتِه، لكان أبسط شيء أن تبتعدي عني خائفة، وليس العكس.

أدارت رأسها بعيدًا عنه، علم أنها تذكرت ما حدث، لم يحاول النظر لها لتستطيع أخذ أنفاسها، وقال: منذ أول مرة رأيتكِ أدركت أنكِ من أبحث عنها، طلبت يديكِ من يحي مع أول باقة زهور وصلت لكِ.

أصابتها الدهشة ولم تستطيع الرد فأكمل: اتفقت مع يحي أن نؤجل أي ارتباط رسمي لحين استقراري في عمل؛ فقد رجعت من السفر منذ وقت

قصير، ولم أكن قررت البقاء هنا بعد، كنت أراكِ باستمرار في النادي، وبعدها أذهب لأرسل لكِ الزهور، إلى أن طلب مني يحيى عدم إرسالها مرة أخرى، وصراحة فكرت في الأمر، ووجدت أن معه حقًّا.

دُهشت من بساطة سرده لما حدث وكأنها ليست المرة الأولى التي يتحدثان فيها عن قرب، لتقرر قطع صمتها وخجلها وتسأله بصوت هامس: ماذا وجدت في؟

_ أتبحثين عن سبب للحب؟!

حركت رأسها يمينًا ويسارًا بعدم استيعاب، هل هو اعترف بحبه لها بهذه السهولة؟! لم يستطع مقاومة ضحكاته أمام رد فعلها؛ فوقف وناولها كوب الماء الموضوع على الطاولة، أخذته بتلقائية وشربته تم أعادته له مرة أخرى، وهو يحاول كتم ضحكاته أمام تصرفاتها الطفولية التي جعلته يخرج عن كل ما رتب له، وقال: أهدأتِ الآن؟

ابتسمت بخجل؛ فجلس قائلًا: أتعرفين، تذكرت قارئة الفنجان عندما أخبرني أنكِ أردتِ السفر وأنه منعكِ في آخر لحظة.

حركت رأسها بعدم فهم، ترمش بجفونها التي تصيبه في مقتل، ليقول: ألا تعرفين من قلبت فنجان نزار؟

ضحكت بشدة بعد فهمها ما يقصد، وقالت: وما دخلي أنا بها؟

صمت لحظات يجمع فيها شتات نفسه على أثر ضحكتها، ليقول: لقد وصفكِ نزار قبل أن تولدي، رهف.

ظلت صامتة؛ فقال: بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود، فمها مرسوم كالعنقود، ضحكتها أنغام وورود والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا.

قالت بصدمة: أنت تتحدث عمَّن؟!

_ ستفتِّش عنها يا ولدي في كل مكان

وستَسأل عنها موج البحر وتسأل فيروز الشطآن.

صاحت به: باسم، كفى، أنت تمزح.

بدأت تتلألأ الدموع في عينيها؛ فوقف وهو يقول: فحبيبةُ قلبك ليس لها أرض أو وطن أو عنوان، ما أصعب أن تهوى امرأةً يا ولدي ليس لها عنوان.

غادر بعدها ليتركها مع أحلامها التي تفتحت على يده، تحاول لملمة مشاعرها وقد بعثرتها كلماته؛ ليرن بداخلها لحن القصيدة وكلماتها ولكن بصوته هو، الحبيب الذي انتظرته سنوات ليظهر فجأة أعلى من سقف أحلامها البسيطة.

الفصل الثلاثون

عاد الجميع إلى منزل العائلة الكبير، دخلت حنين المنزل تتذكر كيف خرجت منه وهي تتمنى ألا تعود له مرة أخرى، لم تُدهش لعدم وجود والدها في استقبالها؛ فقد تعودت منه الجفاء، رحبت بهم عفاف التي عادت بمجرد علمها برجوعهم.

جذب يحيي حنين ليصعد بها باتجاه غرفة والدها، حاولت الوقوف أكثر من مرة ولكنه استمر في طريقه دون تردد، طرق الباب ليأذن له بالدخول، وبمجرد أن فتح يحيي الباب، تفاجأت بما وصل له حال والدها لتنساب دموعها أمامه، ظل ينظر لها ينتظر منها المبادرة، ولكن أي أساس بُني بينهما لتكون منها المبادرة؟

اقترب منها ببطء وقال بانكسار: أعلم أني قسوت عليكِ كثيرًا، ولكن كان خوفًا عليكِ، لم أتخيل يومًا أن يؤذيكِ أحد وأنا على قيد الحياة، ولكني اكتشفت أن وجودي في حياتكِ هو ما أضرك.

ظلت دموعها تنهمر أمامه، ولم تقوَ قدماها على التحرك، جذبها يحيي لذراعه؛ فقد خشي انهيارها قائلًا: حنين، هل أنتِ بخير؟

لم يجد منها أي رد؛ فاقترب والدها وقد هزه وقوفها أمامه بهذا الشكل، يحاول كبت دموعه حتى لا يهد آخر نقطة كبرياء بداخله أمام ابنته وابن أخيه، رفع يديه تجاهها بارتجاف خوفًا من رد فعلها، وما أن حاول جذبها إليه

بكلتا يديه حتى تفاجأ بها ترتمي بين أحضانه، تطلق العنان لشهقاتها لتغسل بداخلها كل ما مضى؛ فمهما كان فهو والدها، ومهما فعل بها فهذا الحضن هو الأمان، حصنها المنيع، أمان مختلف مهما عوضها الزوج والحبيب.

وقف يحيي صامتًا يشعر بالرهبة؛ فقد كان خوفه من لحظة انهيارها أكثر منها ومن عمه، كان يخشى العودة لنقطة الصفر من جديد.

وبعد دقائق، ما إن هدأ الجميع حتى نظر سليم ليحيي وقال: ما دام بداخلي أنفاس في هذه الدنيا، لن أسمح بانشغالك عنها، إياك أن تخذلها يومًا؛ هي أمانة في رقبتك.

اقترب يحيي من عمه الذي ما زال يحتضن ابنته، ليقول: سأفهم أكثر إن عانقتني أنا أيضًا.

رفعت حنين رأسها لهما لترى والدها يحتضن ابن أخيه؛ فجففت دموعها وكأنها تبدلت وقالت بقوة لم تتحدث بها من قبل وهي تنظر لوالدها بتحدٍّ: ولكني لن أقبل أن تسلمني له مع أملاكك، لن أقبل أن تعطيه مفاتيح قفصي الذهبي ليكون سجاني بعد أن كان ملاذي.

قال يحيي بعدم فهم: ماذا تقصدين؟

لم يحاول سليم الحديث حتى يعلم مقصدها، لتكمل قائلة بنفس نبرة الاعتراض: هل لا قيمة لي بالحياة لهذه الدرجة؟! أين أنا من خططكما

المستقبلية؟ وبأي حق تنظمان مستقبلي؟! هل سألني أحدكما ماذا أريد؟ بماذا أحلم؟ هل تريده نسخة أخرى منك؟

ليقول يحي وهو لا يصدق ما تفوهت به للتو: ماذا تقولين؟! هل طلبتِ مني شيئًا ولم أحققه لكِ لكي تقولي ذلك؟!

خرج سليم عن صمته قائلًا: انتظر لحظة لنعرف ماذا تريد.

اعتدلت حنين في وقفتها، وهي متأكدة أن والدها في هذه اللحظة سيحقق لها أي شيء مهما كان ليكسبها، ونظرت إلى يحي بتحدٍّ وكأنه غريمها، وقالت: أريد أن أدير الشركة معه، أليس هذا حقي مثله؟ ألم تدخلني كلية التجارة لهذا السبب؟ أريد العمل.

ابتسم والدها بسعادة فقد كان يتمنى ما تقوله، ونظر لها بإعجاب، وربت على كتفها قائلًا: لم تطلبي شيئًا صعبًا، إنه حقكِ، وأنا لا أمانع.

ونظر إلى يحي الذي جمدت ملامحه، ليكمل قائلًا: سيكون لحنين حق إدارة نصيبها معك ولن أقبل النقاش.

نظرت حنين إليه بنصر، ليقابل نظرتها بجمود ويغادر الغرفة دون أي رد فعل، كادت أن تناديه ولكنها تراجعت وقررت التمسك برأيها لتستأذن والدها وتغادر غرفته، وقفت بالخارج تفكر أين ستذهب، ولكنها قررت الذهاب إلى غرفتها؛ فهي تخشى رد فعله بعد ما قالته.

....

بعد مرور عدة أيام، كانت سلمى قد استقرت في شقتها مع وجود سيدة ترعاها كما حدث مع رحمة، فقد توصل الجميع إلى أن هذا هو الحل المناسب الذي يرضي كل الأطراف، رن جرس الباب، بالتأكيد الطارق رحمة؛ فهي تنتظرها منذ فترة، فتحت الباب وجذبتها للداخل بسرعة.

_ ماذا بكِ، سلمى؟ لماذا أصررتِ أن أترك الشركة وآتي إليكِ بهذه السرعة؟ ألا تعلمين أني أصبحت المسؤولة عنها بعد تفرغ يحي لشركة عمكِ؟! جئت خوفًا من أن يكون معاذ قد أغضبكِ في شيء؛ لأجدك تستقبلينني بابتسامة؟!

ابتسمت بسعادة وقالت: ركزي معي الآن.

_ ماذا حدث؟ لا تقلقيني، ماذا فعل معاذ؟

ضحكت بشدة وقالت: دائمًا أشعر أنكِ والدته، هل ستشدين أذنه؟!

ضحكت قائلة: بالطبع أفعلها، ألم تجربي من قبل؟ ماذا بكِ؟

قالت بارتباك: أشك في أمر، وقررت إخباركِ قبل أي أحد.

شعرت أن أنفاسها كادت تقف، لتسألها قائلة: أنت حامل، سلمى؟

دمعت عيناها أمام رد فعلها وقالت: نعم رحمة.

احتضنتها قائلة وقد اختنق صوتها: هل ستتركينني أحمله؟ هل... هل ستوافقين أن يناديني بأمي؟ سلمى، أرجوكِ دعيني أراه دائمًا... أرجوكِ أخبريه أن يقول لي أمي.

ردت سلمى بألم لحالها فأي وجع هذا الذي تتحمله؟! وأي قلب هي لتفرح لها بهذا الشكل؟! وقالت: لهذه الدرجة سعيدة رحمة؟!

بكت كما لم ترَها من قبل وهي تقول: إنه ابن معاذ، حتى وإن كان من غيري، قطعة منه، حلمه سيتحقق، حتى وإن لم أستطع أنا تحقيقه، حلمت معه بأبناء يشبهونه.

شعرت سلمى بالرهبة أمام كل الحب الذي بداخل هذه المرأة، لتقول وهي ترتجف: بل ستكون فتاة، وسأسميها رحمة؛ لتصبح مثلكِ بكل هذا الحب النابع من صفاء قلبك.

بعد فترة غادرت رحمة متعللة بالعمل؛ رغم محاولات سلمى معها كي تنتظر عودة معاذ؛ فلا بد ألا تكون أنانية لتترك فرصة لسلمى أن تعيش هذه اللحظة مع زوجها.

ركبت سيارتها وظلت دموعها تنهمر من دون توقف، راضية هي عمَّا اقترفت، وغير نادمة على تفريطها في حبيب عمرها؛ تنازلت عن حقها الكامل به ليحصل على حق هو يستحقه، غير نادمة على اختيارها سلمى؛ فهذه الفتاة تستحق أن تكون أمًّا لطفل يحمل اسمه، هذه هي السعادة، أن يكون كل من حولكِ سعداء.

....

عاد معاذ من العمل في موعده؛ فوجد سلمى تنتظره أمام الباب وواضحة عليها آثار الدموع؛ فقال بقلق: ماذا بكِ، سلمى؟

_ لا عليك من هذه الدموع، إنها لحظات تأثر، هيا لتبدل ثيابك، أريد إخبارك أمرًا هامًّا.

جذبته للداخل أمام دهشته وهو يحاول فهم هل هي سعيدة أم حزينة: ماذا بكِ؟! أنا لا أفهم، أنتِ غير طبيعية.

بدل ثيابه، أصرت أن يأكل أولًا وظلت تتأمله، وبعد أن أنهى طعامه وقفت قبالته تفكر كيف ستخبره بالأمر، فكل ما خططت له لا تستطيع تنفيذه وقالت: معاذ، أنا لم أطلب منك أن تقبلني من قبل.

ابتسم وهو يقترب منها قائلًا: كل هذه المقدمات لطلب قبلة؟!

_ عندك حق؛ خبر حملي يستحق أكثر من ذلك.

ظل صامتًا لحظات ليقول بعدها بتردد: خبر ماذا؟! أنتِ حامل!

_ وهل هذا رد الفعل فقط؟! رحمة عندما علمت احتضنتني وقبلتني، وأنت تقف مكانك هكذا؟!

قال بشك وقد لاحظت ظهور الدموع في عينيه: سلمى، أنتِ تتحدثين بجدية... أنتِ فعلًا حامل... أ...أقلتِ رحمة علمت؟

_ اقسم لك لتصدق؟!

لم يخجل من ظهور دموعه وهو يحمد الله شكرًا، هذا الرجل الذي طالما كان أمامها قويًّا، دائمًا ما كان يصعب عليها فهم تعبيرات وجهه، يتأثر بهذا الشكل أمامها! اقترب منها يحتضنها بشدة؛ فلم يعد يستطيع الكلام، كل ما استطاع فعله هو إعطاؤها من حبه وامتنانه ما تستحق، أكثر بكثير مما طلبت.

....

بحث عنها فلم يجدها فمنذ أيام وهي تتجنب مواجهته وظلت في غرفتها، وكأنهما برجوعهما إلى هذا المنزل عادا كما كانا من سنوات ونسيت أنها تزوجته، ولكنها لا تعرف أنه لم يمضِ يوم دون أن يطمئن عليها؛ فبمجرد دخوله المنزل تبحث عيناه عنها من دون إرادته، ورغم نظرات الحزن بعينيها فإنه تركها لتتحمل نتيجة ما قالته، لم تكن تعرف هي أنه يوميًّا يدخل غرفتها بعد نومها ليطمئن عليها قبل أن ينام.

ولكنه قرر اليوم الاكتفاء بهذا البعد، فهو يعلم صغيرته؛ لن تستطيع تحمل ضغوطه مهما حاولت إظهار غير ذلك، وقبل أن يسأل نفسه أين هي اتجه للحديقة، ليجدها كما توقع أمام حوض زهورها خلف المنزل: ماذا تفعلين؟!

_ زهوري ماتت.

دون أن يتحدث ابتعد ليعود بعد دقائق يحمل أدوات الزراعة وخرطوم الري، وأخذ يقلم الزهور ويقص كل الأطراف الجافة.

جذبها من الأرض لتقف أمامه، وقال: لن يفيد الحزن بشيء، ما دام بداخلنا أنفاس وإرادة نستطيع أن نعيد كل شيء كما كان، الزهور ذبلت بسبب عدم الاهتمام، ولكنها لن تموت مرة واحدة، ظلت تجف جزءًا جزءًا لعل صاحبها ينقذها ويهتم بها، هناك أجزاء صغيرة بداخلها يوجد بها حياة، ستكبر وتنمو وتعود مرة أخرى.

تعلقت برقبته كطفلة فرحت لحل أبيها مشكلتها، لتبتعد عنه قليلًا وهي تنظر له بخجل قائلة: آسفة... أنا....

وضع أصبعه على شفتيها، قائلًا: لا ترجعي في قرار أخذتِه.

قالت بعدم فهم: ألم تغضب لأني أردت العمل بالشركة و...؟

قطع كلامها مرة أخرى قائلًا: لم أغضب لأنكِ تريدين العمل، تخيلت أنكِ ستفهمين، ولكن واضح أني سأعيش عمري كله أشرح لكِ حتى في الشركة!

حركت أهدابها بسرعة تحاول الاستيعاب وهي تقول: هل لا تمانع نزولي الشركة معك؟!

_ ها أنتِ قلتِ 'معي'؛ أي ستظل عينان تشبع من رؤياك.

_ ولكن ما الذي أغضبك؟

_ أحزنني أن يكون هذا رأيكِ بي، أحزنني أن تفكري في هذا الأمر ولا تناقشيني فيه، تضعينني أمام الأمر الواقع، وكأنك تتوقعين رفضي، أتتخيلي أني سأمنعكِ من العمل بشركة والدكِ وأن أسلبكِ هذا الحق وأعطيه لنفسي؟!

تعلقت برقبته بسعادة قائلة: آسفة، والله آسفة، كنت سآتي لك وأخبرك أني لا أريد أي شيء سواك... فقط لا تغضب مني.

أبعدها قليلًا وقال: قلت لكِ من قبل إياكِ والرجوع في قرار.

ليكمل كلامه بتلاعب: وعقابًا لكِ على عدم دخولكِ غرفتي كل هذه الأيام، ومبيتكِ في غرفة لم تعد لكِ منذ يوم زواجنا...

حملها فجأة على كتفه.

_ يحي، ماذا تفعل؟! نحن في الحديقة! أنزلني، لا يصح هذا.

اتجه بها لمكان المسبح في الجانب الآخر من حديقة المنزل، أنزلها وهو يقول: ما رأيكِ؟

وجدته قد أعاد صيانة المسبح، وتم تركيب مظلة له ليكون مكانًا خاصًّا لا يمكن لأحد التطفل عليه؛ فقالت: متى فعلت ذلك؟!

_ هل عندكِ شك في قدرات زوجكِ؟ أنسيتِ أنه عملي؟!

احتضنته بسعادة؛ فجذبها باتجاه المياه فجأة وخلع سترته، ودون أن تعي ماذا حدث وجدت نفسها في المياه معه، قالت ببهجة: يحي، أتلفت ملابسنا.

_ من أجل هذه اللحظة أدفع ثمن ألف ثوب، حنين.

احتضنها في الماء ودار بها لأول مرة، ليحقق هذا الحلم القديم، أسعده رنين ضحكاتها في المكان.

_ لو تعرفين كم تمنيت هذه اللحظة، كم تمنيت أن أكون معكِ بحريتي دون قيود، دون خوف من نفسي عليكِ! لو تعرفين كم كنت أخشى

قربكِ، أخشى لمسك، أخاف عليكِ من نفسي! آه يا حنين! أصبتِني بالعشق منذ أن عرف جسدكِ سر الأنوثة، وقبل أن تعيها أنتِ نفسك، عندما علمتكِ السباحة لأول مرة تأكدت أن هناك شيئًا بداخلي لكِ سيكبر كلما كبرتِ وكبر توهجكِ وجمالكِ، لتغني عينيَّ عن كل نساء الدنيا، ويكون طعم الحب معكِ بكل نكهات النساء.

....

بعد عدة شهور

في غرفة بإحدى المستشفيات، جلس معاذ يحمل طفلته التي جاءت للدنيا منذ دقائق، وبجواره رحمة تمتلئ عيناها دموعًا وهي تنظر له بسعادة، لتسأله كريمة التي تجلس بجوار ابنتها: ماذا ستسميها، معاذ؟

ابتسم بود وهو يقول: والدتها من ستسميها.

وضع الرضيعة بين أحضان سلمى وقال: فتاة كالقمر، تشبهكِ.

قالت حنين التي تجلس بجوار يحيي بتوتر من رهبة الموقف تضع يدها على بطنها: أخبرينا يا قمر ماذا ستسمينها؛ فلقد رفض معاذ أن يخبرنا اسمها، ويوهمنا أنه لم يعرف، وأنه يترك تسمية الطفلة لكِ!

ابتسم معاذ قائلًا: ولماذا أنتِ واثقة بأني أعرف الاسم؟

رد يحيي قائلًا: حنين اختارت إلى الآن ثلاثة أسماء فتيات وثلاثة أسماء أولاد لجنينها المنتظر.

ضحك الجميع؛ فنظرت له حنين بعتاب فرفع يدها يقبلها.

قالت سلمى بخفوت: رحمة الوحيدة التي تعرف الاسم.

نظرت لها بشك وقد بدأت دموعها تشاركها اللحظة؛ فأكملت سلمى: وأنا واثقة أن معاذًا يعرف أيضًا الاسم.

ابتسم معاذ ومال يقبل جبهتها؛ فقالت: سأسميها رحمة؛ لتصبح كرحمة الكبيرة، قلبها نقي، جميلة وقوية رغم كل شيء، سأجعل رحمة تربيها معي؛ لتصبح مثلها ناجحة مميزة ذات قلب نقي، أريدها شمسًا صغيرة تبث من حولها الطاقة، ستكون رحمة معاذ.

انتهت الرواية ولم تنتهِ القصة،
قصة قلوب أحبت وقلوب عرفت التضحية،
حين تقرر الحب تتنازل بلا قيود، وحين تضحي لا تنتظر المقابل.
الحب قرار، وفي الحب قرار، وبيدك الاختيار؛ إما أن تقرر أن تنهي حبك، وإما أن يستمر الحب والعطاء برضا و اقتناع بأنك اتخذت القرار الصائب.

رواية
قوة الأناناس
مي حسام أبو صير
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.